العدد 175
السنة الثامنة عشرة
ربيع 2021

مجلة سياسية ثقافية تصدر عن شبكة إعلام
الاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political, cultural magazine issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

مدير الإدارة
مغديد صباح
maghdeedsabah@gmail.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

دراسات		4
- دحض مزاعم وجود أخطاء علمية في القرآن الكريم	خالد كبير علال	5 –22
- نظرات حول المقاصد العقدية من خلال القرآن الكريم	رشيد لبريجة	23-41
- تفسير العلامة سبحاني لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى	د. عمر عبد العزيز	42 - 52
- الإرساليات البابوية ودورها في تغيير الخارطة المذهبية لمسيحيي كُوردستان	أ.د. فرست مرعي	53 - 71
- دعوة بديع الزمان سعيد النورسي إلى الوحدة الإسلامية	د. دحام الهسنياني	72 - 84
- الخارطة السياسية الإثنية في تركيا	شوان زنكنة	85 - 97
- عبق الكلمات/ اسمع كثيراً وتحدَّث قليلاً	عبدالباقي يوسف	98- 99
مقالات		100
- هل ستلحق الموصل بكوسوفو؟	د. سعد الديوه جي	101 - 104
- دوائر المعنى وخطاب الواقع	د. سامي محمود	105 - 107
- دوافع دخول الإسـرائيليات في الفكر الإسلامي	د. سنان أحمد	108 - 113
- القول بأبدية العالم طريقة لإنكار يوم القيامة	د. أكرم فتاح	114 - 119
- معضلة التوريث وإشكالية تجديد الدماء الشابة في العمل الإسلامي	محمد صادق أمين	120 - 122
- الخطاب الإسلامي والتجديد	سالم الحاج	123 - 127
- الستون وقد بلغتها!	عمار وجيه	128 – 129

مرافىء/ -(المواطن الصحفي) في عالم الإعلام	د.يحيى عمر ريشاوي	130
تأملات في سورة /		131
- تأملات في سورة النصر	صالح شيخو الهسنياني	132 - 150
بصراحة/ الحجم الحقيقي لموظفي الدولة والانتخابات القادمة	صلاح سعيد أمين	151
ثقافة/		152
- الأدب وقضايا الفكر والإيديولوجيا	د. مصطفى عطية	153 - 156
- قصة واقعية - مَوْدا المنكودة	عبد الخالق البرزنجي	157 - 159
آخر الكلام/ معجزة النبي كانت كلمة	محمد واني	160

- دحض مزاعم وجود أخطاء علمية في القرآن الكريم	خالد كبير علال
- نظرات حول المقاصد العقدية من خلال القرآن الكريم	رشيد لبريجة
- تفسير العلامة سبحاني لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى	د. عمر عبد العزيز
- الإرساليات البابوية ودورها في تغيير الخارطة المذهبية لمسيحيي كُوردستان	أ.د. فرست مرعي
- دعوة بديع الزمان سعيد النورسي إلى الوحدة الإسلامية	د. دحام الهسنياني
- الخارطة السياسية الإثنية في تركيا	شوان زنكنة

دحض مزاعم وجود أخطاء علمية في القرآن الكريم

خالد كبير علّال

نقض الزعم بأن القرآن قال بأن الأرض والسماء وُجدتا منذ نشأة الكون:

✍زعم بعض الملاحدة أن من أخطاء القـرآن العلميـة: أن "الأرض - وغلافهـا الجـوي: السماء - موجودان منذ نشأة الكون"([1]). ثم أورد آيات قرآنية تتعلـق بخلـق الكـون، هـي: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}(الأنبياء:30)، و{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}(الفرقان:59)، و{اللَّـهُ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِـنْ وَلِيٍّ وَلَا شَـفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}(السجدة:4)، و{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَـانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُـمْ مَبْعُوثُـونَ مِـنْ بَعْـدِ الْمَـوْتِ لَيَقُـولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}(هود:7)، و{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}(فصلت:11).

([1]) لؤي عشري: القبر المحفور لدين الإسلام: النقد الشامل لنصوص الإسلام، الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن والحديث، الباب الأول: الأخطاء العلمية، ص: 1.

ثم قال: "عمر كوكب الأرض حوالي 4،5 مليار عام، استغرقت الأرض بعد تكونها ملايين السنين لتبرد وتصير صالحة للحياة، ويقال إن أصلها شظايا من انفجار نجم سوبرنوڤا متضخِّم، أو غبار وأجرام متجمعة، ما قبل أن تبرد الأرض يعرف بالعصر الجحيميّ، أما عمر الكون فهو أكثر من ١٤ مليار سنة، قول القرآن بوجود الأرض وغلافها الجوي، (ولو أن مفهوم السماء القرآني غير دقيق، فهو لا يعرف الفرق بين الغلاف الجوي والكون كشيء غير محدود)، منذ البدء خطأ علمياً وباطل. وكذلك خرافة مدة الستة أيام باطلة. كذلك ذكره مثل التوراة - كالتلميذ الذي يغش من تلميذ يجيب في الامتحان على نحوٍ خاطئ -وجود الماء وبخار الماء (الدخان كما فسره كل المفسّرين) منذ بداية تشكل الكون المعروف الحاليّ خطأ علمياً. حيث من المعروف علمياً أول ما ظهر من الانفجار الكبير هو جسيمات تحت ذرية، ثم تكونت أول الذرات في الجدول الذري، ومن اندماجاتها النووية بفعل التجاذب داخل غيومها الكثيفة الكبيرة لاحقًا تشكَّلت النجوم كمستعرَّات نووية، منها نتجت كل العناصر المعروفة. ومع ذلك فتعريف التوراة والقرآن للغلاف الجوي للكوكب، وهو مجموعة غازات، على أنه بخار أو دخان غير صحيح، وكذلك عدم تمييزهما بين الكون الغير محدود، والغلاف الجوي لكوكبنا المحدود، وتخيلهم أنه السماء الأولى مرصَّعة بالنجوم من داخله كالقبة المعدنية!"([2]).

أقول: تلك المزاعم باطلة جملة وتفصيلاً، وفيها تحريف وغش وخداع، وتعصب للباطل. أولاً، لأن ذلك الكاتب لم يورد كل الآيات المتعلقة بالموضوع الذي تكلم فيه، ولا شرح الآيات وبيّن معانيها، مع أن القرآن الكريم كتاب مُحكم يفسر نفسه بنفسه. ولا ذكر أقوال العلماء المعاصرين الذين فسروا آيات خلق الكون تفسيراً علمياً، ولو رجع إليها لتبيّن له بطلان مزاعمه. وأغفل آيات أخرى تُبطل زعمه المتعلق بالغلاف الجوي، وألحق قول القرآن الكريم في خلق الكون بما قالته التوراة عن خلقه، ولم يُفرّق بينهما، مع أن القرآن لم يقع في الأخطاء التي وقعت فيها التوراة. أغفل كل ذلك، وهجم على القرآن الكريم يُكذبه ويطعن فيه بهوى إلحاده، انتصاراً للباطل. وتصرفه هذا هو دليل دامغ بأنه كاتب مُحرف مريض مُتعصب للباطل، ولا يبحث عن الحقيقة، ولا هو مُحايد، وإنما هو صاحب هوى جاحد معاند، هدفه النيل من القرآن، والانتصار لهواه وإلحاده بالتحريف والافتراء، وعدم قول الحق، والتعلق بالشبهات والظنون.

([2]) لؤي عشري: القبر المحفور لدين الإسلام: النقد الشامل لنصوص الإسلام، الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن والحديث، الباب الأول: الأخطاء العلمية، ص: 1.

ثانياً: ليس صحيحاً أن القرآن حدد عمر الكون بستة أيام، وإنما حدد المدة التي تمّ فيها خلق الكون، وهي ستة أيام، واليوم مقداره ألف سنة بحسابنا، ولا يعني اليوم الشمسي- 24 ساعة -، لأنه لم يكن وُجد أصلاً عند بداية خلق الكون، وإنما يعني اليوم الإلهي وليس يومنا نحن. والدليل على ذلك قوله سبحانه: {وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}(الحج : 47)، و{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}(السجدة: 5). وهذا اليوم ينطبق على قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}(يونس: 3). ومعنى ذلك أن خلق الكون مر بمراحل، وصفها القرآن بأنها ستة أيام، كل يوم مقداره ألف سنة. فلماذا أغفل ذلك الكاتب المُحرّف تلك المعطيات القرآنية؟

وعندما خلق الله الإنسان كان الكون مخلوقاً تاماً جاهزاً لاستقبال الإنسان. وقد سبقته إلى العيش فيه مخلوقات كالحيوانات والجن. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة: 30)، و{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}الحجر:26-27)، و{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً}الإنسان: 1). ومعنى ذلك أنه عندما خلق الله الإنسان كان عمر الكون أكثر من ستة آلاف سنة من دون شك. منها ستة آلاف سنة خاصة بخلق الكون، ثم تأتي مرحلة أخرى، وهي التي عاشت فيها المخلوقات التي سبقت ظهور الإنسان، منها: الجن، والحيوانات، والنباتات. وهذه المرحلة لا نعرف هل بدأت مباشرة بعدما تم خلق الكون، أم أنها ظهرت بعد زمن طويل من تهيئته؟ كما أننا لا نعرف عمرها الزمني، وحسب ما يقوله علم الجيولوجيا، وعلم الحفريات، فإنها كانت مرحلة زمنية كبيرة([3]).

ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الزمنية من خلق آدم - عليه السلام - إلى اليوم. والقرآن الكريم لم يُحدد المدة الزمنية من نزول آدم وزوجه إلى الأرض إلى ظهور الإسلام، ولا ثَبت ذلك بحديث نبوي صحيح. وتلك المرحلة تُقسم إلى مرحلتين كبيرتين: ما قبل التاريخ: وتتضمن تاريخ الإنسان غير المكتوب. وقد اختلف العلماء في تقديرها، وهي تتراوح ما

([3]) الموسوعة العربية العالمية، مادة: الأرض. وللتوسع في ذلك انظر كتابنا: نقض شجرة التطور العضوي بالقرآن الكريم وعلم الحفريات. والكتاب متوفر إلكترونياً في الشبكة المعلوماتية.

بين: 500 ألف، إلى نحو مليوني سنة. ثم المرحلة التاريخية، وتبدأ بمعرفة الإنسان للكتابة إلى اليوم، والمقدرة بنحو: 6000 سنة([4]). فالقرآن الكريم لم يُحدد عمر الكون، ولا قال بأن عمره ستة أيام، كما زعم ذلك الكاتب المُحرف، وإنما حدد المدة التي استغرقتها عملية خلق الكون فقط قبل ظهور الأحياء التي تعيش فيه .

ثالثاً: ليس صحيحاً أن القرآن أخطأ عندما تكلم عن المراحل الكبرى التي مر بها الكون؛ وإنما ذلك الكاتب المُحرف هو الذي افترى على القرآن وحرفه. وبيان ذلك أن القرآن الكريم ذكر المراحل الكبرى التي مرت بها عملية خلق الكون، وهي مراحل صحيحة، وتتفق تماماً مع ما يقوله العلم المعاصر، ولا تخالفه . وتفصيل ذلك أنه يتبين من الآيات القرآنية أن الكون تكون في مراحل، أو دورات، أو فترات زمنية طويلة، ولم يظهر دفعة واحدة، فذكرت أنه مر بحالات؛ هي: الرتق- الالتئام- ، ثم الفتق – الشق ، الفصل، أو الانفجار- ، ثم الحالة الغازية- الدخان - ، ثم الحالة الملتهبة والسائلة، ثم الحالة الصلبة، وهذا كله مُستنبط من الآيات الآتية: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}(الأنبياء: 30)، و{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ([5]) سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}فصلت:9 - 12)، و{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً}الإسراء: 12)، وهذه الآية تضمنت الإشارة إلى حالة القمر الأولى التي كان عليها، فكان ملتهباً ثم أصبح صلباً بعدما انطفأ. وهذه الحالة مرت بها - أيضاً - الكواكب الأخرى، عندما انفصلت من نجومها؛ ومنها: الأرض، وباقي كواكب المجموعة الشمسية، التي انفصلت من الشمس، كما هو معروف في علم الفلك([6]).

([4]) انظر: الموسوعة العربية العالمية: مادة: العالم ، تاريخ، شعوب ما قبل التاريخ.

([5]) لاحظ قال أربعة أيام، لأنه أدخل فيها اليومين السابقيّن المتعلقيّن بالأرض ككل، فيكون مجموع الأيام التي خُلق فيها الكون كله ستة أيام. وهذا أكده القرآن الكريم في عدة آيات، والقرآن يفسر نفسه بنفسه.

([6]) انظر مثلاً: الموسوعة العربية العالمية، مادة: الشمس، الكون، الفلك.

رابعاً: إن قول البعض بأن القرآن أخطأ عندما قال بأن الأرض، بغلافها الجوي والسماء، كانتا موجودتين عند بداية نشأة الكون([7])؛ هو زعم باطل، وشاهد على تحريفه وغشه وتعصبه للباطل. لأنه بيّنا سابقاً أن القرآن ذكر أن الكون ظهر في مراحل؛ هي: الرتق، ثم الفتق، ثم الحالة الغازية، ثم المنصهرة، ثم الصلبة، وهنا تكونت الأرض وغيرها من الكواكب. وكذلك السماء ظهرت بمكوناتها بعد المرحلة الغازية.

وأما الزعم بأن القرآن لا يعرف الفرق بين الغلاف الجوي للأرض والكون، فهو زعم باطل أيضاً، وشاهد على التحريف والتعصب للباطل. كما أن صاحبه لم يؤيد زعمه بدليل من القرآن، ولا جمع الآيات التي تحدثت عن الأرض وغلافها الغازي وعلاقتها بالكون. ولو كان محايداً وباحثاً عن الحق، لجمع تلك الآيات، وأوردها، وتركها تتكلم وتُعرفنا بما قاله القرآن عن ذلك الموضوع. لم يفعل ذلك، واتهم القرآن - زوراً وبهتاناً -، لأنه يعلم أنه كاذب ومُحرف، ولا يبحث عن الحقيقة، وإنما يبحث عن أي شيء يطعن به في القرآن الكريم انتصاراً لهواه وإلحاده وحقده على الإسلام. ولو أوردها لفضحته، ولظهر للقارئ أنه كاتب مُحرف، متعصب للباطل.

وأما الآيات التي تُبطل زعمه، فمنها قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}(الأنبياء: 30-33). وكذلك قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}(الزمر:5). {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}(يس:38- 40).

تلك الآيات تكفي وحدها لإبطال زعم ذلك الكاتب، أولاً، أنها فرقت بين السموات والأرض، فالأرض بكل مكوناتها هي جزء من الكون، وخصها القرآن بالذكر لأهميتها للبشر، ومكانتها. ثانياً: إن الأرض محمية بسماء خاصة بها، سمّاها القرآن سقفاً محفوظاً، وهو الغلاف الغازي، إنه غلاف محيط بالأرض يحميها من المخاطر. فهو سقف

([7]) لؤي عشري: القبر المحفور لدين الإسلام: النقد الشامل لنصوص الإسلام، الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن والحديث، الباب الأول: الأخطاء العلمية، ص: 1.

يحميها من مخاطر الفضاء، كالأشعة، والأجسام التي تسبح في الفضاء، والنيازك والشهب، فهو سقف يحمي الأرض. ثالثاً: إن القرآن بعد ذلك تكلم عن الأرض، ضمن كلامه عن الشمس والقمر والليل والنهار، وميزها - كما ميّز الشمس والقمر - وأن كلا منها يسبح في فلكه. لكنه لم يذكر الأرض باسمها، وإنما أشار إليها بذكره لليل والنهار، وأنهما يسبحان، ولا يُمكن لهما أن يسبحا إلا بوجود الأرض التي تتحرك حول نفسها، فيحدث تعاقب الليل والنهار. وهذه الحقيقة مُتضمنة أيضاً في قوله تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ}(الزمر: 5). وهذا إعجاز قرآني مُذهل من جهتين: عندما نزل القرآن كان الفلاسفة، وغيرهم من أهل العلم، وعامة الناس، يعتقدون أن الأرض ثابتة ولا تتحرك([8])، لكن الحقيقة هي أن الأرض تتحرك حول نفسها، كما قال القرآن، وأثبته العلم الحديث. والجهة الثانية، هي أن القرآن الكريم، في الوقت الذي أشار إلى حركة الأرض حول نفسها، فإنه لم يقل بصراحة أنها ثابتة، ولا أنها مُتحركة، لكنه أشار إلى حركتها حول نفسها. وبذلك لم يصدم الناس، ولا أعطاهم دليلاً ضده، ولم يقرّهم على خطأهم، وهذا إعجاز مُبهر بلا شك.

علماً بأن القرآن الكريم كما أنه جعل الأرض جزءاً من هذا الكون، وميّزها عن باقي مكوناته، بخصائصها، وبمكانتها، وأهميتها للإنسان من جهة؛ فإنه جعلها - من جهة أخرى - جزءاً منه في حركته وتمدده اللانهائي. وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}(الذاريات:47). وهنا عبّر عن العالم بالسماء، فهو بناء متحرك.

وأما زعم ذلك الكاتب بأن تعريف القرآن للغلاف الغازي الأرضي بأنه دخان، ووصف التوراة له بأنه بخار، وهو تعريف ليس بصحيح - حسب قوله -؛ فإن الأمر ليس كذلك. فبالنسبة للقرآن، فهو لم يقل إن ذلك الغلاف هو دخان، لأن الدخان ذكره القرآن عند بداية خلق الكون، وقبل خلق السموات، وأما الغلاف الغازي، فلم يصفه بأنه دخان أبداً، وإنما وصفه بأنه سقف محفوظ، وهو سقف مكون من غازات يحمي الأرض.

وأما بالنسبة للتوراة، فهي أيضاً لم تقل إن الغلاف الغازي مُكوّن من بخار، وإنما ذكرت - كما سيأتي قريباً – أن الله خلق الكون من الماء، فَفَصَل الماء إلى قسمين بجلد،

([8]) انظر: ماجد فخري: أرسطو ، ص: 56 ، 57. تاريخ الفلسفة اليونانية، ص: 119، 128. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، ص: 190 وما بعدها. علي حسن موسى و آخرون: تاريخ علم الفلك، ط1 ، دار دمشق، دمشق، 1984، ص: 50. علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص: 227. محمد عبد الرحمن مرحبا: الكندي؛ فلسفته– عويدات، بيروت، 1985، ص: 71.

قسم كوّن السماء، وقسم كوّن الأرض. ولم تشر إلى الغلاف الغازي أصلاً، وإنما ذكرت السماء والأرض.

وأما زعمه بأن القرآن كالتوراة قال بأن السماء الأولى - السماء الدنيا - "مُرصّعة بالنجوم من داخله، كالقبّة المعدنية"، فهو زعم باطل بلا شك. لأن القرآن الكريم فرّق بين السماء الدنيا، ومكوناتها، من الناحية الطبيعية، وبين نظرة الناس إليها من الأرض. فمن الناحية الطبيعية، أن السماء الدنيا هي واحدة من السموات السبع، كما سيأتي لاحقاً، وتوجد بها الكواكب والنجوم، وهي ليست مرصعة من الداخل كقبة معدنية، وإنما هي أجسام كثيرة تسبح في أفلاكها ضمن نظام مُحكم، من جهة؛ وتتحرك ضمن حركة الكون كله في تمدده، من جهة ثانية.

وأما من ناحية نظر الناس إلى السماء الدنيا من الأرض، بما فيها من كواكب ونجوم وجمال، فهي نظرة جمالية تظهر للناس كأنها مرصعة في السماء، مع أنها ليست كذلك. والقرآن أشار إلى الجانب الجمالي، لكنه لم يقل أنها مرصعة، ولا أنها تظهر للناس مرصعة من داخلها كالقبة المعدنية؛ وإنما قال: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}(الملك: 5). و{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ}(6). والمصابيح هي النجوم، منها: الشمس. والكواكب هي أجسام صلبة، وليست ملتهبة، منها: الأرض، والقمر.

خامساً: من الشواهد على ممارسة ذلك الكاتب للتحريف والخداع، أنه ألحق القرآن الكريم بالتوراة فيما قالته عن خلق الكون، ولم يورد نص التوراة، واكتفى بالزعم بأن القرآن قال بما قالته التوراة تأثراً بها. وهذا باطل وكذب، ولو كان موضوعياً وباحثاً عن الحق لأورد النص التوراتي لتوثيق زعمه. ولكي يرى القارئ بنفسه، ويتأكد من كذب ذلك الكاتب، ولبيان مدى تحريفه وخداعه للقراء، أورد هنا النص التوراتي كاملاً، يقول: "في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة، وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور، فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء، وكان صباح، يوماً واحداً. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء، وكان مساء، وكان صباح، يوماً ثانياً. وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً،

وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه، بزره فيه على الأرض، وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء، وكان صباح، يوماً ثالثاً. وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء، لتنير على الأرض، وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض. ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء، وكان صباح، يوماً رابعاً. وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية، الدبابة، التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً أثمري، أكثري، واملئي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء، وكان صباح، يوماً خامساً. وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم و دبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله، خلقه ذكراً وأنثى، خلقهم وباركهم الله، وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر، شجر يبزر بزراً لكم يكون طعاماً. ولكل حيوان الأرض، وكل طير السماء، وكل دبابة على الأرض، فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً، وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً. فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً(سِفر التكوين 1/ 1- 30 . 2/ 1- 3).

أقول: واضح من ذلك النص التوراتي أن الفرق كبير جداً بين ما قاله القرآن، وبين ما قالته التوراة عن خلق الكون من جهة؛ وأن النص التوراتي فيه أخطاء علمية كثيرة لا وجود لها في القرآن، مقابل تضمنه لإشارات إعجازية مُبهرة، من جهة أخرى. لكن ذلك الكاتب

المُحرف ألحق القرآن بالتوراة، وزعم أنهما أخطآ فيما قالاه عن خلق الكون، وتناسى أخطاء التوراة، وغفل عمداً عن صواب القرآن، وإعجاز ما قاله عن خلق الكون.

ومن أخطاء التوراة، التي تضمنها ذلك النص، وغفل عنها الكاتب المحرف، أنها زعمت أن العالم تكوّن وخُلقت جميع مخلوقاته في ستة أيام، التي تعني أيامنا المعروفة عندنا - 24 ساعة في اليوم - بدليل أن النص التوراتي أكد ذلك وكرره عندما قال: وكان صباحاً، وكان مساءً. وقولها هذا غير صحيح قطعاً، لأنه جعل الكون بكل مخلوقاته تكوّن في: 144 ساعة - 6 أيام - .فهو زعم باطل مخالف للقرآن والعلم معاً. وقد بيّنت الأبحاث والاكتشافات الحديثة أن الكون خُلق في أحقاب ومراحل جيولوجية مديدة([9])، ولا يُمكن أن يكون قد خُلق في 144 ساعة بكل مخلوقاته، منها الإنسان. والكائنات الحية لم تظهر دفعة واحدة، وفي وقت قصير، وإنما ظهرت في مراحل وفترات طويلة زمنياً، كان الإنسان آخرها ظهوراً، بعدما هيّأ له الله تعالى الأرض منذ نحو مليوني عام([10]).

ومن أخطاء ذلك النص التوراتي أيضاً قوله بظهور الأرض والنور في اليوم الأول، قبل أن تظهر الشمس التي ستُخلق في اليوم الرابع، حسب زعمه. ثم يعود وينقض ما قاله عن الأرض، ويقول بأن الأرض خُلقت في اليوم الثالث. ثم ذكر أن الشمس والقمر تكوّنا في اليوم الرابع، بعدما خُلقت الأرض، وظهر النبات، في اليوم الثالث. علماً بأنه كان قد ذكر أن النور – النهار - قد ظهر في اليوم الأول، قبل أن تُخلق الشمس، التي ستظهر في اليوم الرابع. ولا شك أن كلامه هذا باطل كله، جملة وتفصيلاً، فليس من العلم الصحيح، ولا من المنطق الصريح، أن تُخلق الأرض مرتين من جهة، ثم تسبق الشمس في الظهور، ويكون عليها نور قبل ظهور الشمس، من جهة أخرى. وليس من العلم أن تظهر المياه والنباتات والنهار قبل أن تُخلق الشمس.

واضح من ذلك أن التوراة أخطأت فيما قالته عن خلق الكون في ستة أيام من أيامنا المعروفة، لكن القرآن لم يقع في ذلك الخطأ، فعندما قال بأن الكون خُلق في ستة أيام، فقد بيّن أن المقصود بها مراحل مقدارها 6000 سنة – مدة الخلق فقط - كما بيناه سابقاً، كما أنه لم يجعل خلق الإنسان تابعاً لتلك المدة، فهو متأخر عنه. لكن الغريب أن ذلك الكاتب لما كان مُحرفاً ومخادعاً سكت عن ذلك، وزعم أن القرآن قال بقول التوراة، وتأثر به، في قوله بخلق الكون، وشبهه بالتلميذ الذي يغش في الامتحان من تلميذ آخر، وينقل منه

([9]) الموسوعة العربية العالمية ، مادة: الأرض.

([10]) الموسوعة العربية العالمية ، مادة: المدينة .

بالخطأ!! فانظر وتدبر في فعل هذا الكاتب المفتري المحرف، فلم يكتف بأنه أخفى كثيراً من أخطاء التوراة، وأغفل إشارات إعجازية قرآنية مُذهلة عن خلق الكون!! وكيف يكون القرآن مُتأثراً بالتوراة وهو قد خالفها، ولم يقع في أخطائها، ولا وجدت فيها إشارات إعجازية كالتي في القرآن الكريم!! إن ذلك الكاتب جاحد معاند مُتعصب للباطل، يبحث عن هواه وإلحاده، ولا يبحث عن الحقيقية!! كما أنه لا يستحي، ولا يتورع من ممارسة التحريف والغش والخداع، انتصاراً لهواه.

* * *

- **نقض الزعم بخطأ القرآن في ترتيبه لظهور المخلوقات؛ كالأرض، والأحياء:**

وزعم ذلك الكاتب أن القرآن أخطأ في ترتيبه لظهور المخلوقات، فأورد آيات قرآنية تتعلق بذلك، ثم شرحها بهواه. الآيات هي: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(البقرة:29)، و{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}(فصلت:9- 12)، و{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}(النازعات:27-33).

ثم علّق عليها بقوله: "والآن ماذا ترى؟! نلاحظ ترتيب أحداث الخلق الأسطوري بدراسة الآيات، والجمع بينهن، كالتالي: خلق الله الأرضَ، وقدَّر فيها موادها الخام في باطنها، ثم خلق الكائنات، ثم السماء، والسماوات السبع الخرافية، ثم خلق المرعى، أي النباتات، ثم خلق الإنسان يوم الجمعة، آخر الأيام الستة، كما تقول الأحاديث الصحيحة. كما ترى فهذا ترتيب ظريف جداً، ومضحك، فالحيوانات عاشت ليومين تقريبًا بدون الأوكسجين، الذي ليتواجد يحتاج للنباتات وعمليتها الخاصة بالتمثيل الضوئي، مع أني لا أعتقد أن حتى لو توفرت النباتات ليومين أو أسبوع فسيكون هذا كافيًا لإنتاج كمية مناسبة لتوفير أكسوجين بكميات وافية لحياة الكائنات، وحسب هذا فالله خلق الأنعام والحيوان قبل خلق الأكسوجين الخارج من تعاملات كلوروفيل أو يخضور النباتات. كذلك فعملية التمثيل الضوئي هي أساس وأول سلسلة الغذاء بإنتاج الخلايا النباتية التي تتغذى عليها العاشبات. كذلك فمعنى هذه القصة الخرافية أن الكائنات ظلت يومين بدون غلاف

جويّ، أي سماء، وهذا كافٍ لإبادتها تمامًا، لعدم وجود حماية من الأشعة الكونية الكثيفة المميتة من الفضاء، كما هو معروف علمياً، والتي يحمينا من معظمها الغلاف الجوي"([11]).

أقول: تلك المزاعم باطلة، وتشهد على صاحبها بالتحريف والغش والتلاعب، وعدم الفهم الصحيح لما قاله القرآن الكريم عن خلق الكون والكائنات الحية، أو التعمّد في عدم فهمها فهماً صحيحاً. والقرآن كتاب مُحكم حَكيم يفسّر نفسه بنفسه، ويجب جمع كل آيات الموضوع الواحد لفهمه فهماً صحيحاً كما يريد القرآن، وليس كما يريد أهل الأهواء، منهم ذلك الكاتب، الذي لم يفعل ذلك ليُحرف القرآن، ويطعن فيه، انتصاراً لهواه.

وبيان ذلك أولاً: إن قوله تعالى عن الأرض: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(البقرة: 29)، هو كلام مُجمل عن خلق الأرض والسموات، ولا يتعلق بكل المخلوقات التي خلقها الله على الأرض، وإنما يتعلق بخلق الأرض، وما جعله فيها، خلال المراحل الست الأولى، وأكد الله – سبحانه - أنه هو الذي خلقها جميعاً، ولم يُشاركه في خلقها أحد. وذلك الكلام المُجمل فصّله الله تعالى في قوله: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}(فصلت:9 - 11). وفصلها – أيضاً - قوله سبحانه: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}(النازعات: 27- 33).

واضح من ذلك أن تلك المخلوقات خُلقت في ستة أيام، وتساوي: 6000 سنة، كما بيّناه سابقاً، وبها هيأ الله الأرض للكائنات الحية، التي سَتُخلق فيما بعد وتعيش عليها. ولم يَرد فيها أن الله خلق الحيوانات والإنسان في تلك المدة، كما زعم ذلك الكاتب المحرف. وذلك يعني أنه ليس صحيحاً أن الحيوانات سبقت ظهور النباتات، كما زعم ذلك الكاتب، وإنما النباتات هي التي سبقتها، لأن الماء والنبات يندرجان ضمن تقدير الأقوات الذي حدث في المراحل الأربعة التي مرّت بها الأرض. وبذلك يتبين أنه لا يوجد في تلك الآيات أي خطأ علمي، ولا أي تناقض في ترتيب ظهور المخلوقات.

([11]) لؤي عشري: القبر المحفور لدين الإسلام: النقد الشامل لنصوص الإسلام، الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن والحديث، الباب الأول: الأخطاء العلمية، ص: 49-50 .

وأما خلق الحيوانات على اختلاف أنواعها، فهي لم تخلق إلا بعد انتهاء الأيّام الستة، وبها أصبحت الأرض جاهزة لاستقبال الدواب، وهذا يستلزم توفر الهواء، والماء، والنبات. والشاهد على ذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(45). وهذه الآية تتعلق بخلق الدواب أول مرة، وخلقها بالتناسل أيضاً فيما بعد. وهي تعني أن خلق الحيوانات جاء بعد المراحل الست الأساسية التي مر بها الكون، فأصبح الماء متوفراً، ومنه خلق الله تعالى الدواب التي تدب على الأرض، وهذا يستلزم حتماً وجود النبات بعد توفر الهواء والماء، ولا يُمكن أن تعيش تلك الدواب دون توفر تلك العناصر. وهذا يعني أن خلق الدواب جاء بعد خلق الماء والنبات، خلاف زعم ذلك الكاتب المُحرف.

ثم بعد ذلك خلق الله تعالى الإنسان، فهو لم يُخلق في المراحل الست الأولى، ولا في مرحلة خلق الحيوانات الأولى، وإنما تأخر عنها كثيراً بعدما هيأ الله له الأرض، وحان الوقت الذي حدده لخلقه. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}(البقرة: 30)، و{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً}(الإنسان: 1).

وحتى بعد خلق الإنسان، فإن عمليات خلق الحيوانات استمرت وتكررت ولم تتوقف إلى اليوم، بدليل قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير}(العنكبوت: 19- 20). تشير الآية الأولى إلى بداية خلق الأحياء وتكراره، فالله تعالى بدأ الخلق وكرره مراراً، فهناك عمليات بدء للخلق، وإعادته من جديد، وهكذا كما بيناه سابقاً. وهذا الأمر كما بيّنه القرآن، فإن العلم يشهد به أيضاً، ويتفق تماماً مع ما ذكره القرآن، كما سنبينه عندما نتكلم عن ظهور الحياة والأحياء على الأرض.

ثانياً: إن مزاعم ذلك الكاتب تشهد عليه أنه مُحرّف ومخادع، ولا يبحث عن الحق، وإنما يبحث عن الأباطيل والشبهات ليطعن بها في دين الإسلام. بدليل انه مُصِرّ على إلحاق القرآن بالتوراة، في قولها بأن الكون مخلوق في ستة أيام كأيام من أيامنا. مُصر على ذلك مع أنه يعلم أن القرآن أشار إلى أن اليوم عند الله يختلف عن اليوم عند البشر، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}(الحج: 47)، و{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}(السجدة: 5)، و{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}(المعارج: 4). وليس في القرآن - أبداً - ما ذكرته التوراة عن أيام الخلق، وتسلسل المخلوقات فيها، وقد سبق أن أوردناه كاملاً. فلماذا هو مُصر على موقفه رغم بطلانه؟!

ومن ذلك – أيضاً - زعمه بأن الإسلام قال بأن آدم – أول إنسان- خُلق يوم الجمعة، وهو آخر الأيام الستة، كما تقول الأحاديث الصحيحة([12]). وقوله هذا باطل وافتراء مُتعمد على القرآن والسنة النبوية. لأن القرآن لم يقل ذلك، كما بيناه، والحديث الصحيح يقول إن النبي - صلى الله عليه و سلم - قال: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها)([13]). فالحديث لا يتكلم عن أيام خلق الكون، كما هو في القرآن، ولا كما هو في التوراة، وإنما يتكلم عن أيامنا المعروفة عندنا، منها يوم الجمعة، وفيه خلق الله آدم. فلماذا هذا الإصرار على الباطل للطعن به في الإسلام؟!

* * *

*** نقض الزعم بخطأ القرآن في قوله بوجود سبع سماوات:**

زعم ذلك الكاتب المُحرف أن من أخطاء القرآن العلمية، وخرافاته، قوله بوجود سبع سموات، ثم أورد آيات قرآنية ذكرت سبع سماوات، منها {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}(الملك: 3). ثم ذكر أن قدماء العرب، واليونان، وغيرهم، كانوا لا يعرفون من المجرة إلا خمسة كواكب؛ هي: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، ومعها الشمس والقمر، واعتقدوا أن كل كوكب في سماء، ومجموعها يمثل السموات السبع عندهم([14]).

ثم زعم أنه لا توجد سبع سموات، و"البشر خرجوا إلى الفضاء، ورأوا بعض ما هو عليه، وهذه التصورات البدائية لا معنى لها اليوم، فهي خاصة بالإنسان البدائي عديم المعارف. ولا مغزى لأن نعتقد بهراء كهذا"([15]). وقال أيضاً: "ومما يؤكّد أن فهمنا لهذا

([12]) لؤي عشري: القبر المحفور لدين الإسلام: النقد الشامل لنصوص الإسلام، الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن والحديث، الباب الأول: الأخطاء العلمية، ص: 49-50 .

([13]) مسلم : الصحيح، ج 3 ص: 6 ، رقم الحديث: 2013 .

([14]) لؤي عشري: القبر المحفور لدين الإسلام: النقد الشامل لنصوص الإسلام، الأخطاء العلمية والتاريخية في القرآن والحديث، الباب الأول : الأخطاء العلمية، ص: 134.

([15]) المصدر السابق، ص 135.

الخطأ العلمي القرآني سليم، هو أن القرآن افترض أن الناس ترى هذه السماوات السبع بالعين المجردة، فهو إذن يتحدّث عن الخمس كواكب المذكورة والشمس والقمر"([16]). ثم أورد آيات زعم أنها تؤيد فهمه المُحرِف للقرآن، منها قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}(النبأ:6- 12)، و{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا}(الإسراء: 99)، و{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}(نوح: 15- 16)، و{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}(إبراهيم: 19)، و{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}(الملك: 3). ثم عقّب عليها بقوله: "لا للأسف لم أر سبع سماوات، لأنها لا وجود لها! وتفترض هذه النصوص، والتي في سورة الملك، أننا نرى تلك السماوات المزعومة، وهو ما يؤكد صحة من قالوا إنها الأجرام الخمسة المعروفة لهم في منظومتنا الشمسية، التي أمكنهم رؤيتها بالعين المجردة، مع الشمس والقمر، حيث ظنوها في سماوات"([17]).

أقول: تلك المزاعم باطلة جملة وتفصيلاً، وتشهد على صاحبها بالتحريف والكذب، والغش والخداع، وممارسته للانتقاء والإغفال، حسب هواه في تعامله مع آيات القرآن الكريم. وتفصيل ذلك: أولاً: إن قول القرآن الكريم بوجود سبع سماوات ليس خطأ علمياً، ولا يخالف التصور العقلي السليم ولا العلمي الصحيح، ولم يثبت علمياً عدم وجودها، ولا أن الكون فيه سماء واحدة. وذلك المُحرّف لم يذكر ولا دليلاً علمياً صحيحاً واحداً، وإنما زعم أن الإنسان خرج إلى الفضاء ولم ير سبع سماوات. واستدلاله هذا متهافت، وشاهد على إفلاسه وتحريفه وتلاعبه وخداعه. لأن الإنسان عندما خرج من الأرض إلى القمر - مثلاً - لم يخرج من السماء الدنيا التي نراها، ويراها العلماء بالأجهزة العلمية العملاقة. والعلم إلى اليوم لا يعرف من الفضاء إلا السماء الدنيا، ولا يعلم عنها إلا القليل. وبما أن العلم لا يعرف إلا سماءً واحدة هي السماء الدنيا، فماذا يوجد بعدها؟ ولماذا لا تكون سماوات أخرى فوقها طباقاً؟ أليس إنكار وجود سماوات أخرى هو تصور بدائي، وقول بلا علم، وافتراء على العقل والعلم؟! وأليس من الهراء، وقلّة العلم، إنكار وجود سبع سماوات؟!

([16]) المصدر السابق، ص 135.

([17]) المصدر السابق، ص136.

ثانياً: إن زعم ذلك الكاتب بأن القرآن جعل الكواكب الخمسة التابعة للمجموعة الشمسية، بما فيها الشمس، هي السماوات السبع، هو زعم باطل، وكذب على القرآن، وتحريف له. بدليل الشواهد الآتية: منها أن القرآن لم يقل أبداً أن كواكب المجموعة الشمسية هي السماوات السبع، ولا توجد ولا آية منها أشارت من قريب، ولا من بعيد، إلى ذلك الزعم. والآيات التي استشهد بها الكاتب على زعمه، هي آيات منتقاة، وأوّلها تأويلاً تحريفياً حسب هواه، وسنعود إليها لاحقاً، لنبيّن فساد تأويل لتلك الآيات.

ومنها: أن القرآن الكريم وصف السماوات السبع بأنها طباق {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}(الملك: 3)، بمعنى أنها طبقات فوق بعضها، ولم يقل أنها كواكب ولا نجوم. وهذا يبطل زعم ذلك الكاتب، لأن الكواكب التي ذكرها، بما فيها الشمس، حسب زعمه، ليست طبقات، وإنما هي أجسام كروية، كل جسم يتحرك في مداره، يدور حول نفسه يومياً، وحول الشمس سنوياً، ضمن المجموعة الشمسية.

ومنها، قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ}(الصافات:6)، فالسماء الدنيا هي واحدة من السماوات السبع، وتضم السماء الدنيا الكواكب التي جعلها الله تعالى زينة. فالكواكب التي ذكرها ذلك الكاتب، وغيرها من الكواكب الأخرى، ليست هي السموات السبع، ولا هي السماء الدنيا، وإنما هي من موجودات السماء الدنيا.

منها أيضاً، قوله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}(فصلت: 12). واضح من الآية أن السماء الدنيا هي سماء من بين السماوات السبع، التي خلقها الله تعالى في مرحلتين. والنجوم، ومن بينها الشمس - التي زعم ذلك الكاتب أنها من السماوات السبع – هي كالكواكب من موجودات السماء الدنيا، وليست الشمس هي سماء من بين السموات السبع، كما زعم ذلك الكاتب المُحرف.

ومنها، قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}(الطلاق: 12)، واضح من الآية أن السموات السبع ليست هي الكواكب، وأن الأرض ليست سماء من بين تلك السموات. فالآية فرقت بينهما من جهة طبيعة كل من السماء والأرض، وسوّت بينهما في العدد. وهذا خلاف ما زعمه ذلك الكاتب المُحرف.

آخرها قوله تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}(النبأ:12 - 13). واضح من الآية أن السماوات السبع ليست كواكب ولا نجوماً، لأنها تمثل بناءً قوياً، يحمي الكون كله. والكواكب والنجوم ليست بناء واقياً، وإنما هي أجسام كروية. ويؤكد ذلك أن

الآية، ذكرت الشمس، وسمّتها سراجاً وهاجاً، وذكرتها على أنها مخلوق آخر، لا أنها هي من السموات السبع، كما زعم ذلك الكاتب.

وبذلك يتبين قطعاً من تلك الآيات، أن القرآن لم يقل بأن سبع كواكب من المجموعة الشمسية، بما فيها الشمس، هي السماوات السبع، كما زعم ذلك المُحرف؛ وإنما ذكر أن السماوات السبع هي طبقات قوية، وليست هي الكواكب ولا النجوم، من جهة؛ والقرآن الكريم فرّق بينهما بوضوح، من جهة أخرى. لكن ذلك الكاتب لما كان محرفاً ومُخادعاً وكاذباً، لم يذكر الآيات التي أوردناها، وإنما أغفلها، وأورد آيات أخرى توهم أنه يستطيع تأويلها حسب هواه لتأييد طعنه في القرآن الكريم، وتحريفه له.

ثالثاً: أما استشهاد ذلك الكاتب بآيات قرآنية لتأييد زعمه بأن القرآن جعل كواكب من المجموعة الشمسية، بما فيها الشمس، جعلها هي السماوات السبع، وأن القرآن افترض أن الناس يرونها بالعين المجردة؛ فهو استشهاد باطل قطعاً، وزعم متهافت، بدليل الشواهد الآتية:

أولها: إن دعوة القرآن الناس إلى النظر في السماوات، ومختلف الظواهر الكونية، لا يعني بالضرورة أنهم يرونها بالعين المجردة، ولا أنهم يرون السماوات السبع، ولا أنها أمرتهم بذلك، وإنما هي - في الأساس - دعوة إلى النظر العقلي والعلمي، ودعوة إلى التدبر والاعتبار، ودعوة إلى إعمال الفكر بنظر سليم في مختلف ظواهر الكون. واستخدام القرآن لعبارة {أَوَ لَمْ يَرَوْا}، لا يعني النظر بالعين المجردة، وإنما يعني أساساً النظر العقلي والعلمي، القائم على البحث والتدقيق والتجربة والتمحيص والاعتبار. وأمره بذلك قد يجمع بين النَظر بالعين، والنظر بالعقل والعلم، وسياق الآية هو الذي يحدد المقصود. فإذا أمر القرآن بالنظر في أمر لا يُمكن رؤيته بالعين، فلا شك أنه يأمر بالنظر العقلي والعلمي، وإذا أمر بالنظر إلى أمر يُمكن رؤيته بالعين، فهو يأمر بالنظر بالعين والعقل والعلم. وبما أن الأمر كذلك، فزعم ذلك الكاتب باطل، لأنه بناه على مقدمة باطلة، انتصاراً لهواه وإلحاده، وطعناً في القرآن الكريم.

الشاهد الثاني: إن الآيات التي أوردناها أعلاه، وأثبتنا بها بطلان زعم ذلك الكاتب، هي أدلة قطعية تُثبت تهافت وزيف استشهاده بالآيات التي زعم أنها تقول بأن السماوات السبع هي سبعة كواكب من المجموعة الشمسية، بما فيها الشمس، حسب زعمه. وبما أنه أثبتنا بطلان زعمه هذا بآيات كثيرة، فلا يُمكن أن يكون استشهاده بآيات أخرى صحيحاً، لأن القرآن الكريم كتاب مُحكم حَكيم لا تناقض فيه، ويُفسّر نفسه بنفسه، ولا يأتيه الباطل أبداً.

الشاهد الثالث: إن الآيات التي استشهد بها ذلك الكاتب على زعمه لا تؤيده، ولم تقل أن كواكب من المجموعة الشمسية هي السماوات السبع، ولا أمرت بالنظر إليها على أنها هي السماوات السبع؛ وإنما ذلك الكاتب المحرف هو الذي وجهها حسب هواه، وقوّلها ما لم تقله. فالآية الأولى مثلاً: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}(النبأ:6- 12)، لم تقل انظروا إلى تلك المخلوقات وهي السموات السبع؛ وإنما تضمنت دعوة الناس إلى النظر بالعقل والعين والتدبر في تلك المخلوقات التي سخرها الله تعالى لهم، لعلهم يؤمنون بربهم، ويشكرونه، ويلتزمون بدينه.

وأما الآية الثانية {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا}(الإسراء: 99)، فهي لم تأمر بالنظر في السموات والأرض، ولا قالت بأنها هي من كواكب المجموعة الشمسية؛ وإنما أمرت بالنظر العقلي والتدبر في قدرة الله تعالى المطلقة، فهو سبحانه كما خلق السماوات والأرض، قادر على أن يخلق مثلها، وأكثر منها.

الآية الثالثة: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}(نوح: 15- 16)، لم تقل أن السموات السبع هي من كواكب المجموعة الشمسية، وإنما فرقت بينها وبين القمر والشمس، وهما من عناصر المجموعة الشمسية. ولم تقل: انظروا بالعين المجردة إلى السموات السبع؛ وإنما دعت الناس إلى النظر والتفكر والتدبر في كيفية خلق الله تعالى للسموات السبع، وهذا لا يتم بالنظر بالعين المجردة، لأن خلق السماوات السبع هو من الماضي، ولا يُمكن رؤيته مباشرة. وتضمنت – أيضاً - الدعوة إلى رؤية ذلك - بعد النظر العقلي – عن طريق البحث في تاريخ خلق الكون، ومروره بمراحل كثيرة. وهذا الأمر أكده قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(العنكبوت: 20). وهذا لا يتم إلا بتطبيق النظر العقلي والمنهج التجريبي. فأين ما ادعاه ذلك الكاتب المُحرف؟!

الآية الرابعة: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}(إبراهيم: 19). لم تقل: انظروا إلى السماوات السبع إنها هي من كواكب المجموعة الشمسية، وإنما فرقت بينها وبين الأرض، وهذا ينقض زعم ذلك المحرف، الذي ادعى أن القرآن جعل الأرض من السماوات السبع. كما أنها لم تدع الإنسان إلى النظر

بالعين المجردة إلى السموات السبع، وإنما أمرته بالنظر العقلي، والتدبر، والتذكر بأن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض. فأين ما ادعاه ذلك الكاتب المُحرف؟!

الآية الخامسة: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}(الملك:3). هذه الآية لكي تُفهم جيداً يجب إرجاعها إلى ما سبقها، لكن الكاتب المحرف قطعها، وهذا سياقها: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}(الملك:1- 3). هذه الآيات لم تقل أن السموات السبع هي من كواكب المجموعة الشمسية، ولا أمرت بالنظر إليها بالعين المجردة؛ وإنما ذكرت أن الله تعالى بيده المُلك، وعلى كل شيء قدير، وخلق الموت والحياة، وهو الذي خلق سبع سماوات، ثم أكدت على أنه لا يظهر ولا يُرى ولا يُوجد في مخلوقات الله من اضطراب، وعبث، ولا ما يُخالف مُقتضى الحكمة. فالأمر هنا بالنظر العقلي، وبالعين المجردة، ليس خاصاً بالسماوات السبع، وإنما يتعلق بكل مخلوقات الله، ولا قال بأن السماوات هي من كواكب المجموعة الشمسية، كما زعم ذلك الكاتب.

وبذلك يتبين – قطعاً - بطلان زعم ذلك الكاتب المحرف، عندما افترى على القرآن الكريم، وقوّله ما لم يقل؛ فالقرآن الكريم لم يجعل السموات السبع هي من كواكب المجموعة الشمسية، من جهة، وفرق بينها وبين الشمس والقمر وباقي كواكب المجموعة الشمسية الأخرى، من جهة أخرى. وإنما ذلك الكاتب تعمد تحريف القرآن، والافتراء عليه، انتصاراً لهواه وإلحاده❐

نظرات حول المقاصد العقدية من خلال القرآن الكريم

رشيد لبريجة/ المغرب

مقدمة:

✍يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول والأساس لاستنباط المقاصد والعلل والأسرار، لأنه تنزيل الحكيم الحميد، وقد أفاض القرآن الكريم في بيان ذلك تكريماً لهذا الإنسان، وتحقيقاً لمصالحه الدنيوية والأخروية، والعاجلة والآجلة، كما احتوى على أصول المقاصد من ضروريات وحاجيات وتحسينيات، بالإضافة إلى العديد من المقاصد العامة، والخاصة، والجزئية.

وسيتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل مقاصد العقيدة، وذلك من خلال دراسة مجموعة من الأمثلة للمقاصد العقدية التي أشار إليها القرآن الكريم.

اهتم القرآن الكريم بتصحيح المفاهيم العقدية، وبناء العقيدة الصحيحة، باعتبارها القاعدة الأساسية في بناء الإنسان، ومن خلالها يضبط المؤمن تصرفاته، وتساعده على فهم الوجود. لذا، ركز على سلامة الفطرة الأولى، وبناء العقل، مع سهولة في البيان. هذا الاختلاف في الخطاب القرآني جعله قاصداً في بيان العقيدة، خلافاً لاستعمالات المتكلمين المعقدة، والتي سيقت وفق ظروف زمانية ومكانية جعلتهم مضطرين إلى استعمالها. إلا أن خطاب القرآن لم يقتصر على فئة دون أخرى، لذا كان خطابه ميسراً للجميع، فلا شك أنه اشتمل على الكثير من الآيات التي تثبت العقيدة بهذا الشكل، وفي إطار مقاصدي واضح، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ

مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[18] فمن الواضح والمنطقي أن يشتمل القرآن على مقاصد متنوعة لتثبيت العقيدة، وتحبيبها للقلوب، لتحقق المقصد الأعلى المتمثل في الهداية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[19] .

وتأتي أهمية هذا الموضوع كون البحوث المتعلقة بمقاصد العقيدة من خلال القرآن الكريم قليلة، ولم تعط الأهمية التي تستحقها، مقارنة مع البحوث المتعلقة بمقاصد الشريعة. كما يندرج البحث في العلاقة بين البحوث العقدية الإسلامية وعلاقتها بالمقاصد، في إطار الدفاع عن أصالة المعرفة الإسلامية، من خلال الرجوع إلى المنبع الأول في تعليم العقيدة الصحيحة، إضافة إلى قيمة الموضوع، لأنه يعني باستخراج المقاصد العقدية من خلال القرآن الكريم.

ومن الأسباب التي دفعتني لاختيار موضوع المقال، كون البحث في مقاصد الدين وثمراته يعد من أهم ما ينبغي توجيه النظر إليه، وإعمال الفكر فيه، مع قلة البحوث في مجال مقاصد العقائد، مقارنة مع أختها مقاصد الشريعة.

يتناول المقال إشكالية العلاقة بين المقاصد والعقائد، وبشكل دقيق سنركز على الإجابة على تساؤلين، فحواهما: هل يمكن إثبات علاقة بين علم العقيدة والمقاصد، كإطار يجتهد الباحثون من خلاله على استخراج مقاصد العقيدة في القرآن الكريم، كما هو الشأن مع مقاصد الشريعة؟ وهل استعراض القرآن الكريم للعقيدة يتسم بالتقصيد والتعليل، على نحو يسمح باستنباطها وبيان أثرها؟

ولا بد من الإشارة إلى أن القليل من الباحثين من تناول الموضوع بالدراسة، وهنا أستحضر دراستين بشكل موجز:

- ✓ (المقاصد العقدية في القصص القرآني: قضايا ونماذج - أبعاد ودلالات)، للباحث: طويل الزايدي، تاريخ النشر 2011، في بيروت، دار صادر.
- ✓ (المقاصد العقدية في القرآن الكريم، ملامح منهجية ومعرفية)، للأستاذ الدكتور مولاي مصطفى الهند، من إصدرات الدار العالمية للكتاب ومغرب الكتاب، ضمن سلسلة تجديد الخطاب الديني، سنة 1440هـ/2019م، وقد استفدت منه في بعض الأمثلة.

[18] سورة يونس: الآية 57

[19] سورة الذاريات: آلآية 56

أما منهج العرض الذي سأعتمده في تقديم عناصر هذا البحث، فهو المنهج التحليلي الذي يساعد في تحليل النماذج المختارة، بعد جمع المعلومات، وملاحظتها، باستقراء النصوص التي تناولت قضايا العقيدة.

وهدف البحث هو الكشف عن العلاقة بين العقيدة والمقاصد، وإبراز أهداف العقيدة من خلال استعراض ملامح من المقاصد العقدية في الخطاب القرآني، وبيان عناية القرآن الكريم بالمقاصد، باعتباره المصدر الأول والأساس لاستنباط المقاصد والعلل والأسرار، لأنه تنزيل الحكيم الحميد.

- وأما خطة البحث، فقد جاءت في مقدمة وثلاث مباحث، هي:
- المبحث الأول: نمط التعليل القرآني في عرض معاني ومقتضيات العقيدة.
- المبحث الثاني: نظرات عامة في مقاصد العقيدة.
- المبحث الثالث: المقاصد العقدية في القرآن الكريم (نماذج مختارة).
- ثم خاتمة.

المبحث الأول: نمط التعليل القرآني في عرض معاني ومقتضيات العقيدة:

من أهم المباحث التي تطرق إليها بعض المتكلمين[20] ، وعلماء الأصول: مبحث التعليل، حيث فتشوا عن المعاني والعلل والأسرار والمقاصد المبثوثة في النصوص الشرعية، ولكنهم اختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً، وتعددت مسالكهم، وتشعبت طرائقهم.. بينما عند الرجوع الى طريقة القرآن الكريم في عرض معاني العقائد؛ نجدها سهلة، ميسرة، بعيدة عن أي تقعر كلامي، أو تعمق فلسفي، وفي الوقت نفسه تيسر فهم القرآن الكريم بلغة سلسة لا تحجر فيها، و غير بعيدة عن مدارك الفهم والتفكر عند كل العقول.

---

[20] انظر مبحث التعليل عند المتكلمين وعلماء الأصول في المصادر التالية:

- الفخر الرازي: الأربعين في الأصول، (الهند: مطبعة حيدر آباد، 1353ه) ص 249-251.
- الفخر الرازي: المحصول في علم الأصول، 6ج، الطبعة الثانية، دراسة وتحقيق: د. طه جابر العلواني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1410ه،1990م) ج5 ص 176.
- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، 4ج (بيروت: دار المعرفة، د، ت) ج4 ص 168.
- عارف علي عارف: (الحكمة والتعليل في القرآن والسنة: دراسة تحليلية للعلاقة بين العقيدة والمقاصد) مجلة التجديد، ماليزيا، العدد التاسع والثلاثون، 2016/1438.

ويعرض القرآن الكريم قضية غاية الخلق في قوله تعالى: :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[21] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[22] ، ونفى العبث عن نفسه في خلقه قائلاً: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [23]فهذا النمط من التعليل يعطينا سهولة في فهم الخطاب القرآني الذي يركز على أهداف سهلة ميسرة للجميع، تتلخص في معرفة حقيقة الوجود، والغاية من الخلق، لربطها بالاستعداد لليوم الآخر، وإجادة العمل والصنع في الحياة، بربط حركات الإنسان بالله تعالى، والتركيز على ما ينفعه في الدنيا، دون ضياع الوقت فيما لا يفيد من المسائل التي لا يرجى من ورائها نفع ولا عمل.

يحدثنا الإمام الغزالي - رحمه الله - عن أسلوب القرآن في عرض المقاصد، فيقول: "في حصر مقاصد القرآن ونفائسه سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى: دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع... أما الثلاثة المهمة، فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.." [24].

وبنفس الأسلوب عرض الله تعالى الغاية من نزول القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[25] ، وقوله تعالى:﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فمقصود الآيات واضح: الهداية، والتدبر، والتفكر، بعيداً عن التقعيد الكلامي، والجدل الفلسفي. كما تحدث القرآن الكريم عن الرسل، وأهدافهم، وغايتهم، في مواطن عديدة، من بينها: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[26] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

---

[21] سورة الذاريات: الآية 56.

[22] سورة الأنبياء: الآية 16.

[23] سورة المؤمنون: الآية 115.

[24] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، جواهر القرآن، الطبعة الثانية، تحقيق الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، (بيروت: دار إحياء العلوم، 1406 هـ - 1986 م) ص 23.

[25] سورة الإسراء: الآية 09.

[26] سورةالحديد: الآية 25.

لِّلْعَالَمِينَ﴾[27] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[28]. فالنمط التعليلي القرآني في بيان مقاصد العقائد يركز أساساً على الآثار السلوكية المترتبة على التصور الحقيقي لمفهوم العقيدة، فعقيدة دون عمل، ولا علم، ولا معرفة لحقيقة أسماء الله الحسنى وسماتها العلى، لا معنى لها في مفهوم القرآن، وهذا الأفق من النظر يجعل للتوحيد معنى، باعتباره محور الفهم والتفسير والتدبر والتفكر والاتعاظ.

يحدد لنا الطاهر بن عاشور بعض سمات القرآن في خطابه، مقارنة بغيره، فيقول رحمه الله: "فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً، وتعبدنا بمعرفة مراده، والاطلاع عليه، فقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[29]."[30]

هذا النمط التعليلي في القرآن الكريم ينسجم تماماً مع مقتضى أفعاله سبحانه وتعالى، التي تتسم بالحكمة ورعاية المصلحة، "إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة؛ إما على جميع عباده، وإما على بعضهم" [31]، هذه الحكم الإلهية لا يمكن حصرها، أو عدها، وإلى هذا المعنى أشار أبو حامد بقوله: "فجميع أجزاء العالم؛ سماؤه، وكواكبه، ورياحه، وبحاره، وجباله، ومعادنه، ونباته، وحيواناته، وأعضاء حيواناته، لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة؛ من حكمه واحدة، إلى عشرة، إلى ألف، إلى عشرة آلاف"[32]

خلاصة هذا المبحث تتضح بإدراك الفرق بين النمط التعليلي، الذي اهتم به القرآن في معالجة القضايا العقدية، مقارنة بغيره من المناهج الكلامية، التي استعملت مصطلحات معقدة، يصعب على عموم الناس إدراكها. فالإيمان في القرآن الكريم يعتمد على التدبر والتفكر بمفاهيم يسيرة وسهلة، تتطابق تماماً مع فطرة الإنسان، هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأكدها، من خلال دعوة الناس إلى استعمال حواسهم وعقولهم للنظر والتفكر في حكم الله التي لا تنتهي. ولم يقتصر خطابه على التنظير للتصورات العقدية فقط، حيث عززها بالعلم

---

[27] سورة الأنبياء:الآية 107.

[28] سورة إبراهيم:الآية 04.

[29] سورة ص: الآية 26.

[30] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، 30ج، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م) ج1، ص 39.

[31] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 28.

[32] المرجع السابق: ج4،ص 90.

والعمل. فالملاحظ أن الخطاب القرآني وجه نظره للعمل، بمعنى آخر: ربط العقيدة بالعمل، وعدم انفصالها عنه، فالإصرار على الطهارة والتزكية والعلم والعمل، مؤشر على صحة العقيدة وسلامتها.

المبحث الثاني: نظرات عامة في مقاصد العقيدة:

إنَّ المقصد الأعلى للإسلام، بشريعته وعقيدته، هو الوصول بالإنسان إلى مرتبة الأحسن، من حيث التقويم والكينونة البشرية، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[33]. وهذه المرتبة العالية تتطلب تقويم جميع أركان الإنسان واختياراته، وذلك لعلاج الاعوجاج القائم بهذا الإنسان، للوصول به إلى مرتبة الكمال البشري الذي لا نقص فيه، من خلال تصحيح مسار عقائده، وتحديد مقاصدها وغاياتها الكبرى، فالأقوال والأفعال نتاج الاعتقاد، من هنا اهتم الإسلام في بدايته بإصلاح عقائد الناس وتصوراتهم..

يحدد لنا الإمام الغزالي - رحمه الله - المقصود من العقيدة، فيقول: "حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده، على لسان رسوله، عقيدة هي الحق. على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن و الأخبار"[34].

ينطلق الإمام الغزالي هنا من الصراعات التي دارت بين أهل السنة والجماعة وباقي المخالفين من الفلاسفة والفرق الإسلامية؛ كالجهمية، والمعتزلة، والمجسمة، وإلا فإن متعلقات علم العقيدة أعم وأشمل. وهذا ما ركز عليه القرآن الكريم في عرضه لمعاني ومقتضيات العقيدة الإسلامية. ومن بين الآيات الكلية التي تعبر عن المقصود من الخلق، قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[35]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[36]. فهذا النمط من التعليل يعطينا سهولة في فهم الخطاب القرآني، الذي يركز على أهداف سهلة ميسرة للجميع، تتلخص في معرفة حقيقة الوجود، والغاية من الخلق، لربطها بالاستعداد لليوم الآخر، وإجادة العمل والصنع في الحياة، بربط حركات الإنسان بالله تعالى،

33 سورة التين، الآية: 4.

34 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، الطبعة الأولى، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود (مصر: دار الكتب الحديثة، د،ت) ص 21.

35 سورة الذاريات : الآية 53.

36 اسورة المؤمنون: الآية 115.

والتركيز على ما ينفعه في الدنيا، دون ضياع الوقت فيما لا يفيد من المسائل التي لا يرجى من ورائها نفع ولا عمل.

فكانت الحقائق التي دعا إليها القرآن، وكررها في مواطن متعددة:

- ✓ الإيمان بالله تعالى، والدعوة إلى توحيده.
- ✓ الإيمان بالرسالة والنبوة، لأنها الطريق للتعرف على الله تعالى، وأحكامه، وشرائعه.
- ✓ الإيمان باليوم الآخر، حتى يتسنى للإنسان تحمل مسؤولياته، وتحديد مصيره.

إن أهداف مقاصد العقيدة، على حد تعبير الإمام التفتازني: "وغايته تحلية الإيمان باليقين، وغايته الفوز بنظام المعاش، ونجاة المعاد. وغاية الكلام أن يصير الإيمان، والتصديق بالأحكام الشرعية، متيقناً، محكوماً، لا تزلزله شبه المبطلين. ومنفعته في الدنيا: انتظام أمر المعاش، بالمحافظة على العدل، والمعاملة التي يحتاج إليها في بقاء النوع على وجه لا يؤدي إلى الفساد، وفي الآخرة: النجاة من العذاب المترتب على الكفر، وسوء الاعتقاد"[37].

غاية الشرع ومقصوده من العقيدة: تحقيق الكمال البشري، وتنقية الإنسان من براثن الشرك والبدعة، وتحريره من سلطان الخرافات والأساطير، وتوجيه نظره إلى الكون للتعرف على الله تعالى. يقول ابن برجان [38]-رحمه الله- في نص طويل، مبيناً المقاصد العظمى من نزول القرآن الكريم: "ثم فصل: الوحدانية، وفيه العلم كله، ثم فصل: الربوبية، وفي ذلك الوقوف على معرفة النعم، والتذكار بالعهد الأول، وإثبات الأمانة التي ائتمنوا عليها، حين التزام ربقة العبودية بشروطها، والإقرار بالربوبية لوليها، والتزام حقيقة التوحيد، وتصديق الرسل، ووجوب الاقتداء بهم، ونصرهم، والتبليغ عنهم. ثم فصل: النبوة، ومعرفة خاصيتها، وفي ذلك معرفة فرقان ما بين النبي والمتنبي، ومعرفة خاصة المعجزة من الكرامة، من المعهود الجاري على العوائد، وأن ذلك من المقدور الغائب..." [39].

37سعد الدين التفتازني، شرح المقاصد ، 5ج، الطبعة الثانية، تحقيق و تعليق عبد الرحمن عميرة، (بيروت: عالم الكتب، 1419هـ-1998م)
ج1 ص175.

[38] هو: "أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان اللخمي، عرف بابن بَرَّجان وكان عبداً صالحاً، وأكثر كلامه على طريق أرباب الأحوال والمقامات" انظر: ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 8ج ، الطبعة الأولى، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر 1972م) ج 4 ص 230.

[39] ابن برجان: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم،5ج ،الطبعة الأولى، تحقيق الدكتور فالح حسن عبد الكريم، (الأردن-عمان: : دار النور المبين للنشر والتوزيع، 2016م،) ج1،ص68.

هذا النسق المقاصدي في العقيدة، طبّقه الأنبياء - عليهم السلام - في دعوتهم لأقوامهم. وقد اعتبر الفخر الرازي -رحمه الله - هذا المنهج حرفة الأنبياء، وضرب لذلك أمثلة، من بينها: حال إبراهيم - عليه السلام - مع نفسه، وأبيه، وقومه، وملك زمانه. يقول في هذا الصدد: "وأما إبراهيم - عليه الصلاة والسلام-، فالاستقصاء في شرح أحواله في هذا الباب يطول، وله مقامات:

- ✓ أحدهما: مع نفسه، وهو قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[40]..
- ✓ وثانيها: حاله مع أبيه، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [41] .
- ✓ ثالثها: حاله مع قومه، تارة بالقول، وأخرى بالفعل..
- ✓ ورابعها: حاله مع ملك زمانه، في قوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[42]..."[43]

والمتأمل في هذا النص يكتشف أن ما ذكر الفخر الرازي من أعظم المقاصد العقدية في القرآن الكريم، فلا بد من اعتماد الحجة والبرهان والدليل أثناء تقديم القضايا العقدية، لتحقيق المعرفة الحقة، وطمأنينة النفس، وإزالة الشك والريب، لإنقاذ الناس من الضلال، وهدايتهم للطريق المستقيم.

وبالنظر إلى هاته الأقوال، يمكن تلخيص أهم الأهداف العقدية المرجوة من هذا العلم فيما يلي:

- ✓ تأكيد الحقائق الإيمانية بالدفاع عنها بالحجج والبراهين العقلية.
- ✓ تيسير العقيدة، وربطها معرفة، وسلوكاً ووجداناً، بحياة الإنسان، وتصرفاته.
- ✓ رد الشبهات المثارة حول العقيدة، من خلال أسلوب القرآن، وطريقته في تناولها.

---

[40] سورة الأنعام، الآية: 76.

[41] سورة مريم: الآية 42.

[42] سورة البقرة ،الآية: 258.

[43] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير،30ج، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420 ه) ج2،ص 325.

✓ تعميق الجانب الإيماني بتجنب الجدل السلبي في العقيدة، لأنه لا يفي بالمقصود.

ومن هنا يمكن القول: إن العقيدة لم تنشأ رغبة في إثارة الجدال والمعارضة، وهذا واضح من خلال أسلوب القرآن، الذي يعتبر أصلاً لا ينبغي الفكاك عنه، لكن الدفاع عن العقيدة من خلال البراهين العقلية، والحجج النظرية، مطلوب للرد على المشككين الطاعنين في العقيدة، ومقصودها، وهذا أحد أسباب نشوء علم الكلام.

المبحث الثالث: المقاصد العقدية في القرآن الكريم (نماذج مختارة):

إن المستقرئ لآيات القرآن الكريم التي تناولت قضايا الاعتقاد يلمس مجموعة من التوجيهات التي تهدف بالأساس إلى تحقيق مجموعة من المقتضيات المقاصدية تكريماً لهذا الإنسان، فكان الخطاب القرآني قاصداً في توجهه في أمور الإيمانيات والغيبيات، فأكد على العمل مع الاعتقاد، وأن كل ما أخبر الله به من غيبيات له هدف وأثر في حياة المسلم من جهة سلوكه وأخلاقه واختياراته العملية، بعيداً عن التجريد والتعقيد الذي طغى على علم الكلام أثناء تناولهم لموضوعات العقيدة.

من هنا حدد القرآن الكريم المقصد العام من إرسال الأنبياء والرسل - عليهم السلام-، وقد ذكرت الآيات مجموعة من المهمات، يمكن إجمالها من خلال ما يلي:

- قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..﴾[44](الآية)، فالمقصد من بعثة الرسل عام ومشترك بينهم: هداية الناس إلى عبادة الخالق، وإفراده بالوحدانية والطاعة، وحفظ عقول الناس من كل أصناف الشرك والهوى، وإقامة القسط.

- كان من مهمات الرسل تصحيح الاعتقاد، فبعثهم الله تعالى لينقذوا الناس من الاختلاف في أصول حياتهم، وليدلوهم إلى الحق الذي يريده خالقهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[45].

- بعث الله تعالى الرسل - عليهم السلام - لتعليم الناس الأعمال الصالحة، ولتزكية نفوسهم وتطهيرها من الأدناس، ولغرس الخير والصلاح فيها. قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي

[44] سورة الحديد: الآية 25.

[45] سورة النحل: الآية 64.

الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[46]

- أرسلوا - عليهم السلام - لإقامة الدين، وللحفاظ عليه، وللنهي عن التفرق فيه، وللحكم بما أنزل الله. قال الله تبارك وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[47] ، وقال جلّ ثناؤه: (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[48] .

- بعثوا لإعطاء القدوة والأسوة الحسنة للناس في السلوك والأخلاق الحميدة والطريق المستقيم على هدى الله. قال الله تعالى في نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم-: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[49].

- أرسلهم الله تعالى ليبشروا المؤمنين بما أعدَّ لهم من النعيم الدائم، جزاءً لطاعتهم، ولينذروا الكافرين بعواقب كفرهم، وإقامة الحجة على الناس من ربهم، وإسقاط كلِّ عذر. قال الله تبارك وتعالى: ﴿رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[50]

والغرض من هذا المبحث اختيار نماذج معينة من المقاصد العقدية ركز عليها القرآن الكريم بشكل كبير، حيث جعلها محورية في الخطاب، مع تكرارها في مواطن متعددة، وليس القصد حصر المقاصد في عدد معين، وإنما الاكتفاء بكليات المقاصد العقدية، حتى يتسنى للقارئ معرفتها، والاطلاع عليها. ومن بين هذه المقاصد العقدية:

المقصد الأول: التوحيد:

فمعرفة التوحيد، والعلم به، هو المقصد الأول من مقاصد الاعتقاد التي ركز عليها القرآن الكريم في خطابه للناس، وهذا ما جاء في الآيات، مجملاً ومفصلاً. قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[51]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

[46] سورة الجمعة: الآية02.
[47] سورة الشورى: الآية 13.
[48] سورة النساء: الآية 105.
[49] سورة الأحزاب الآية 21.
[50] سورة النساء: الآية 165.
[51] سورة الأنبياء: الآية 25.

أُمَّةٍ رَسُولا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾[52](الآية). وقال جل شأنه: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[53]. وقد أجاد ابن القيم - رحمه الله - في تناول هذا المقصد، فقال: إن "كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن إمّا خبر عن الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد، ومكملاته. وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده. وإمّا خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[54] .

فمدار الآيات القرآنية قائم على التوحيد، من حيث أصله أو كماله، فلا بد من النظر إلى مقاصده، ومعرفة علة الإقرار به. يقول الدكتور عبد الرحمن العضرواي: "وتبصر مقاصد الخلق الإلهي وحكمه، يعين على النظر في مقاصد التوحيد، ومعرفة علة الإقرار به. فالتوحيد هو أصل العقيدة الإسلامية منذ أن انعقدت بين السماء والإنسان أسباب الهداية والإرشاد، فالألوهية والعمل الصالح، والحساب والجزاء، هي أصول الدين الواحد"[55] .

يمكن القول إن أهم المقاصد العقدية تتجلى بوضوح في العلاقة الجامعة بين الخالق والعبد، القائمة على توحيده تعالى، وعبوديته في الباطن والظاهر.

المقصد الثاني: الفطرة:

يؤكد المنطلق القرآني أن الإنسان خلق على الفطرة، بحيث تعتبر في الإسلام حقيقة عقدية بحد ذاتها، وسلامة خلقية، حيث لو ترك الإنسان لحاله، دون تدخل عوامل خارجية، لاختار رسالة التوحيد. "وإذا كان القرآن الكريم قد أثبت في المقصد العقدي الأول (التوحيد) حرية الإنسان في التصديق، فإنه في هذا المقصد الثاني يلفت انتباهه إلى واعظ في أعماق نفسه ووجدانه. ومن هنا، فإن كتاب الله العزيز أثبت هذا المقصد باعتباره تقريراً حاسماً يجيب عن

---

[52] سورة النحل : الآية 36.

[53] سورة الزخرف، الآية : 45.

[54] ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، 3ج، الطبعة الثالثة ،(بيروت: دار الكتاب العربي، ، 1416 هـ - 1996م) ج3،ص450.

[55] د- عبد الرحيم العضرواي مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي ، الطبعة الأولى، (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، ص57-58.

جملة من الأسئلة الوجودية، التي حالت فيها السلطة البشرية بين الإنسان وفطرته، ومنعته من الاستماع الجيد لها"[56].

وإذا كان المقصد العام من التشريع عموماً: "حفظ نظام العالم، واستدامة صلاحه، بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان"[57]، فلا بد من حفظ الفطرة، والحذر من خرقها واختلالها، لكونها محل صدور الفضائل، على حد تعبير ابن عاشور. فنفور الإنسان من العادات الفاسدة، والذنوب العظيمة، يعود بالأساس إلى استقامة فطرته، وعدم اعوجاجها. وقد أكد ابن عاشور على أهمية الفطرة، كونها أعظم صرح تشاد عليها مقاصد الشريعة، "ولما أراد الشرع جعل الشريعة عامة خالدة مناسبة لجميع العصور، وصالحة لجميع الأمم، جعل أحكامها متجاوبة تجاوباً كاملاً مع النظام الجسدي والعقلي المتقرر في نفوس الخلق. ولا يستَتِبُّ وصف الشرع بالعموم والدوام، إلا إذا بُنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية"[58]. يقول سيد قطب عن دور الفطرة في توجيه الإنسان الى حقيقة الألوهية: "إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يرسمه السياق القرآني... مشهد الفطرة وهي - للوهلة الأولى- تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها. وهي تنطلق، بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة، في شوق عميق دافق تبحث عن إلهها الحق، الذي تجده في ضميرها، ولكنها لا تتبيّنه في وعيها وإدراكها. وهي تتعلق في لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله، حتى إذا اختبرته وجدته زائفاً، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته"[59].

وخلاصة الكلام أن الإنسان مخلوق على أساس النظام بمعنى الاتساق والانسجام، فهو صاحب طبيعة خيرة، وما الشر والفساد إلا انحراف عن هاته الفطرة. فالرجوع إلى الفطرة هو رجوع إلى الحق والصواب، لذلك كانت مصدراً مهماً، ومقصداً مراداً للشارع في تحديد الأحكام، والحكم عليها بالحق أو الباطل.

---

[56] مولاي مصطفى الهند: بحث المقاصد العقدية في القرآن الكريم، ،ضمن كتاب مقاصد القرآن الكريم الجزء الثاني، الطبعة الأولى (لندن: مؤسسة الفرقان، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية ، 1437هـ/2016/) ص 234.

[57] الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، 3ج، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة،(قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425 هـ - 2004 م) ج3،ص63.

[58] المرجع نفسه: ج 3،ص262.

[59] سيد قطب: في ظلال القرآن، 6ج، الطبعة السابعة عشرة (القاهرة: دار الشروق، 1400هـ/1980م،)ج 2،ص 1137.

المقصد الثالث: العلم:

وهذا المقصد من أعظم ما جاء به الرسل، فقد ذكر القرآن الكريم وظائف الرسل، وحددها في مجموعة من المعاني، من بينها وظيفة التعليم، والبيان. قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[60]، والآيات في هذا الصدد كثيرة. والقرآن الكريم كان دقيقاً في ذكره للعقائد بصيغة العلم والمعرفة، قال تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[61]، وقال: ﴿..وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[62](الآية)، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾[63](الآية) "حيث جرت العادة باعتبار العلم وسيلة إلى المقاصد، إلا أن القرآن الكريم لفت الانتباه إلى أن العلم، حين ارتباطه بالجانب العقدي، يصبح مقصداً في حد ذاته، وتصبح العقيدة وسيلة إليه، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[64](الآية)"[65] .فالعلم يجلي النظر، ويحقق معاني التفكر، ويجعل الإنسان أكثر معرفة بالله تعالى، واستشعاراً لعظمته، فكان من شروط التوحيد والعقيدة وجود العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ..﴾[66](الآية). ويكفي للمتدبر أن يقف مع هاته الآية مرات ومرات، ويعيد النظر فيها، خاصة أنها نزلت بعد تمكن التوحيد في قلوب المسلمين، ومع ذلك كان الأمر قاطعاً من الله لرسوله بتعلم ومعرفة معنى هاته الكلمة، لأن العادة قد جرت بترسخ الإيمان، وقوّته، مع العلم والمعرفة، لأن الشيطان قد أقسم بالله بإضلال بني آدم وغوايتهم. من هنا، كان الأمر بالعلم والمعرفة لحقائق التوحيد، واجبة، ترسيخاً لدعائم العقيدة، وذلك من خلال التفكر والنظر في آيات الله الكونية والمتلوة.

المقصد الرابع: التزكية:

ويقصد به التزكية القرآنية، فقد كانت أصول مقاصد بعثة المصطفى - صلى الله عليه وسلم – واضحة، حددت في تلاوة الآيات، والتعليم، والتزكية. ذكرها الله تعالى في أربع آيات:

---

[60] سورة البقرة ، الآية : 151.

61 سورة الحديد: الآية :17.

62 سورة البقرة : الآية : 203.

63 سورة الحديد: الآية 20.

64 سورة البقرة: 282.

65مولاي مصطفى الهند: المقاصد العقدية في القرآن الكريم قراءة في النسق المنهجي والمعرفي، ص 238.

66 سورة محمد: الآية 19.

❖ قوله سبحانه وتعالى :﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾67

❖ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[68]

❖ قوله سبحانه وتعالى:﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[69]

❖ قوله تبارك وتعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[70]

"وفي هذه الآيات إشارة واضحة إلى مكانة التزكية في هذا النسق القرآني الرباعي المحكم، فهو مترابط بحيث لا يقبل الفصل والتجزيء والتبعيض، بل إن التزكية هي الضمان الأوكد الذي به تستمر العناصر الأخرى دون نكوص" [71].

لقد كان بناء الجيل الأول يرتكز بالأساس على هاته المقومات، فكان الاهتمام بتزكية القلوب، وتنقيتها من مختلف الأمراض، الباطنة والظاهرة، لما لها من دور كبير في بناء الإنسان، واختياراته العقدية، فيتم الربط من خلاله بين المجرد والواقع، والنظر والتطبيق.

المقصد الخامس: العدل:

اهتم القرآن الكريم بمقصد العدل اهتماماً بالغاً، وأولى له عناية منقطعة النظير، فأوجبه في جميع المجالات والميادين والحقوق، والأقوال والأفعال، وذكر مرات متعددة بصيغ مختلفة، وجعله من مهمات الأنبياء والرسل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[72]، ولم يفرق سبحانه وتعالى في تطبيقه بين الأصدقاء والأعداء، قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[73]، كما أن العدل قرين للتوحيد، والظلم قرين للشرك، و هو مرجعية

67سورة البقرة: الآية 129.

68 سورة البقرة: الآية 151.

69 سورة ال عمران: الآية 164.

70سورة الجمعة : الآية 2.

71 المرجع السابق: ص 241.

72سورة الحديد: الآية 25.

73 سورة المائدة: الآية: 8.

أساسية لكل إنسان. يقول ابن القيم - رحمه الله-: "فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد. فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما. أما الأول ففي قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[74]. وأما الثاني فكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[75]"[76].

المقصد السادس: تكريم الإنسان:

من مقاصد القرآن الكريم العقدية: تكريم الإنسان، وقد تجلى هذا التكريم في أسمى معانيه القرآنية، بداية من النفخة الأولى، وكيف خلق الله آدم - عليه السلام – بيده، تمييزاً له عن باقي المخلوقات والموجودات، فميزه الله في شكله وعقله ومنطق لسانه، فجعل له لساناً وشفتين، وهداه النجدين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾77، واستمر هذا التكريم الإلهي بتكليف الإنسان، دون غيره، بعمارة الأرض، وحمل الأمانة، والاستخلاف فيها، بعد أن امتنعت الجبال والأرض والسماء بتحمل عناء هذا العبء. ومن كرامة الإنسان أن الله تعالى خلقه على الفطرة، فهو مجبول على العقيدة الحقة، والتدين الصحيح، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾78"، ولهذا أرسلت الرسل والأنبياء، وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع لصون كرامة الأدمي، ولو في حدها الأدنى، المتمثل في الضروريات الخمس، التي لا يمكن التفريط فيها إطلاقاً، فحفظت بذلك عليه دينه ونفسه وعقله ونسله وماله. ومن ثمة أضحت المصلحة المعتبرة شرعاً في كل ما يتضمن معاني تكريم الإنسان، وأمست المفسدة في كل ما يهينه ويشينه ويحط من قيمته. وما مقاصد الشريعة، وما ألّف فيها، بدءاً وانتهاءً، إلا ترجمة واقعية لحقيقة عقيدة التكريم الإلهي للإنسان، كما صورها القرآن الكريم"[79].

---

74 سورة ال عمران: الآية :18.

75سورة لقمان، الآية : 13.

76ابن القيم الجوزية: الفوائد، الطبعة الثانية ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1393 هـ - 1973 م ،) ص 81.

77سورة الإسراء، الآية: 7.

78 سورة الروم ، الآية : 3.

[79] المقاصد العقدية في القرآن الكريم قراءة في النسق المنهجي والمعرفي: ص 238.

المقصد السابع: الوسطية:

حرص الإسلام في دعوته على الوسطية، وجعلها خياراً ومنهجا للأمة، لتحقيق الأمن والسلام والطمأنينة، وتحقيق التعاون والتكافل بين أفرادها. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[80]، وسياق الآية يدل على ما ذكرناه من اعتبار الوسطية مقصداً عقدياً، حيث كان الربط بينها وبين الشهادة واضحاً، للدلالة على أهميتها كخاصية مميزة لشريعة الإسلام عن غيرها.

فقد ظهر الإسلام لا روحياً مجرداً، ولا جسداً هامداً، بل وسطياً معتدلاً يأخذ من كل شيء بنصيب، موافقاً في ذلك فطرة الإنسان البشرية، ولا يقصد بذلك أن تبقى مجردة بدون سلوك، أو فكر، أو معاملة. يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله- في كتابه (الموافقات): "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخِذ من الطرفين بقسط لا مَيْل فيه، الداخلِ تحت كسْبِ العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال"[81]، والقصد من الوسطية في الاعتقاد هو التطبيق الفعلي لهدي النبي - صلى الله عليه وسلم-، لأنه النموذج العملي المحدد لحقيقتها، دون إفراط أو تفريط، وذلك بالجمع بين الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة. يقول ابن تيمية - رحمه الله-: "فإن الإسلام وسط في الملل بين الأطراف المتجاذبة، والسنة في الإسلام كالإسلام في الملل"[82]. ويبرز الإمام البيضاوي بعض دلالات الوسطية في الاعتقاد بقوله: "(إن الله يأمر بالعدل) بالتوسط في الأمور: اعتقاداً؛ كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسط بين المحض الجبر والقدر، وعملاً؛ كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً؛ كالجود المتوسط بين البخل والتبذير"[83]. والحقيقة أن الوسطية مقصد عقدي بمحددات الشرع، فلا تحدد بأهواء الناس وأعرافهم.

---

[80] سورة البقرة: الآية 143.

[81] الشاطبي: الموافقات،7ج، الطبعة الأولى تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان (مصر: دار ابن عفان 1417هـ/ 1997م)ج 2،ص279.

82الصفدية لابن تيمية، 2ج في مجلد واحد ، الطبعة الثانية، (مصر: مكتبة ابن تيمية،1406هـ) ، ج2،ص310.

[83] البيضاوي ،أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،5ج، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي 1418 هـ) ، ج3،ص238.

لذا، كان التعامل مع الإنسان وفق دائرة معتدلة، فلم يعامله الله تعالى معاملة الملائكة ولا الشياطين، فكان بين هذا وذاك، فلا هو ملك كريم، ولا شيطان رجيم. فالمقاصد العقدية تهدف إلى التوسط والاعتدال بين مطالب الجسد والروح، وبين مطالب الدنيا والآخرة.

وبالرجوع إلى (آية الوسطية)[84]، التي صرحت باصطفاء الله لهذه الأمة، وتفضيلها على غيرها من الأمم، فليس "القصد فقط في الآية أن الأمة الإسلامية أمّة عدل بين ظلمين، أو أمّة توسط بين إفراطين، أو أمّة استقامة بين اعوجاجين، أو أمّة اعتدال بين تطرفين، أو ما شابه ذلك من هذه المعاني المحمودة شرعاً وعرفاً، التي انصرفت إليها أغلب الأذهان والمعاني والتآليف، بل إن الوسطية في هذه الآية تحمل معنى عقدياً أعمق وأكبر وأوسع وأشمل من هذه المعاني كلها، إنه معنى الشهادة على الناس، كما جاء في سياق الآية نفسها. وهذا المعنى الذي أكسب الأمة الإسلامية صفة الخيرية التي وصفها بها رب العالمين في كتابه العزيز"[85].

والحديث حول الموضوع طويل الذيل، كثير الكلام، لكن نكتفي بما عرضناه من أهمية هذا المقصد، وهو خاتمة المقاصد العقدية التي تمت الإشارة إليها، رغم وجود مقاصد أخرى، كمقصد عمارة الأرض، والاستخلاف، ومقصد الحرية، ومقصد الحاكمية.. لاندراجها في المقاصد السابقة. وقد حاولنا استنتاج بعض المقاصد العامة، لأهمية هذا المنحى في عرض العقيدة الإسلامية بشكل ميسر، يسهل فهمه واستيعابه، بعيداً عن التعقيد والتجريد الكلامي.

خاتمة:

الحديث عن مقاصد العقائد في القرآن الكريم متشعب الأبعاد، متعدد الأهداف، فعلم مقاصد العقيدة مما ينبغي أن تصرف فيه الأوقات، حتى لا تبقى مجردة في الأذهان، دون تنزيل حقيقي لمقتضياتها، فقد كان هدف القرآن من الإنسان إصلاح باطنه وظاهره، ولا يمكننا أن نتحدث عن هذا الأمر بدون استحضار لمقاصد العقيدة في القرآن الكريم. ومن هنا، تنوعت مقاصد القرآن في العرض بين التوحيد والعلم والعدل وتزكية النفس، بعيداً عن الجدل الكلامي الذي طال العقيدة الإسلامية، مما أفقدها بريقها بتعقيد المصطلحات الإيمانية، فالمطلوب من المكلف تحقيق مراد الله في الأرض: عبادة وصلاحاً، وتزكية وتعليماً.

ومن هذا المنطلق نخلص إلى أهم النتائج، والتي قد تجيب عن الإشكال المطروح في المقدمة، وهي:

- ✓ وجود علاقة بين المقاصد والعقيدة.

[84] سورة البقرة: الآية 143.

[85] المقاصد العقدية في القرآن الكريم قراءة في النسق المنهجي والمعرفي ص 247.

✓ حضور مقاصد العقيدة في القرآن الكريم كان بارزاً من خلال النماذج المختارة (التوحيد- العدل- الفطرة- العلم...).

✓ القرآن الكريم يقدم – غالباً - مقررات العقيدة، مؤسسة على المقاصد والحكم.

✓ غاية القرآن الكريم استهداف العقل بالتدبر والنظر، لذلك كان خطابه معللاً في الغالب.

فهم القرآن وتفسيره، فغاية المقاصد استثمار النص، وفهمه، على الوجه الصحيح❐

المصادر والمراجع:

1) القرآن الكريم.

2) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، 4ج (بيروت: دار المعرفة، د، ت).

3) الأربعين في الأصول، الفخر الرازي: (الهند: مطبعة حيدر آباد، 1353ه).

4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، 5ج، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي 1418 هـ).

5) بحث المقاصد العقدية في القرآن الكريم، مولاي مصطفى الهند ،ضمن كتاب مقاصد القرآن الكريم الجزء الثاني، منشورات مؤسسة الفرقان، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية ، الطبعة الأولى 1437ه/2016/.

6) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، 30ج، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م) .

7) تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم، ابن برجان، 5ج، الطبعة الأولى، تحقيق الدكتور فالح حسن عبد الكريم، (الأردن- عمان: دار النور المبين للنشر والتوزيع، 2016م).

8) جواهر القرآن، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الطبعة الثانية، تحقيق الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، (بيروت: دار إحياء العلوم، 1406 هـ - 1986 م).

9) الحكمة والتعليل في القرآن والسنة: دراسة تحليلية للعلاقة بين العقيدة والمقاصد)، عارف علي عارف: مجلة التجديد، ماليزيا، العدد التاسع والثلاثون، 2016/1438.

10) شرح المقاصد ، سعد الدين التفتازني، 5ج، الطبعة الثانية، تحقيق و تعليق عبد الرحمن عميرة، (بيروت: عالم الكتب، 1419هـ-1998م).

11) الصفدية لابن تيمية، 2ج في مجلد واحد ، الطبعة الثانية، (مصر: مكتبة ابن تيمية،1406هـ) .

12) الفوائد، ، ابن القيم الجوزية، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1393 هـ - 1973 م ،).

13) في ظـلال القـرآن، سـيد قطـب، 6ج، الطبعـة السـابعة عشـرة (القـاهرة: دار الشرـوق، 1400هـ/1980م،).
14) المحصول في علم الأصول، الفخـر الـرازي، 5ج، الطبعـة الثانيـة، دراسـة وتحقيـق: د. طـه جـابر العلواني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1410هـ،1990م).
15) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، 3ج، الطبعة الثالثـة ،(بـيروت: دار الكتاب العربي، ، 1416 هـ - 1996م).
16) مدخل تأسيسي في الفكر المقاصدي، عبد الرحيم العضـرواي، الطبعة الأولى، (بيروت: مركـز نمـاء للبحوث والدراسات.
17) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، 30ج، الطبعة الثالثـة، (بـيروت: دار إحيـاء التراث العربي، 1420 هـ) .
18) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، 3ج، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425 هـ - 2004 م).
19) المنقذ من الضلال، أبو حامد محمد بن محمـد الغـزالي، الطبعـة الأولى، تحقيـق: الـدكتور عبـد الحليم محمود (مصر: دار الكتب الحديثة، د،ت).
20) الموافقات، أبو اسحاق الشاطبي: 7ج، الطبعة الأولى تحقيق: أبو عبيدة مشـهور بـن حسـن آل سلمان (مصر: دار ابن عفان 1417هـ/ 1997م).
21) وفيات الأعيان، ابن خلكان، الطبعة الأولى، 8ج ، تحقيق: إحسـان عبـاس (النـاشر: دار صـادر – بيروت، سنة النشر: 1972.

تفسير العلامة سبحاني
لأسماء الله الحسنى وصفاته العلى

(الحلقة 8)

د. عمر عبد العزيز

تحدثنا في المقال السابق، المنشور في العدد (173-174) من مجلة (الحوار)، عن نظرية العلامة سبحاني حول أركان الإيمان الأساسية، فذكرنا منهجه في بيان المواضيع المتعلقة بمعرفة الله والإيمان به، ومعرفة الله بين الأدلة العقلية والمنهج القرآني في الاستدلال.

في هذا العدد سنتحدث عن منهج العلامة سبحاني في الحديث عن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، من خلال المحاور التالية:

أولاً/ أهمية البحث عن الأسماء الحسنى، وتصور سبحاني في ذلك:

تحدث المفسرون والمحدثون وعلماء الرقائق والسلوك، قديماً وحديثاً، عن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، سواء من ناحية عدّها وسردها، أو من ناحية معانيها ومدلولاتها،

أو معنى الإلحاد فيها وإنكارها. وألّف فيها كبار العلماء والمحققين كتباً ورسائل قيّمة[86]، ذكروا فيها ما اتُّفِق عليه من الأسماء وما اختُلِفَ فيه، وكذلك ما يجوز أن يُسمّى به الله ويُدعى به، وما لا يجوز.

وتأتي أهمية الحديث عن الأسماء الحسنى، من ناحية كونها متعلقة بإثبات صفات الله، ونفي التعطيل والإنكار، أو التشبيه والتمثيل، الأمر الذي وقعت فيه بعض الفرق. ولهذا، فإنني في هذا المبحث سأتناول أهم ما قاله المحقق سبحاني حول أسماء الله وصفاته، مقارناً بين ما قاله هو، وما قاله المحققون قبله، سواء من ناحية عدّها وسردها، والمجمع عليها والمختلف فيها، أو من ناحية المفاهيم المستنبطة منها، أو ما يتعلق بموضوع التشبيه والتمثيل، أو التعطيل ونفي الصفات، وكذلك معنى الإلحاد في الأسماء، الذي ذكر في قوله سبحانه: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}الأعراف/١٨٠، وغير ذلك مما يتعلق بالموضوع.

تلمّس تجليّات الأسماء في المخلوقات:

يرى العلامة سبحاني أن الإيمان بالله وأسمائه وصفاته يلزم تلمّس تجلّيات كل اسم من أسماء الله في مخلوقاته، لا سيما في الإنسان ذاته، حيث إن الخلق والأمر لله، وإنه وحده الخالق لكل شيء. وفهم هذا التلازم بين الإيمان بالأسماء الإلهية، وبين حقيقة الكون وما فيه ـ بما فيه خليفة الله في أرضه ـ ضروري للنجاة من الشقاء[87]. هذا ما عبّر عنه بديع الزمان سعيد النورسي بصيغة أخرى، لما قال: "الحياة التي هي أساس وجود الإنسان، تجّلٍ لاسم الله الحي المحيي، وهو أعجوبة الخلقة الربانية، إذ تجمع تجليات اسم الرحمن، الرزاق، الرحيم، الكريم، الحكيم، وأمثالها من الأسماء، وتجعل الحقائق الكثيرة والمشاهدة،

---

(86) من أقدم وأشهر المؤلفات القديمة حول الأسماء الحسنى: تفسير الأسماء الحسنى للإمام الزجاج (311هـ/923م). وشأن الدعاء، للإمام الخطابي (ت: 388هـ/998م). والأسماء والصفات، للبيهقي (ت: 458هـ/ 1092م)، والأمد الأقصى لأبي بكر ابن العربي (ت:543هـ/1084م). والأسنى في شرح الأسماء الحسنى، للإمام القرطبي. ولوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات، للإمام فخر الدين الرازي.. وهناك موسوعات ودراسات معاصرة قيمة حول الموضوع ذاته، أشهرها: موسوعة الأسماء الحسنى، للدكتور الشرباصي، والمنهاج الأسمى، للدكتور رزين الدين شحاته، وشرح الأسماء الحسنى، للدكتور محمد بكر إسمعيل، وشرح الأسماء الحسنى، للشيخ كشك، وشرح أسماء الله، للدكتور عمر الأشقر، وشرح الأسماء في ضوء الكتاب والسنة، لسعيد القحطاني، وفقه الأسماء، لعبد الرزاق البدر، والنهج الأسمى، لمحمد محمود النجدين، وأسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة، للدكتور محمود عبدالرزاق، وكتب أخرى عديدة..

87 أشار إلى ذلك في سياقات عدّة من دروسه الخاصة بموضوع الأسماء الحسنى، المكونة من (13) ساعة.

كالرزق والحكمة والعناية والرحمة، تابعة لها[88]. وقال: "وهكذا الإنسان، وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها، حيث خلقه الباري مظهراً لجميع تجليات أسمائه الحسنى"[89].

أما الأستاذ سبحاني، فقال - في اختصاره لتهذيب المدارج -: "أسماء الله ـ تعالى ـ أسماء مشتقة، لها معانٍ وصفيّة، كسائر الأسماء المشتقة. ثم إنها موصوفة بكونها حُسنى، وحسنها من دلالتها على أوصاف الكمال، ولولا ذلك لما كانت حسنى، ولا كانت أسماء مشتقة. ولو لم تكن موضوعة لمسمّاها باعتبار معان قامت به، كالأعلام المحضة والجوامد، لكانت كلها لا فرق بين مدلولاتها، وهذا باطل بيّن البطلان"[90]. وقال في موقع آخر: "لكون الصفات جميعها حسنى، سُمّيت الأسماء الدالة عليها بالحسنى، كل اسم له ـ سبحانه ـ حسن، ومجموعة الأسماء حسنى"[91]. وقال: "ولو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات، لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلم يقل: يسمع، ويرى، ويعلم.. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة، استحال ثبوت حكمها، ونفي معاني أسمائه، من أعظم الإلحاد فيها"[92]. ويقول: "إن الاسم من أسمائه - تعالى - كما يدل على الذات والصفة المشتقة هو منها بالمطابقة، يدلّ دلالتين أخريين بالتضمن والالتزام، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك يدل على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على غير تلك الصفة من الصفات بالالتزام. فإن اسم (السميع) - مثلاً - يدل على مجموع ذات الرب، وصفة سمعه، بالمطابقة، وعلى كل منها بالتضمن، وعلى صفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه. ولكن الناس متفاوتون في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من يعلم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازمان للحياة الكاملة، وأن سائر أوصاف الكمال من لوازم الحياة الكاملة، يثبت من أسماء الرب وأفعاله ما ينكره من لا يعلم ذلك، وكذلك سائر صفاته"[93].

---

[88] النورسي، بديع الزمان، سعيد، اللمعات، ص: 557.

[89] النورسي، سعيد، الكلمات، ص: 349.

[90] قال القرطبي: "حُسْن الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع، لإطلاقها، والنص عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معان حساناً شريفة"، ينظر: القرطبي، الجامع الأحكام القرآن،.10/343

[91] ناصر سبحاني، دروس حول الأسماء الحسنى، الدرس الأول، 1985م.

[92] ناصر سبحاني، تلخيص التهذيب، ص: 13.

[93] المصدر السابق، 13.

هذا ما قاله بإجمال، أما حديثه عن الأسماء الحسنى وعدّها، ومدلولاتها، وما يترتب على فهمها، وما لا بدّ أن يتخذه المؤمن من المواقف تجاهها، وتأثيراتها على السلوك، والمنهجية المفضلة لتناولها، بصورة عامة، فهذا ما سأحاول عرضه في المحاور التالية، بإذن الله.

ثانياً/ الأسماء الحسنى في الكتاب والسنة:

لم تذكر لفظة (الأسماء الحسنى) في القرآن الكريم إلا في أربعة مواقع، هي قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} (الأعراف١٨٠)، وقوله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ}(الإسراء١١٠)، وقوله: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ}(طه/٨)، وقوله: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ...}(الحشر/٢٤). هذا بلفظ (الأسماء الحسنى)، أما حول ذكر الأسماء، في القرآن، فهناك محاولات عديدة، قديماً وحديثاً، لسردها وعدّها واستخراجها من آيات القرآن. فلقد ذكر العسقلاني في (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، نماذج من محاولة العلماء قبله لتتبع أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، وأشار إلى أنه تتبّع بنفسه ما بقي من الأسماء، مما ورد في القرآن بصيغة الاسم، مما لم يذكر في الروايات[94]. وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن. ثم ذكر كل اسم ورد في السور واحداً واحداً من الفاتحة إلى سورة الناس[95].

وهناك محاولات عديدة أخرى من قبل كبار المحدثين والمفسرين، كالبيهقي، وابن العربي الأصولي، والترمذي، وغيرهم، ذكرت في كتب التفسير والحديث[96]. وذكر بعض المحققين من المعاصرين أنه ورد في كتاب الله واحد وثمانون اسماً فقط. وفي الحديث الصحيح ثمانية عشر اسماً فقط[97]، لكي ينطبق مع العدد الشهير (التسعة والتسعين). ولكن العلامة سبحاني استخرج في القرآن الكريم حوالي (113) اسماً، بين ما ورد بصيغة الاسم مباشرة، أو ما ورد بصيغ أخرى فعلية عديدة، وذلك مع ما تكرّر منها بصيغة الفاعل، أو صيغة المبالغة، أو على أوزان مختلفة، ولكن من مصدر صرفي واحد، كالغافر والغفار،

---

[94] ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري،.3/2806

[95] الشوكاني، فتح القدير،.514

[96] ينظر مثلا: تفسير الطبري 133/6، وتفسير القرطبي 328/4، وفتح الباري للعسقلاني 2804/3، وشرح النووي على صحيح مسلم، س: (1585) وغيرها.

[97] قال بذلك الشيخ ابن عثيمين.ينظر موقع: www.ahlalhdeeth.com، والأسماء التي وردت في الحديث - حسب رأيه- هي: الجميل، الجواد، الحكم، الحي، الرب، الرفيق، السبّوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر.

والحسيب وأسرع الحاسبين، والعالي والعّلي والأعلى والمتعال، والحافظ والحفيظ، وغير ذلك[98].

أما ما ورد في الأحاديث من الأسماء الحسنى وتحديدها، ففيه نقاش طويل، سواء بسبب ما حصل من جانب ضعف وقوة الروايات، أو مما يفهم منه أنه اسم للذات الإلهية، أو صفة لذاته سبحانه. فأصح حديث حول أسماء الله، هو الذي رواه الشيخان بسندهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، ونصه: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة)[99]. هذا الحديث رواه – أيضاً – الترمذي[100] عن طريق الوليد بن مسلم، وسرد فيه الأسماء التسعة والتسعين. ولكن أكد كثير من العلماء أن ذكر الأسماء الحسنى في الحديث مدرج لا مرفوع، ولهذا لم يخرّج الشيخان الحديث الذي رواه الترمذي، لأن الوليد تفرّد به. قال الحافظ العسقلاني في الفتح: "اختلف العلماء في سرد الأسماء، هل هو مرفوع، أو مدرج في الخبر من بعض الرواة؟ فمشى كثير منهم على الأول، واستدلوا به على جواز تسمية الله تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الاسم، لأن كثيراً من هذه الأسماء كذلك. وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج، لخلوّ أكثر الروايات عنه"[101]. وقال بحق الحديث الذي فيه سرد الأسماء: "ليس له إسناد صحيح. وقال ابن عطية: في سرد الأسماء نظر، فإن بعضها ليس في القرآن ولا في الحديث الصحيح، ولم يتواتر الحديث من أصله، وإن خرج في الصحيح، ولكنه تواتر عن أبي هريرة. كذا قال، ولم يتواتر عن أبي هريرة أيضاً، بل غاية أمره أن يكون مشهوراً"[102].

أما حول عدّ الأسماء وإحصائها، وهل هي تنحصر في العدد التسعة والتسعين، أم هي أكثر من ذلك، قال النووي في شرحه للحديث: "اتفق العلماء على أن الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه. فليس معناه: أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالإخبار عن دخول الجنة

---

98 خص الشهيد سبحاني (13) درساً علمياً لشرح ودراسة الأسماء الحسنى، بطريقة علمية فريدة، سألقي الضوء عليها لاحقاً.

99 أبو عبدالله، محمد بن اسمعيل، البخاري، الجامع الصحيح، الرياض، دار السلام للنشر 1417هـ/ 1997م)، كتاب التوحيد، (97)، باب إن لله مائة اسم (12)، حديث (7392)، ص: 1549. وتكرر الحديث برقم: (2736). وكذلك: أبو الحسين، مسلم بن الحجاج النيشابوري، (361هـ/ 971م)، الجامع الصحيح، كتاب الذكر والدعاء (48)، باب في أسماء الله (2)، حديث (2677).

100 في كتاب الدعوات (49)، باب (83)، ولقد قال الترمذي بعد نقل الحديث: "هذا حديث غريب".

101 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري،.2804 /3

102 المصدر نفسه، 3/ 2804.

بإحصائها، لا الإخبار بهذه الأسماء"[103]، ونسب الحافظ العسقلاني هذا القول إلى الجمهور، وقال: يدل على عدم الحصر أن أكثرها صفات، وصفات الله لا تتناهى"[104].

قلت: إن نسبة القول بعدم الحصر إلى الجمهور ـ الذي قال به الحافظ ـ أدق مماّ ذهب إليه النووي لمّا قال بالاتفاق فيه، فإن كثيراً من علماء الظاهرية قالوا بأن الأسماء محصورة، فقال ابن حزم بالحرف: "لا يحّل لأحد أن يسمّي الله بغير ما سمّى به نفسه، ولا أن يصفه بغير ما أخبر به عن نفسه، وأن له تعالى تسعة وتسعين اسماً، من زاد شيئاً من عند نفسه، فقد ألحد في أسمائه[105]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي، الذي رواه الوليد بن مسلم، وحفّاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد عن شيوخه من أهل الحديث[106]. وأكد الصنعاني ذلك قائلاً: "اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة[107]. ومما يؤكد عدم الحصر استئثار الله ببعض الأسماء له، كما ورد في الحديث الذي رواه ابن مسعود، والذي أخرجه أحمد في مسنده بروايتين[108]، وصحّحه ابن حبان[109]، وهو مشهور بحديث الكرْب، وفيه: أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك.."، فالحديث يدل على انفراد الله بعلم العدد الكلي لأسمائه. وأكد الشوكاني على أن الأحاديث التي جاءت في إحصاء الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصحّ منها شيء أصلاً[110].

أما الأستاذ سبحاني، فيرى أنه لا بدّ لتحديد الأسماء الحسنى، من الاعتماد على استقرائها في القرآن الكريم بداية، ثم البحث عما بقي منها في الأحاديث المتواترة ـ فقط ـ لأن غيرها يفيد الظن، وهذا مما لا يليق بعظمة الأسماء الحسنى، ولأن أكثر العلماء متفقون على أنه لا يمكن بناء المسائل الأصولية - لا سيما المسائل الفكرية الأساسية التي تتعلق بتصوّر

---

[103] أبو زكريا، يحيى بن شرف الدين، النووي (-676هـ/1277م)، المنهاج في شرح صحيح مسلم، الرياض، بيت الأفكار الدولية، د.ت، ص: 1585.

[104] العسقلاني، الفتح،.3/2806

[105] ابن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/ 1063م)، المحلّى في شرح المجلّى، تحقيق: حسان عبد المناف، عمّان، بيت الأفكار الدولية، د.ت، ص: 58.

[106] ابن تيمية، الفتاوى الكبرى،.1/217

[107] الصنعاني، سبل السلام،.4/108

[108] في مسند عبدالله بن مسعود برقم: 3712 و4318، ص: 296 و338.

[109] في كتاب الرقائق (7)، باب (9)، حديث: 972، ص: 366.

[110] ينظر: الشوكاني، فتح القدير، ص: 514.

الإنسان تجاه ربّه - على الأحاديث التي تفيد الظن، وإن كانت صحيحة.. وأكد على أنه، بناءً على ذلك، لا يمكن الاعتماد على الحديث الذي رواه الترمذي، وذكر فيه الأسماء التسعة والتسعين، لكون الحديث لم يصل إلى درجة الصحة، فضلاً عن أن يكون متواتراً"[111].

ثالثاً/ معنى إحصاء الأسماء الحسنى، والإلحاد فيها:

أثارت لفظة الإحصاء في الحديث (من أحصاها دخل الجنة) جدلاً وسيعاً بين العلماء، لذا لجأ الكثير منهم إلى إيجاد معنى يناسب حجم الأجر الذي يحصل عليه المحصي لأسماء الله. فذكر الحافظ - بعد قول البخاري بأن من أحصاها، بمعنى: من حفظها - عن الإمام الخطابي[112]: أن "الإحصاء في مثل هذا يحتمل وجوهاً، أحدها: أن يعدّها حتى يستوفيها. ثانيها: الإطاقة، كقوله تعالى: {..عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ...}(المزمل/20)، والمعنى: من أطاق القيام بحق الأسماء. وثالثها: الإحاطة"، ثم قال: "قال الأصيلي[113]: الإحصاء للأسماء العمل بها، لا عدّها وحفظها، لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق[114]. ولقد أشار القرآن إلى أن هناك قوماً من المشركين يلحدون في أسمائه، ولذلك أمر الله عباده بالدعاء بأسمائه، وترك الذين يلحدون فيها، فقال: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}(الأعراف/١٨٠). ولكن ماذا يعنى الإلحاد في أسماء الله؟ قال الراغب: "اللّحد حفرة مائلة عن الوسط. ويقال: ألحد فلان، مال عن الحق.. والإلحاد في أسمائه على وجهين: أحدهما: أن يوصف بما لا يصح وصفه به. والثاني: أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به"[115]. وقال الفيروزآبادي: "أصل الإلحاد: العدول عن القصد، والجور عنه، والإعراض"[116]، و"أصل اللحد ما حُفِر في عرض القبر. وأَلْحَد في الحرم: إذا ترك القصد، ومال إلى الظلم. ومنه قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}(الحج/ 25"[117].

---

[111] ناصر سبحاني، الدرس الأول من سلسلة دروس حول الأسماء الحسنى، 1985م.

[112] هو: أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، ولد سنة بضع عشرة وثلاث مائة، صاحب التصانيف العديدة، منها: (شرح السنن) و(شرح الأسماء الحسنى). وصفه الذهبي بالإمام العلامة، الحافظ، اللغوي، توفي عام 88هـ/706م. ينظر للتفاصيل: سير أعلام النبلاء، 1/ 1564.

[113] هو أبو محمد، عبدالله بن إبراهيم الأصيلي، تفقّه بقرطبة، وأصبح شيخ المالكية، قال الدارقطني عنه: لم أَرَ مثله. ينظر لسيرته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2330/2.

[114] ابن الحجر العسقلاني، فتح الباري،.7393 /3

[115] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 737.

[116] الفيروز آبادي، قاموس المحيط، مادة (لحد).

[117] أبو عبد الرحمن الفراهيدي، كتاب العين،.868

هذا، ولقد كان من دأب المشركين العدول بأسماء الله عما هي عليه، فذكر المفسرون أنهم سمّوا (اللات) اشتقاقاً من (الله)، وسموا صنما آخر بـ(العزىّ)، اشتقاقاً من العزيز[118]، وسمّوا (مناة) من المنّان[119]. وقيل: "الإلحاد في أسماء الله يكون بالزيادة فيها، والنقصان منها، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمّون فيها الباري بغير أسمائه، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله، مما لا يليق به - سبحانه -"[120]، قال الشوكاني: "الإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه: إما بالتغيير، كما فعله المشركون. أو بالزيادة عليها، بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها. أو بالنقصان منها، بأن يدعوه ببعضها دون بعض"[121]. ولقد ذكر بعض المفسرين معاني أخرى للإلحاد في الأسماء، منها: التكذيب، والمضاهاة، والإشراك. ذكرها الشوكاني في تفسير الآية"[122].

أما العلامة سبحاني، فيؤكد على أن نفي معاني أسمائه سبحانه من أعظم الإلحاد فيها[123]، ومن المدلول اللغوي لمشتقات (الحسنى)، و(الدعاء بها)، و(عدم الإلحاد فيها)، الواردة في الآيات المذكورة المتعلقة بأسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، نفهم أن كل اسم من أسمائه تعالى يقتضي معنىً حسناً، ونعتاً شريفاً، لذا طلب الله سبحانه من عباده أن يدعوه بتلك الأسماء، بأن يعرفوه حق المعرفة من خلالها، فلا يمكن معرفة الله كاملة إلا من خلال أسمائه الحسنى، وصفاته العُلى. وكذلك أمرهم أن يذروا من يلحدون في أسمائه، فضلاً عن أن يلحدوا فيها، سواء في ذلك العدول عن الفهم القصد في معانيها، والميل عنها إلى ما لا تقتضيه، أو الإعراض عن مدلولاتها، أو الزيادة فيها بما لم يأذن الله ولا رسوله به، أو النقصان فيها بترك بعض ما ذكر منها، أو تكذيبها، أو الوقوع فيما وقع فيه بعض الفرق من التحريف والتأويل الباطل، أو التشبيه والتمثيل غير اللائق بالذات الإلهية، أو التعطيل لها ونفيها. وكل هذا مما ينفي عن الأسماء نعت (الحسنى)، الذي وصف به سبحانه أسماءه في أربعة مواقع من كتابه - كما أسلفنا - كما وصف بها رسوله الكريم -صلى الله عليه وبارك - تبعاً لكتاب الله في أحاديثه الشريفة.

---

[118] ينظر على سبيل المثال: تفسير الطبري، 133/6، والقرطبي 328/4.

[119] الشوكاني، فتح القدير،.514

[120] ابن العربي، أحكام القرآن،.816 /2

[121] الشوكاني، فتح القدير،.514

[122] المصدر نفسه، ص: 515.

[123] ناصر سبحاني، تلخيص التهذيب، ص: 13.

رابعاً/ نقد الشهيد سبحاني للمتكلمين في موضوع الأسماء والصفات:

انتقد سبحاني بشدة آراء كثير من علماء الكلام في موضوع الصفات والأسماء الحسنى، سواء من ناحية منهجية دراستها، وابتعادهم عن الهدى القرآني في ذلك، أو من ناحية عدّها وشرحها، والحكمة من تأكيد الله سبحانه ورسوله عليها، أو تصنيفها إلى صفات ثبوتية، وأخرى سلبية. ولقد انتقدهم في البداية في حصر الحديث عن الأسماء والصفات في عدد محدود، حيث لم يذكروا من الصفات إلا سبعة، هي: الحياة، والإرادة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، وذلك بتأثير من الفلسفة والفلاسفة. وذكر أن العبودية لا تتحقق إلا بالالتزام بجميع الأسماء. ثم انتقدهم بأنهم رغم ذلك لم يعالجوا في تناولهم لتلك الصفات ما هو لازم، فجاء حديثهم عن الصفات الإلهية حديثاً فلسفياً جامداً، لا ينفع المؤمن، في فهم أو عمل، فقالوا في كلامه سبحانه - مثلاً -: هل هو قديم أو حديث؟ وهل هو نفسي أو لا؟. وقالوا في علمه تعالى: هل هو حضوري أو حصولي؟ وهل له علم بالجزئيات، أو بالكليات فقط؟ أمور لا يُجنى منها إلا ما حصل أيام العباسيين من الجدل العقيم، الذي ولّد نزاعات حادة، أودت باعتقال إمام كبير كأحمد بن حنبل، بل إلى استشهاد بعض من لم يستسلموا لضغوط الخلفاء، كالإمام البويطي[124]، الذي توفي في السجن بسبب التعذيب الذي تعرّض له[125].

وبعيداً عن الفلاسفة وأقوالهم، والمتكلمين وآرائهم في الصفات الإلهية، اختار الشهيد سبحاني منهجية فريدة، استلهمها من القرآن الكريم، سواء من جانب تقسيم الأسماء والصفات من الأساس، أو من جانب ما تتطلبه معرفة الأسماء والصفات، أو الموقف اللازم اتخاذه حيالها.. وهذا ما سأتناوله في الفقرة التالية.

خامساً/ منهجية الشهيد سبحاني في تناوله لموضوع أسماء الله الحسنى، وصفاته:

اعتمد سبحاني - في سلسلة دروس مخصّصة - منهجية خاصة به - كما أشرت آنفاً - في دراسته لموضوع أسماء الله الحسنى، وصفاته، تتلخص في خطوات، هي:

1- بدأ بذكر مقدمة، مفادها التذكير بأن الهدف من خلق الإنسان هو العبودية، التي تتحقق بتزكية نفسه وإعمار الأرض، كما أكد على ذلك القرآن الكريم في عديد من آياته.

---

[124] هو: أبو يعقوب، يوسف، بن يحيى المصري البويطي، صاحب الإمام الشافعي، قال عنه الذهبي: الإمام العلامة، سيد الفقهاء، الذي فاق الأقران، وكان إماماً في العلم، وقدوة في العمل، زاهداً، ربانياً، متهجداً، دائم الذكر والعكوف على الفقه. مات في قيده مسجوناً بالعراق عام (231هـ/845م). ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، .(3/4287)

[125] ناصر سبحاني، الدرس الأول من سلسلة دروسه المخصصة للأسماء الحسنى.

ثم ذكر أن الإنسان مكوّن من مجموعة من الاستعدادات المستعدة للنموّ والزكاء، تماما كالبذرة والحبة التي تكمن فيها جميع الخصوصيات والاستعدادات الخاصة بعنصرها. وبما أن الله حق حكيم، أراد أن تتم تلك العملية - عملية نمو الاستعدادات في الإنسان - كما يريد هو، إلى درجة الرشد والكمال اللائق بالجنس البشري. ثم أكد على أنه لا يمكن أن يصبح الإنسان عبداً حقيقياً لله تعالى إلا أن يعرفه حق المعرفة، وأكد على أنه لا يمكن أن يتم ذلك إلا بمعرفته من خلال أسمائه الحسنى وصفاته. إذاً، الخطوة الأولى في طريق العبودية، هي معرفة صفات الله التي هي مدلول أسمائه الحسنى، فالرحمة - مثلاً - مدلول لصفة الرحمن والرحيم وأرحم الراحمين، والمُلك - مثلاً - مدلول لصفة المالك الملك، وكذا جميع صفاته.

2- ثم باشر الشهيد بإبداء الرأي الأرجح في عدّ الأسماء، فانتقد في البداية - كما أشرت سالفاً - منهج المتكلمين، في تعاملهم مع الموضوع بأسلوب فلسفي جامد، لا روح فيه ولا هدف. ثم عرض منهجاً قرآنياً بديلاً، فقال: "التقسيم الذي نعتمده في موضوع الأسماء والصفات مبني على الهدى القرآني، ويختلف عما اصطلح عليه المتكلمون. وإنني أرجح رأي القائلين بأن الأسماء الحسنى غير محصورة، حيث هناك رأيان آخران، رأي يرى أن الأسماء توقيفية، أي لا يمكن أن يُستعمل اسم لله، سوى ما ورد عن طريق الوحي بأنه اسم له سبحانه، أو ثبت عن الرسول - صلى الله عليه وبارك -. ورأي يرى أنها غير توقيفية، ويمكن أن نضع من كل معنى مناسب لله تعالى اسماً. أما الرأي الأول، فهو الرأي الوسط بينهما، مع إضافة أراها، وهي: أن الأسماء محصورة ـ كأسماء ـ في القرآن من جانب، وغير محصورة من جانب استخراجها من الأفعال الواردة في القرآن. فننظر في القرآن، فإن ورد فعل منسوب إلى الله، فلا مانع من استعمال اسم مشتق من ذلك الفعل، بصيغة اسم فاعل، أو صيغة من صيغ المبالغة. فمثلا: وردت كلمات (يُرِدْ) و(يريد) و(أراد)، فيمكن لنا أن نشتق منها اسم (المريد). وكذلك لا مانع أن نشتق اسم (الفاعل) لله، لكون كلمات (يفعل) و(فعل) و(فعّال) وردت في آيات قرآنية، منسوبة إلى الله تعالى". الأمر الأهم والأساس في هذا، هو فهم مدلولات الأسماء الحسنى، التي هي الصفات، لا الكلمة واللفظة بحروفها فقط.

3- وفي خطوة ثالثة، وضع الشهيد سبحاني منهجية تصنيف الأسماء وفق استقراء قرآني دقيق. فقال: "لا بدّ - قبل أن نصنّف الأسماء - أن نطرح قاعدة وفق الهداية القرآنية، فأقول: علاقة الله بخلقه من جانبين: جانب الخلق، وجانب الأمر ـ حيث حصر الله ملكيّة كليهما في ذاته، وذلك في قوله: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}(الأعراف: ٥٤)، وجانب الخلق

معروف، حيث خلق الله الأرض والسماوات وما بينهما. أما الأمر، فنوعان: أمر تسخيري، يتعلق بالمخلوقات التي لا تملك قوتي (العلم) و(الإرادة)، وأمر تشريعي، أو ابتلائي، يختص الإنس والجن، لكونهما يمتلكان القوتين المذكورتين.

بناء على ذلك، يتعلق قسم من أسماء الله وصفاته بالخلق، وقسم آخر منها يتعلق بالأمر، وهذا القسم الثاني يتفرع منه فرعان: فرع من الأسماء يدل على (صفات الرحمة والإكرام)، التي تتعلق بجلب الخير، ودفع الشر. وفرع يدل على (صفات الملك والجلال)، التي تتعلق بمحاسبة العباد، وجزائهم. ويمكن أن نستعمل قسمتين أخريين، وهما: الأسماء المتعلقة بالربوبية، وهي المشتقة من صفات الرحمة. والأسماء المتعلقة بالألوهية، وهي المشتقة من الصفات المتعلقة بالعبادة والاستعانة".

4- ثم أكد سبحاني على أنه لا بدّ من فهم معاني الأسماء والصفات، واستخراج مدلولاتها اللغوية، من خلال القرآن نفسه، وبالاستعانة بأمهات مصادر اللغة العربية، لا المصادر الهزيلة التي لا تفرق بين المترادفات في العربية.

5- ثم ذكر - بتفصيل - أن على المؤمن أن يعرف الله حق معرفته، من خلال مدلول تلك الأسماء والصفات، بعيداً عن سفسطة الفلاسفة، وجدل بعض المتكلمين.

6- وفي المرحلة الأخيرة، استعرض الموقف اللازم للمؤمن تجاه كل اسم، مشدّداً على ضرورة ظهور الآثار التي لا بدّ أن تتركها الأسماء الحسنى في تصوّر المسلم وسلوكه، ومن ثم قيامه بواجب العبودية تجاه مقام الربوبية والألوهية. فأشار إلى أنه لا بدّ لتحديد الموقف تجاه كل اسم، وفق ما قلنا بأن الإنسان عبد مأمور، وهذا يقتضي أن يشمل أ - مجال المعرفة والفهم. ب - مجال الآثار والنتائج النفسية المترتبة على الفهم. ج - مجال الموقف العملي في واقع الحياة. وهذا التفاعل يتحقق فيما يتعلق بالأسماء المرتبطة بالربوبية.

وهكذا، مهّد الشهيد لمناقشة موضوع الأسماء والصفات، وفي ثلاث عشرة ساعة يستعرضها واحداً واحداً في القرآن الكريم، وما تواتر في الصحيح من الأحاديث، يذكر كل اسم، أو كل صفة، يمكن أن يشتق منها اسم، ثم يذكر معناه اللغوي، ومدلوله، بتفصيل، ثم يذكر الأثر الذي لا بدّ أن يتركه، ثم الموقف الإيماني اللازم تجاهه[126].

وإلى مقال قادم حول حقيقة التوحيد وآثاره، والشرك وأنواعه❐

[126] راجع: ناصر سبحاني، دروس حول الأسماء الحسنى، 1985م.

الإرساليات البابوية

ودورها في تغيير الخارطة المذهبية لمسيحيي كُوردستان

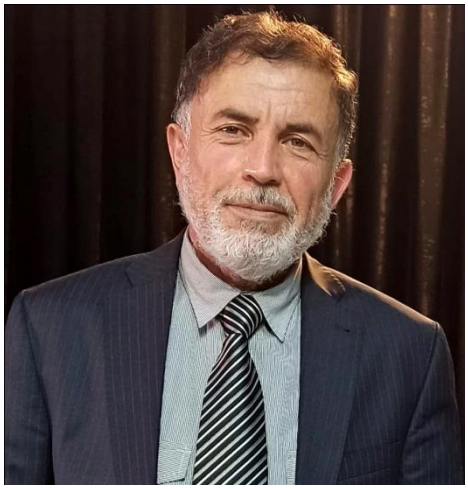

أ.د. فرست مرعي

المقدمة

✍ تعد المسيحية إحدى الديانات السماوية الكبرى في العالم المعاصر، وهي ديانة تبشيرية تحاول التبشير في مختلف أصقاع العالم، وقد ذاع مفهوم التبشير لدى المسيحيين، ويقصدون به نشر بشارة الإنجيل في العالم، وهو الترجمة الحرفية للفظ (الكرازة) ذي الأصل اليوناني المأخوذ من الفعل) كيريزو(kerysso ، أي: يعلن وينادي جهارًا. وتعني الكرازة: إعلان رسالة الإنجيل في العالم غير المسيحي؛ أي بعبارة أخرى: تبليغ رسالة المسيح لغير المسيحيين. وهو المصطلح الذي يعبر به كاتبو الأناجيل لدى الحديث عن التبشير برسالة الإنجيل؛ كما في هذين النصين المقتبسين من الإنجيل: (وَيُكْرَزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ هَذِهِ فِي كُلِّ الْمَسْكُونَةِ) (إنجيل متى: 14/24). (يَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِالإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ)، (إنجيل مرقس: 10/13).

بعكس اليهودية التي تعد ديانة غير تبشيرية. ولكي يمهدوا الطريق لترويج الادعاء بأن الوعود والنبوءات التوراتية المتعلقة بالأرض الفلسطينية تنطبق على يهود العصر الحالي، وأن هجرة اليهود إلى فلسطين، وإقامة الكيان الصهيوني، تحقيق لتلك النبوءات، كان لا بد من التركيز على مفهوم (الشعب المختار)، للترويج لأسطورة (الشعب اليهودي)، التي تزعم بأن اليهود أينما كانوا جماعة بشرية تتشعب من سلالة عرقية واحدة، وهي سلالة إسرائيل، وأنهم جميعًا من ذرية الذين تم إجلاؤهم من (فلسطين)، لأنه بدون ذلك سينهار حلمهم الذي بنوه على الوعود التوراتية، والتلمودية، التي تعطي الأرض لنسل إسرائيل: (لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ)(سفر التكوين 15/ 18-21)، وهذا ما يفسر الحضور الكثيف لمصطلح (الشعب اليهودي) في الخطاب الصهيوني.

لقد وصلت المسيحية إلى ديار الكورد في نهاية القرن الأول، وبداية القرن الثاني الميلادي، على رأي آباء الكنيسة[1]، وفي بداية القرن الثالث، حسب رأي المستشرقين وعلماء الغرب المختصين بالسريانيات[2]. وقد عاش هؤلاء الذين دخلوا في المسيحية؛ من اليهود المستقرين في كوردستان، أو من الكورد أنفسهم، أو من الإثنيات الأخرى، في جماعات يرأسها أساقفة، وتربطها بعض العلاقات بمدينة (أنطاكية)، أما ارتباطهم ببعضهم فلم يكن على صعيد الرئاسة الكنسية. ومهما قيل عن الدور الذي لعبته كنيسة (ساليق) المدائن، فإن هذه العلاقات كانت على صعيد المحبة المسيحية ووحدة العقيدة، وكانت كل من هذه الجماعات المسيحية تتمتع باستقلال يكاد يكون كاملاً بالنسبة إلى غيرها[3]. وقد كان لنشأة المسيحية في أجواء الحقبة الهلنستية - التي سادت فيها الثقافة الإغريقية بلاد المشرق، ومنها مصر، متفاعلة مع ما استقر فيها من ثقافات موروثة - كان لكل ذلك أثر كبير في التفاعل بين الإيمان والفلسفة، الذي طبع الديانة المسيحية بطابعه، فأخرجها من الإيمان البسيط إلى اللاهوت المعقد. وكانت كلها تنصب على محاولة الإجابة على ما هي طبيعة العلاقة بين الله والمسيح، أو بين الأب والابن، وفي مرحلة تالية: الإجابة على ما هي طبيعة العلاقة بين الأب والابن وروح القدس. كان من بين هذه الخلافات البارزة، مسألة انبثاق الروح القدس، ومسألة ما إذا يجب استعمال الخبز المخمّر في الأفخارستيا (القربان المقدّس)، أم لا؟ ففي كنائس الروم الكاثوليك، يلقم الخبز (المصنوع بدون خميرة)، بينما يستخدم الخبز (باستخدام الخميرة) في الكنيسة الأرثوذكسية. فضلاً عن أحقية ادعاء بابا روما بامتلاكه سلطة بابوية عالمية، وموقع بطريرك القسطنطينية المسكوني، فيما يتعلق بالنظام البطريركي الخماسي؛ وعلى إثر ذلك فقد ظهرت في المسيحية فرق ومذاهب عديدة، سنذكر أشهرها حسب الترتيب التاريخي:

1- الغنوصيون: وهم القائلون بأن يسوع إنسان فانٍ يوحى إليه، ولكنه ليس بإله، وبعضهم يقول بأنه - أي المسيح - لم يصلب[4].

2- اليهود المسيحيون: وهم مجموعة من التلاميذ الصغار الذين بقوا بعد المسيح، وكونوا طائفة يهودية تمارس ديانة المعبد، وتحفظ تعاليمها. وكانوا عندما ينظم إليهم وثنيون، أو من غير العبرانيين (اليهود)، يقترح عليهم نظام يحلهم بموجبه (مجمع القدس) -الذي عقد سنة 49م- من شرط الختان، ومن تطبيق الأركان اليهودية. وقد رفض كثير من اليهود المسيحيين هذا التنازل، وانفصلوا عن (بولس)، واتهموه بالرياء، والخيانة، بسبب اعتباره الختان، ومراعاة يوم السبت، وديانة المعبد، أموراً بالية ليست ذات قيمة، علماً بأنها من تعليمات العهد القديم[5].

3- المرقيونية: تنسب هذه النحلة إلى (مرقيون) (58 – 160م)، أحد أبرز مسيحيي القرن الثاني الميلادي، الذين حاولوا التوفيق بين الغنوصية (الخلاص عن طريق المعرفة) والمسيحية. كانت الفكرة الأساسية عند (مرقيون) هي أن الإنجيل المسيحي هو إنجيل الحب الذي يستقصى تماماً الناموس، وهذه العقيدة، والتي شرحها - بصفة خاصة - في كتابه (المتناقضات Antitheses)، جعلته يرفض العهد القديم تماماً، ويرى أن الله الخالق - والذي استعلن في (العهد القديم)، بدءاً من (سفر التكوين) وما بعده، كإله الناموس - ليس له أي علاقة بإله يسوع المسيح. ودراسة (العهد القديم) - كما يظن- تثبت أن هذا الإله اليهودي قد أدخل نفسه دوماً في أفعال متناقضة، فكان متغيراً على الدوام، جاهلاً وقاسياً. أما إله الحب الكامل، الذي جاء يسوع ليعلنه، فكان مختلفاً تماماً. وكان هدف يسوع أن يهزم إله الناموس هذا. وبحسب (مرقيون)، كان القديس (بولس) هو الوحيد الذي أدرك هذا التناقض التام بين النعمة والناموس، بينما كان التلاميذ الاثني عشر، والإنجيليون، عمياناً عن الحق، بسبب تأثرهم ببقايا الفكر اليهودي. ولذلك، كانت الأسفار القانونية الوحيدة - بالنسبة لمرقيون - هي الرسائل البولسية العشرة (يبدو أنه إما رفض، أو لم يعرف بوجود الرسائل الرعوية)، وكان يشجع أتباعه على دراسة هذه الأسفار بحسب منهجه، وكان يرفض كل التفاسير الرمزية.

أما عن (خريستو لوجيا مرقيون)، فكان من الدوسيتيين، فأسس كنيسة بديلة للكنيسة الرسمية، استمرت مدة طويلة بعد وفاة مؤسسها، خصوصاً في الأطراف الشرقية لمناطق انتشار المسيحية في (أرمينيا)، و(كوردستان)، وكان ذلك وراء تعجيل الكنيسة في إقرار الأناجيل الأربعة، وتثبيت المعتقد المسيحي الرسمي في صيغته النهائية، في القرن الرابع الميلادي، وتحديداً في (مجمع نيقية) عام 325م[6].

4- الأبيونية: وهم قسمان: أولهما يعتبر يسوع مجرد إنسان عادي، بلغ مرتبة الصلاح بفضل تنامي شخصيته، ولد من مريم وزوجها، مثل أي مولود آخر، ألحّ على التمسك بأحكام الشريعة الموسوية. وهذه الجماعة لم تكن تؤمن بالخلاص بواسطة المسيح وحده، أو الاقتداء به. والثانية تؤمن بأن يسوع المسيح ولد من العذراء وروح القدس، لكنهم لم يؤمنوا بأن له وجوداً سابقاً، وهو بالتالي ليس إلهاً، وليس هو الكلمة والحكمة[7].

5- الدوكيتية: الغنوصيون، الذين عرفوا باسم الدوكيتية، ذهبوا إلى الطرف النقيض من الأبيونية، ونفوا البشرية عن المسيح، فيما أكدوا على طبيعته الإلهية. تعلموا في مدرسة (أفلاطون)، وتعدوا على سمو فكرة اللوغوس (العقل أو الكلمة)[8].

6- الأريوسية: ينسب هذا المذهب إلى (أريوس الليبي) (256–336م)، وهو كاهن من الإسكندرية بمصر، من أصل بربري، وكان مسؤولاً عن إحدى كنائس الإسكندرية، وهي (كنيسة بوكاليس). تتلمذ على يد (لوقيانوس الأنطاكي)، الذي كان يرفض ألوهية المسيح، فكان أن استشهد دون عقيدته التوحيدية، التي تناقض تعاليم بولس، الذي كان أول من نادى بألوهية المسيح. اشتهر (أريوس) بتبنّيه لمجموعة من التعاليم التي تدور حول الطبيعة اللاهوتية في المسيحية، التي أكّد فيها على تفرّد الأب، وتبعية المسيح للأب، ومعارضته لما أصبح سائداً حول طبيعة يسوع. فأصبح الموضوع الرئيس الذي تمت مناقشته في (مجمع نيقية) الأول، الذي عقده الإمبراطور (قسطنطين) العظيم، سنة 325م. بعد أن اعترف الإمبراطوران الرومانيان (ليسينيوس) و(قسطنطين) بالمسيحية كدين رسمي عام313، فيما سمّي بـ(مرسوم ميلان). رأى (قسطنطين) أن يوحّد الكنيسة التي اعتُرف بها مؤخرًا، وأن يزيل الانقسامات اللاهوتية، حيث كانت الكنيسة المسيحية منقسمة ومختلفة حول طبيعة يسوع، أو طبيعة العلاقة بين يسوع والأب. كما أن (أثناسيوس الأول) بابا الإسكندرية، اعتبر (أريوس)، والمتفقين مع آرائه، ممّن لم يؤمنوا بمعتقد الثالوث، الذي يؤمن بتساوي الأب والابن في الجوهر والأبدية. وتصف كتابات مسيحية اللاهوت الآريوسي بصورة سلبية، نظرًا لاعتقاده بأنه كان هناك وقت لم يكن فيه وجود للابن، حيث الأب موجود وحده .

وعلى الرغم من الجهود المعارضة لمذهب أريوس، استمرت الكنائس المسيحية الأريوسية في جميع أنحاء أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وخاصة في الممالك الجرمانية، حتى سقوط تلك الممالك عسكريًا، أو تحولهم المذهبي طواعية، بين القرنين الخامس والسابع الميلادي.

ويبـدو أن الأرثوذكسـية هاجمـت (أريـوس) وأفكـاره، لاسـتنكاره اخـتلاط اللاهـوت المسيحي بالوثنية الإغريقية. ومن وجهة نظر مسيحية أرثوذكسية يعـد (أريـوس) هرطقيـاً شكل خطراً على العقيدة المسيحية طوال عشـرة قرون من تاريخها. ويقوم خلاف (أريوس) مع الكنيسة على أطروحة واحدة، هي أن يسوع كائن فانٍ، ليس إلهياً بأي معنى، وليس - بأي معنى - شيئاً آخر سوى معلـم يـوحى إليـه. وهـذا مـا يـؤدي إلى الاسـتغناء كليـاً عـن عقيدتي الفداء، والمخلص، الركنان الأساسيان في الديانة المسيحية[9].

7- النســطورية: نســبة إلى القــديس (نســطوريوس)(381 – 451م)، بطريــرك القسـطنطينية، الـذي نصـبه الإمبراطـور الرومـاني (ثيئـو دوسـيوس الثـاني) (408 450م)، بطريركـاً، سـنة 428 م. وأعلـن (نسـطوريوس) أن للسـيد المسـيح شخصـيتين منفصـلتين (أقنومين): أقنوم الإنسان يسوع ، وأقنوم الله، ولا يجوز أن تسمّى مـريم العـذراء أمّ اللـه، بل هي بشـر، ولدت المسيح بالشخصية البشـرية، وأن المسيح مات على الصـليب كإنسـان. وكانت النتيجة أن أُدين (نسطوريوس)، واعتُبر خارجاً على تعاليم الكنيسة. وبعد أن قضـى خمس سنوات معتكفاً في ديره القـديم قـرب (أنطاكيـة)، نفـاه الإمبراطـور (ثيئودوسـيورس الثاني) سنة 436م إلى أعالي مصـر؛ حيث توفي سنة 451م. وما أن علم الإمبراطور الفارســي بما يحدث لنسطوريوس، حتى قام باحتواء معارضـي الدولـة الرومانيـة، بقيـادة (بارصـوما) زعيم الحركة النسطورية؛ حيث توجهوا إلى الدولة الفارسية الساسـانية، ولاقـوا ترحيبـاً مـن الملك فيروز(بيروز) الأول (459 484م)، الذي رأى فيهم خـير أداة لمحاربـة الدولـة الروميـة البيزنطية. وحسب طلب الأسقف برصوما، فقد اعتبر الملك فيروز النسـطوريةَ دينـاً لجميـع مسيحيي الإمبراطورية الفارسية. وفي عـام 496م اجتمـع في العاصـمة الفارسـية الساسـانية (سلوقية) (سلمان باك الحالية)، المجمع الديني النسطوري، وأعلنت النسطورية ديناً رسمياً للمسـيحيين، وانتخـب أول بطريـرك نسـطوري، وهـو (بـاري). ومنـذ ذلـك الحـين سـمّيت الكنيسة النسطورية بكنيسة المشـرق، وسُمّي بطريركها بطريركاً للكنيسة الشـرقية[10].

ظهور الرهبانيات الكاثوليكية:

لقد شهد القـرن الحـادي عشــر الميلادي حماسـاً دينيـاً، نتيجـةً للإصـلاحات الكنسـية، والدعوة للحروب الصليبية. فنشطت الحركة الديرية نشـاطاً ملحوظـاً، ومـن أشـهر الفـرق الديرية قاطبة، في القرن الثالث عشـر: الفرنسيسكان، والدومنيكان، ويطلق عـلى أتبـاعهما عادةً لقب الإخوان Friars ، وذلك لاتصالهم الدائم بأفراد المجتمع. والغايـة الأساسـية مـن تشكيل هاتين الفرقتين انتشـال الكنيسـة الكاثوليكيـة مـن مأزقهـا، عـلى إثـر الصــراع بـين

البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولظهور البدع الدينية (الهرطقة)، ومكافحة الترف، الذي سرى بين بعض رجال الدين، ولمناهضة التحلل من القيم الأخلاقية التقليدية، وخاصة الدينية منها، في المدن الناشئة آنذاك. إذ كان العصر، حسب تعبير القديس (برنراد أوف كليرفو)، في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي: "أن الدنيا أقبلت على عصر المآتم والشرور". لذلك انبرى المؤمنون المسيحيون لمعالجة الوضع، وكان أكثرهم توفيقاً في هذا الشأن (فرانسيس أوف أسيسي)، و(دومنيك)[11]. وبقدر تعلق الأمر بموضوعنا، فإننا سنقتصر على التعريف بـ (دومنيك).

الرهبانية الدومنيكية :

ولد القديس (دومنيك Domingo)، في مدينة (كالاروكا)، في مقاطعة (قشتالة)، الواقعة في شمال أسبانيا، سنة 1170م، وترعرع تحت كنف عمّه، الذي كان قسيساً. ساهم (دومنيك) في الحملة الصليبية ضد (الالبجنسيين)[12]، عن طريق الوعظ والإرشاد، وأمضى في ربوعهم عشر سنوات (1205- 1216م)، حيث تنطلق منها جماعات الرهبان إلى الأماكن الأخرى. وأمست الفرقة ذات تأثيرات كبرى عند وفاة المؤسس سنة 1221م، إذ قامت بأدوار هامة في المجالات الدينية في المدن والجامعات، وبرز من بين صفوفهم اثنان من عمالقة الفلسفة في أوروبا، هما: (البرتوس ماكنوس)، و(توماس اكويناس). ولقد انتشرت فرقة الدومنيكان في كافة أرجاء العالم، وخاصة في آسيا الغربية. ولقد لعب هؤلاء الدومنيكان أدواراً خطيرة في الاتصالات التي جرت بين البابا والملوك الصليبيين، من جهة، والمغول، من جهة أخرى، لغرض إنقاذ الممالك الصليبية في المشرق الإسلامي. ومن جانب آخر، فإن البابوية اعتمدت على الدومنيكان في محاكم التفتيش، التي أنشأتها في المرحلة الأولى لمحاربة الفرق المهرطقة والمضلة، حسب وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية. وقد وصل الأمر بالدومنيكان أن شبهوا أنفسهم بكلاب الله Domini Canes، في اصطياد الهراطقة، وللمحافظة على الرعية المسيحية ضد الذئاب الضارية (المهرطقين)[13].

وصول الإرساليات الكاثوليكية إلى كوردستان:

إن الإرساليات الكاثوليكية إلى الشرق الأدنى، في بداية الربع الثاني من القرن السابع عشر، لم تحل في أرض جدباء، بل إن أرض المشرق كانت معروفة بعض الشيء لدى المسيحيين الغربيين، حتى لو شاب تلك المعرفة بعض الغموض. وقد عرف المنصّرون أرض الشرق عبر بعض تقارير مؤرخي الصليبيين، وأخبارهم، فالعلاقات بين البلدان الأوروبية

ومدن بلاد الشرق عادت لتقوى مع بداية القرن السادس عشر. ومفهوم التبشير، الذي انطلق في القرن السابع عشر، تأسس على معطيات الإصلاح المضاد، الذي أفرزه (المجمع التريدنتيني) (1545 – 1563م)، الذي أعلى من شأن مسؤولية البابا الراعوية، والشاملة، تجاه المسيحيين غير الكاثوليك، واليهود، والمسلمين، والوثنيين. ولأن التبشير أصبح وسيلة مميزة للإقناع[14].

والحدث الكنسي الأبرز الذي أسس لمرحلة جديدة من عمل الإرساليات التبشيرية في الشرق، هو قرار تأسيس (مجمع التبشير بالإيمان The College For Faith of the Propagation)، عام 1622م. ويقول البابا (غريغوريوس الخامس عشر)(1445-1621م)، في قرار تأسيس ذلك المجمع، عبر رسالة إلى الكرادلة: "إن مهمة البابا العليا تشتمل على كل ما يتعلق بموضوع خلاص الأنفس، وفي المرتبة الأولى، الاهتمام بالإيمان الكاثوليكي، لأنه يجب العمل على أمرين: الأول يكون في المحافظة على ذلك الإيمان عند المؤمنين، حيث تم حثهم على المحافظة عليه بالتمام، حتى بالعقوبات. والثاني يقضي نشره بين غير المؤمنين (المسلمين واليهود والوثنيين). فلذلك، قررت الكنيسة المقدسة أن تتبع نوعين من التصرف: الأول هو الوسيلة الشرعية، كونها أرست حكمة العقيدة المقدسة. والثاني ذو طابع معنوي، أو بالأحرى رسولي، إذ يتم إرسال الإرساليات (التبشيرية)، المستمر، من العمال (رهبان الأخويات)، بين الشعوب التي هي في حاجة إليها أكثر من غيرها"[15].

لقد شكلت سنة 1622م محطة مهمة في دفع الإرساليات التنصيرية نحو الشرق، إلا أن انطلاقة الإرساليات لم تكن في شكل عقبات محدودة متفردة، ولوقت معين، بل لإقامة ثابتة، وضمن مشروع متكامل. فكان الرهبان (الكبوشيون) أول الواصلين إلى بلاد المشرق، وتبعهم (الكرمليون)[16]، و(الأوغسطينيون)[17]، و(الفرنسيسكان)[18]، و(اللعازريون)[19]، وأخيراً: الأخوة الوعاظ (الدومنيكان).

وكان الرهبان الدومنيكان قد قدموا إلى بلاد ما بين النهرين، وكوردستان، ومارسوا رسالتهم بين النساطرة، منذ القرنين الثالث عشر، والرابع عشر، الميلاديين، إلا أن أخبارهم انقطعت بعد ذلك، كما أن بعثاتهم التنصيرية بين صفوف الأرمن كانت قد دمرت، خلال الاضطرابات التي جرت في النصف الأول من القرن الثامن عشر[20]، ولكن الإرسالية الكبوشية سبقت الجميع في المجيء إلى العراق. فقد أسس الكبوشيون مركزاً لهم في الموصل سنة 1632م، وتمكنوا خلال فترة قصيرة من خلق نواة كاثوليكية بين عدد من الأسر الموصلية، التي اتحدت مع (روما)، أي اعتنقت المذهب الكاثوليكي[21]، كما أن (جاثليق) (=

بطريرك) النساطرة (إيليا الثامن) سمح لهؤلاء الكبوشيين بالدعوة للمذهب الكاثوليكي داخل كنائس طائفته النساطرة.

وبدلاً من أن يفلح هؤلاء الكبوشيين في إرجاع الهراطقة (النساطرة، حسب تعبير اللاهوتيين الكاثوليك)، فإنهم استطاعوا اصطياد أحد الكورد المسلمين من أهالي مدينة العمادية، حيث اعتنق المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي، وأصبح من أشد الدعاة إلى هذا المذهب، إلا أنه ذهب ضحية هذا العمل في بلاد (الحبشة)، البعيدة عن موطنه كوردستان بآلاف الكيلومترات.

بطرس جيسي العمادي في حوليات البروبغندا :

لقد نشر الأنبا (شموئيل جميل التلكيفي)، رئيس الرهبانية الهرمزدية، كتاباً باللغة الإيطالية، تحت عنوان: (العلاقات بين الكرسي الرسولي والسريان المشارقة)، وهو يضم قسماً من المراسلات التي كانت تجري بين بطاركة كنيسة المشرق النسطورية، وبين باباوات الفاتيكان. وفي إحدى تلك المراسلات وثائق حول شخص يدعى (بطرس جيسي)، من أهالي العمادية، ومن أبوين مسلمين، اعتنق المسيحية، ودافع بحرارة عن المذهب الكاثوليكي؛ حسب روايتهم. وفيما يلي نقرأ في سجل وحوليات تلاميذ (كلية بروبغندا)، في المجلد الأول لمجموعة الوثائق لسنة (1633 – 1753م)، في الورقة (15)، ما يأتي: "إن (بطرس جيسي الفارسي)، من مدينة (العمادية)، قبل في الكلية (بروبغندا) في (17 آب ـ1647م)، وله من العمر آنذاك ما يقارب (24) سنة (أي أن سنة ولادته حوالي 1623م، حسب الحولية)، وذلك بترشيح من الكوردينال (بربرينو)، وبقرار المجمع في 3 حزيران، من عين السنة، وهو من والدين مسلمين، وادّعى بأنه مدعو من الله أن يأتي إلى (روما)، لكي يصبح مسيحياً، سنة 1641م. وفي 7 أيلول سنة 1642م، عمّده المونسنيور (سكنارولا)، في كنيسة (سيدة الجبال) في (روما)، وكان أشبينه السيد التقي الكونت (جيسي الفرنسي)، ابن سفير الملك (فرنسا)، في القسطنطينية"[22]. رجع الأب بطرس جيسي، بعد رسامته الكهنونية (أي أصبح قسيساً)، إلى بلاده (كوردستان)، وعمل كثيراً في الرسالات، والمواعظ، وخصوصاً في مدينة (آمد) (= دياربكر).

ويعتقد الباحث بأن هذا الكوردي الذي تنصّر لم يرجع إلى مدينته ومسقط رأسه - حسب الرواية الإيطالية- بسبب خوفه من حدوث ما لا تحمد عقباه، حيث كان يتهم بالردة والكفر، وعقوبة الردة عند المسلمين هي القتل، لا سيما وأن الدولة العثمانية، التي

كانت تحكم آنذاك، كانت تعمل بالشريعة الإسلامية، هي والإمارات الكوردية المنضوية تحت رايتها .

بعد ذلك، تذهب سجلات (كلية البروبغندا) بأن المدعو بطرس قد ذهب إلى (القوش)، حيث التقى البطريرك النسطوري (مارإيليا الثامن) (1617 – 1660م)، الذي سر بقدومه، ورآه غيوراً على الإيمان المسيحي، ويكنّ محبة عميقة للكنيسة، ووحدتها مع جميع الكنائس، وخصوصاً مع روما، التي عاش فيها سنوات عديدة، وتعلم اللغة الإيطالية، وتعرف على المسؤولين في الدوائر الرومانية. وقد اختاره البطريرك، مع اثنين آخرين، وهما: الأب مرقس، والشماس طيمثاوس، وكلّفهم بالذهاب إلى (روما)، لاطلاعهم على حالة المسيحيين في الشرق، بصورة عامة، وكوردستان، بصورة خاصة .

بعد ذلك، تشن الوثائق حملة شديدة على (بطرس)، وتتهمه بالتزوير، ومحاولة اختلاس الأموال، واستغلال معرفته للشخصيات الكاثوليكية للوصول إلى مآربه .

وترك (بطرس العمادي) روما، في طريق عودته إلى كوردستان، حسب المعتاد، ولكنه ذهب إلى (الحبشة)، التي كانت تدين بالمسيحية وفق المذهب الأرثوذكسي، ولكن الكهنة الأرثوذكس هجموا عليه بالرماح، ورجموه بالحجارة، التي تكدست على جثمانه، فمات حبّاً بالمسيح سنة 1680م، حسب رواية (البروبغندا)[23].

وصول المرسلين الدومنيكان إلى كوردستان:

عندما فشل مسيحيو الموصل، من الكاثوليك، في إعادة فتح الإرساليات الكبوشية، التي كانت قد أغلقت أبوابها عام 1722م، بعد أن تعرضت إلى السلب والنهب، وقتل مسؤولها الأب (بطا الكبوشي). التمس القس (خضر الكلداني) - الموصلي المقيم في أوروبا آنذاك، هرباً من بطريرك النساطرة - من البابا (بندكتس الرابع عشر)، بفتح إرسالية لهم في هذه المدينة. وبعد تردد، طلب البابا من رئيس الرهبانية الدومنيكانية بإعادة فتح إرساليتهم التنصيرية في بلاد ما بين النهرين، وكوردستان، في سنة 1847م. ففي 17 كانون الثاني عام 1750م، وصل مرسلان إيطاليين، هما: (فرنسيس توريـاني Tarriani)، و(عبد الأحد كوديلنشينيCodeleoncini)، وأضيف إليهما بصورة مؤقتة: الكرملي (ليأندرد للقديسة سيلسيا)، لمعرفته اللغة العربية، والأماكن التي من المقرر التنصير فيها[24]. وقد استعان هذان المرسلان بخبرتهما الطبية، فنالا النجاح في مهمتهما الدينية، سيما وأنهم تمتعوا بتأييد كاثوليك الموصل. ولما بلغ خبر مجيئهما مسامع أمير بهدينان بهرام باشا الأول بن سعيد خان بك الثاني (1714 – 1768م)، وكان مريضاً، فأرسل في طلب الأب المرسل: الطبيب

(فرنسيس توريانى) لمعالجته، فلما نجح الأخير في مهمته، سمح الأمير (بهرام) بفتح فرع للإرسالية الدومنيكانية في (العمادية)، يكون مرتبطاً بإرسالية الموصل؛ مهمته تغيير معتقد النساطرة المتواجدين في إقليم بهدينان إلى الكثلكة، والاتحاد مع روما[25].

الرسالة الدومنيكانية في العمادية، ونمو الكثلكة فيها :

بعد أن سمح أمير العمادية (بهرام باشا) بفتح فرع للإرسالية الدومنيكية في (العمادية) سنة 1752م، تم تعيين الأب المرسل (عبد الأحد الأول - كوديليشيني) كأول مرسل لها. فلما توفي الأخير سنة 1753م، تولى إدارة العمادية الأب (إيبولدو صولديني)، وكان حاذقاً في علم الهندسة، فضلاً عن مهارته في مهنة الطب. لذا، جلب انتباه الأمير الكوردي (بهرام باشا)، الذي منحهم سنة 1770م كنيسة (قرية ديري)، الواقعة على بعد عدة كيلومترات شرقيّ العمادية، والمعروفة باسم (مارعبد يشوع)، حيث قام المرسلون الدومنيكان بتعيين اكليروس كاثوليكي؛ يقوم بإجراء ليتورجياته وفق الطقوس الشرقية، وليست اللاتينية. كما أن باشا العمادية شجع رعاياه المسيحيين، من المذهب النسطوري، على اعتناق مذهب المرسلين الدومنيكان (المذهب الكاثوليكي)، والاتحاد مع روما[26].

وكانت جهود المرسلين الدومنيكان، في إرساليتي الموصل والعمادية، قد أسفرت عن تحول أكثر من ألفي نسمة، في قرى منطقة الموصل والعمادية، إلى الكثلكة، بحلول سنة 1770م. فضلاً عن إقناع بطريرك النساطرة (إيليا الثاني عشر) (1778 – 1804م) بإرسال صورة إيمانه الكاثوليكي إلى البابا. كما أنها أسفرت عن اعتناق المطران (يوحنا هرمزد) المذهب الكاثوليكي[27]. وكان الأب (موريس) قد قصد العمادية سنة 1768م لمساعدة الأب (صولديني)، حيث ألّف كتاباً في أصول النحو، ومعجماً مختصراً في اللغة الكوردية، وطبعه في مطبعة (انتشار الإيمان) في (روما)، لفائدة المرسلين المبشرين في كوردستان.

وفي سنة 1775م توفي الأب (صولديني)، مسؤول إرسالية العمادية، في (زاخو)، ودفن فيها. كما أن وصيفه في الموصل: الأب (فرنسيس طوريانى)، قد توفي في (الموصل) سنة 1767م، بعد أن خدم الرسالة الدومنيكانية فيها نحو سبع عشرة سنة، ودفن في (مقبرة آل عبد الجليل)، في (كنيسة شمعون الصفا) في (الموصل)[28].

ومن سخرية القدر، أن الأب (والنتين) كان قدم إلى إرسالية الموصل سنة 1756م، وكان حاذقاً في الطب. لذا، طلب حضوره إلى (جزيرة ابن عمر) (= جزيرة بوتان) لمعالجة ابن أميرها. ولكن الأب (والنتين) لم يفلح في إنقاذ ابن الأمير البوتاني، حيث توفي بين يديه، مما دعا الأمير الكوردي إلى قتل الأب (والنتين)، وإلقاء جثته في نهر دجلة[29].

وفي سنة 1775 – 1880م أغلقت الرسالة الدومنيكانية في (العمادية)، بسبب الخلاف الذي نشب بين والي الموصل سليمان باشا الجليلي (1775 – 1799)، ووالي العمادية إسماعيل باشا (1768 – 1798م)، حول عائدية دير (الربان هرمزد)، في (القوش)، والصراع الذي كان جارياً بين مسيحيي الموصل التواقين إلى الكثلكة والاتحاد مع روما؛ والمدعومين من أمراء الموصل الجليليين، وبين أمراء العمادية، الذين كانوا يحاولون جاهدين المحافظة على سيادتهم على (دير الربان هرمزد)، حيث مقر البطريرك النسطوري (إيشوعياب)، ورعيته من النساطرة، المتواجدين في القرى والقصبات التابعة للعمادية. ولكن موت (سليمان باشا الجليلي)، والي الموصل، وتولي ابنه (محمد باشا) مقاليد الأمور في الموصل، سنة 1789م، وتصالحه مع إسماعيل باشا (1768 – 1798م)، أعاد المياه إلى مجاريها بين الجانبين. حيث إنه عندما تمرض إسماعيل باشا، أمير العمادية، أرسل إليه الأمير محمد باشا الجليلي، الأب (مرقص بيانتا) لعلاجه، ولما شفي أكرمه (إسماعيل باشا)، ووهبه مرة أخرى كنيسة (مار عبد يشوع)، في قرية (ديري)، للمهتدين من المسيحيين (الكاثوليك)[30].

ولكن هؤلاء المسيحيين المهتدين إلى الكاثوليكية لم يهنئوا بهذه الحرية زمناً طويلاً، فما أن توفي (إسماعيل باشا) سنة 1796م، والذي كان يسعى إلى نجاح الرسالة الدومنيكانية، حسب مصدرهم، حتى خلفه ابنه (مراد بك) 1796 – 1804م، الذي شرع في اضطهاد الكاثوليك، وقطع لسان القس (كيسو المانكيشي)، فمات القس من جراء ذلك، (وفي رواية مسيحية أخرى أنه شفي بأعجوبة). وقتل (مراد بك) عدداً من الكلدان في (العمادية)، وقرية (ديري)، الواقعة شمالها الشرقي، وهرب قسيسها المدعو (عبدالكريم) إلى (الموصل). وقد لخص الأب الدومنيكاني (منصور سابلائي) هذه الحوادث بقوله: "وكان المتخلف لإسماعيل باشا (الأمير) ابنه مراد بك، ثم تغلب أخوه قباد بك، ثم رجع مراد بك، ثم أخوه عادل بك. وفي سنة 1798 انتهت النسطرة من بلاد ما بين النهرين (أي في السهول دون الجبال). وكان سنة 1803م في (الموصل) ألف وخمسمائة عائلة كاثوليكية اهتدت إلى النسطرة"[31].

كما يجب أن لا ننسى أن قرية (بارزان) نالها خلال فترة صراع المنصّرين (المبشرين) الكاثوليك، مع كنيسة المشرق النسطورية، لإخضاع الأخيرة لكرسي روما، مثل بقية المناطق الأخرى. فالبطريك (يوحنا هرمزد) النسطوري، الذي التحق بـ(روما) سنة 1778م، وأصبح كاثوليكياً، وأخذ بالتبشير لدعوتها، يقول في سيرته الذاتية، عن قرية (بارزان)، وما حصل فيها سنة 1790م، ما يلي: "ربنا يسوع المسيح أضاء عقول أبناء قرى (ارينا)[32]، و(برزان). كلاهما تقبلتا عقيدة الكنيسة المقدسة (= الكنيسة الكاثوليكية)، وتحرروا من الهرطقة

(=هرطقة نسطوريوس)، بواسطة ابن أخي المطران شمعون، الذي جلب كهنتهما عندي... فأكرمتهم، فأعطيتهم ما يحتاجون إليه من كتب وآنية مقدسة، لتكون كنائسهم كما في البيع المسيحية، وعادوا إلى قراهم"[33].

وهذ يدل على أن مسيحيي قرية بارزان، وغيرها من القرى المحيطة بها، غيروا عقيدتهم النسطورية (= أتباع كنيسة المشرق القديمة)، إلى الكنيسة الكاثوليكية، تحت اسم الكلدان المتحدون، بواسطة المطران شمعون ابن أخ البطريرك يوحنا هرمزد، بحلول نهاية القرن الثامن عشر.

وتذكر مصادر (بطريركية بابل)، عن الكلدان، في الموقع الرسمي لها، بقولها: "لقد استُخدمت العبارة: (الكنيسة الكلدانية)، رسميًا للدلالة على مجموعة من أبناء كنيسة المشرق، الذين انتموا إلى الكنيسة الكاثوليكية أولاً في قبرص عام 1340، في زمن البابا مبارك الثاني عشر، لكّن هذا الاتحاد لم يدم. ثم في عام 1445 إثر مجمع فلورنسا، في زمن البابا أوجين الرابع. هؤلاء المشارقة القبارصة كانوا من بقايا الأسرى الذين ساقهم ملوك الروم، وأسكنوهم في جزيرة قبرص، ومعظمُهم كان من منطقة أرزون. ثانيًا: في القرن الثامن عشر، عندما أقام البطريرك الكاثوليكي كرسيًّه في دياربكر (أمد – تركيا)، استعمل التسمية هذه إلى جانب تسمية (الكنيسة الكاثوليكية). وسَرَت تسميّة (الكنيسة الكلدانية) رويدًا رويدًا، وتغلّبت على التسميّات الأخرى، وخصوصًا عندما اتحد الكرسيّان الكاثوليكيّان: ديار بكر، والموصل، في شخص (يوحنا هرمز) عام 1828. من المؤكد أن هناك أختام بعض البطاركة (النساطرة)، وشواهد قبورهم، تحمل التسمية الكلدانية. واليوم قد استقرت هذه التسمية رسمياً للجانب الكاثوليكي من أبناء كنيسة المشرق"[34].

وفي نهاية القرن الثامن عشر، وتحت تأثير (بطريركية آمد)، وبمعاونة الرهبان الكبوشيين، والدومنيكان، انضّم معظم أبناء كنيسة المشرق، في الموصل، وسهلها، إلى الكثلكة. فيذكر الأب (دومينكو لانزا) أنه زار (كرمليس) في عام 1765، وأن أهلها كلهم كانوا قد اعتنقوا الكثلكة، وكذلك (تلكيف)، وقرى خط (القوش). وعندما رأى البطريرك (إيليا الثاني عشر دنحا)، في دير (الربان هرمزد)، أن التيار الكاثوليكي أخذ يشتد ويقوى ويتسع، اتصل مع (روما)، وكتب عدة رسائل، معربًا عن رغبته في الاتحاد معها. وبسبب تدخل (يوسف الثالث)، بطريرك آمد، لم تتحقق هذه الرغبة. وعندما خلفه ابن أخيه: (إيليا الثاني عشر ايشوعياب) (1778-1804)، عارضه - بقوة - (يوحنا هرمزد)، متروبوليت الموصل، أحد أنسبائه. وسبب هذه المعارضة كان في الغالب الاتصالات مع روما. لقد عدّ (يوحنا هرمز) نفسه كاثوليكياً منذ 1778، وثبّتته (روما) (ميترا بوليتا) على (الموصل)،

ومدّبراً بطريركيًا. إلا أنه لم ينصب بطريركاً إلا متأخراً، بسبب معارضة (أوغسطين هندي) له، وشك (روما) في مصداقيته.

في سنة 1804 توفي (إيليا الثالث عشر ايشوعياب)، ولم يكن في عائلته ذَكَرٌ يمكن أن يخلفه، فخلت الساحة أمام (يوحنا هرمزد). ولكن وجد من بين المعارضين: رهبان دير (الربان هرمزد)، وكان الأب (جبرائيل دنبو المارديني) قد أعاد إليها الحياة الديرية. ففضلوا عليه (أوغسطين هندي). كما أن المرسلين اللاتين، كانوا قد بعثوا إلى (روما) تقريراً سلبياً عن خدمة يوحنا هرمزد، مما دفعها إلى تعيين هندي مدبراً بطريركيًا على كرسي بابل، وأوقفت يوحنا هرمزد عن الخدمة. ولكن موت أوغسطين هندي حل مشكلة وجود كرسيين بطريركيين في طائفة واحدة، وفي وقت واحد. فقام البابا (بيوس الثامن) بتثبيت (يوحنا هرمزد) رسميًا (بطريرك بابل على الكلدان Patriarch of Babylon of the Chaldeans"، وجعل كرسيّه في (الموصل)، كان ذلك في الخامس من تموز 1830. مع العلم أنه لا توجد علاقة كنسية ببابل، وأن الكرسي البطريركي كان في (المدائن) (ساليق) و(قطيسفون)، أي بغداد، ربما يعود هذا التبني إلى كونها عاصمة الكلدانيين. هكذا اندمجت البطريركيتان: آمد والموصل، ومنذئذٍ حافظت السلسلة البطريركية - الخط الأول- على شركتها التامّة مع روما، وإلى اليوم.

ومن جهة أخرى، فإن البعثات البابوية استطاعت استقطاع الجزء الأكبر من مسيحيي قصبة (قرقوش) (= الحمدانية) من طائفة السريان الأرثوذكس، وجلبهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، باسم (السريان الكاثوليك). وتجدر الإشارة إلى أن (قرقوش) تعد أكبر قصبة مسيحية وسريانية في الشرق الأوسط، وتسَمَّى (عين السريان)، وكانت أرثوذكسية إلى نحو سنة 1800م. والآن بحدود 90 بالمئة من سكانها، سريان كاثوليك، والباقي سريان أرثوذكس، وقد حظيت كثلكة السريان بمساندة قوية من أسرة الجليليين، الذين حكموا الموصل في تلك الحقبة. وفي سنة 1839م، أصبح دير (مار بهنام) بحوزة السريان الكاثوليك[35].

ومن جانب آخر، يبدو أن هناك تناقضاً في المصادر والمراجع المسيحية، بخصوص موقف أمراء العمادية من نشر الكثلكة في ربوع المسيحيين النساطرة (=الآثوريين- الآشوريين) رعية أمير العمادية. ففي الوقت الذي يكيلون المدح للأميرين (بهرام باشا) و(إسماعيل باشا)، نراهم يكيلون التهم جزافاً بحق الأمير (مراد بك)، الذي حكم سنة 1796م- 1798م، على خلاف بين المصادر. وفي هذه السنوات[36] انتهت (النسطرة) في منطقة السهل، في نينوى والعمادية، أي أن جميع القرى المحيطة بالعمادية، في شرقها، وفي غربها (وادي

صبنه)، قد اعتنقت الكاثوليكية، وتركت النسطرة. بعكس القرى الواقعة في شمالها (قرى عشيرة برواري بالا، ونيروة، وريكان)، فإنها لا زالت - حتى كتابة هذه الأسطر - مؤمنة بالعقيدة النسطورية .

وعلى أي حال، فقد كان لبهرام باشا، وابنه إسماعيل، دور كبير في تغيير الخارطة المذهبية لمسيحيي منطقة بهدينان، فإليهما يرجع الفضل في اهتداء قرى: ديري ـ بيبادي ـ قدش ـ بيناتا ـ إنيشكي ـ أرادن ـ تنا ـ داودية ـ هرماش ـ آزخ- دير مارياقو- ديربون- فيشخابور – بيدار- بيرسفى، وغيرها، إلى الكاثوليكية والاتحاد مع روما.

الدومنيكان ومحاولة تنصير المسلمين :

وغني عن القول أن الإرسالية الدومنيكانية كان شغلها الشاغل، في تلك الآونة، هو إدخال النساطرة في المسيحية، أو الإيمان القويم، حسب تعبير كتاب (حوليات الرهبنة الهرمزدية الكلدانية)، في (القوش). ففي معرض الإشارة إلى نشاط رئيس الرهبنة الدومنيكانية، بخصوص إدخال النساطرة في الكثلكة: "في يوم 12تموز1842م جاءنا الأب (انطون مرجان الدومنيكي)، رئيس الرهبنة الدومنيكانية، والأب (يوسف) رسول الكنيسة، قدماً بصحبة مار (يوسف أودو)، وكانوا في طريقهم إلى (قودشانوس) (= مقر مار شمعون في منطقة هكاري)، لإعادتهم إلى الإيمان القويم، وفي طريقهم مروا بقرية (أرادن) (= غرب مدينة العمادية)، إلا أنهم عادوا أدراجهم بسبب خوفهم من إسماعيل باشا (= آخر أمير بهديناني على العمادية)، ومكث الأب انطون لدينا يوماً واحداً، ثم توجه إلى الموصل"[37].

وهناك أمر غريب ورد في حولية الرهبنة لسنة 1856م، حول اعتناق ثلاثة مسلمين للمسيحية طواعية، وأن مركزهم الاجتماعي والديني مرموق: "في اليوم الرابع من شهر آب(1856م)، المصادف يوم الإثنين، قدم إلى الدير (= مارهرمز في جبل القوش) عندنا، الباليوز (= نائب القاصد الرسولي البابوي في الموصل)، ومكث عندنا ثلاثة أيام، ثم ذهب إلى قرية (مارياقو) (= قرية قشفر، الواقعة شمال غربي مدينة دهوك). وأثناء وجوده هناك قصده ثلاثة من المسلمين قادمين من منطقة الجزيرة(= جزيرة بوتان)، اسم الأول (علي آغا)، واسم الثاني (الملا أحمد)، واسم الثالث (الشيخ قاسم)، وثلاثتهم من عشيرة معروفة، وذات شأن، جاء هؤلاء الثلاثة خفية إلى القاصد الرسولي ليعتنقوا المسيحية، فأرسلهم القاصد إلى الدير عندنا سراً، لنقوم بتعليمهم مبادئ الإيمان، فحلوا في الهيكل التحتاني من فناء الكنيسة، وهناك باشرنا بتعليمهم مبادئ الإيمان، وما يلزم من أجل تهيئتهم لتقبل سر العماد، فتعلموا صلاة (أبانا الذي في السموات)، وصلاة (السلام لك يا

مريم)، وقانون الإيمان، ومبادئ أولية مختصرة من التعليم المسيحي. ولقد تمرض أحدهم، واشتد عليه المرض، إلا أنه شفي، ولقد تعب الأخوة كثيراً في خدمتهم. وانتابنا خوف كبير من أن يكشف سرهم، ويصيبنا أذى كبير بسببهم، لأنهم كانوا من الأشخاص المعروفين من قبل أناس كثيرين. وكتبنا رسائل كثيرة إلى البطريرك (= مار يوسف أودو)، وإلى القاصد (= المندوب البابوي لدى الكلدان في الموصل)، من أجل نقلهم من الدير إلى مكان آخر. عندئذ أرسل البطريرك طالباً القيام بتعميد الأشخاص الثلاثة المذكورين داخل الهيكل سراً، وأن يقوم بعملية التعميد الأب (لويس)، النازل عندنا في الدير، فقام الكاهن المذكور بتعميدهم في الهيكل سراً، وقمنا بإرسالهم ليلاً إلى (الموصل)، عند القاصد الرسولي، ليتدبر شأنهم"[38].

وبعدها سكتت الحولية عنهم، وأشارت إلى أمور أخرى تخص حياتهم اليومية، ولكنها في حولية سنة 1857م تطرقت - مرة أخرى - إلى ما جرى لهم، حيث تنكر الجميع لهم، اعتباراً من البطريرك اللاتيني في (القدس)، فضلاً عن المؤسسات الكاثوليكية في (جبل لبنان)؛ ربما بداعي الخوف من الدولة العثمانية. لذلك، تم إعادتهم إلى دير (مار هرمز)، ومن ثم تم إرسالهم إلى (السليمانية)، وهناك انقطعت أخبارهم. ونظراً لأهمية هذا الموضوع، سندرج أدناه ما تبقى من الحولية بشأنهم: "الرجال الإسماعيليون الثلاثة، الذين مكثوا عندنا في الدير فترة شهرين، والذين قمنا بتعليمهم الأمور الإيمانية الضرورية، والذين قمنا بتعميدهم على يد الأب لويس، صديق القاصد الرسولي(= البابوي) (بناديكتوس)، هؤلاء الثلاثة أُرسلوا إلى (جبل لبنان)، من قبل البطريرك والقاصد الرسولي، ومنها إلى أورشليم(=القدس)، لدى البطريرك (واليركا) اللاتيني، إلا أنه رفض قبولهم، كما رفضوا من قبل الجميع في جبل لبنان كلّه؛ لهذا السبب عادوا مرة أخرى إلى ديرنا، ومكثوا عندنا خمسة عشر يوماً، بعدها أرسلناهم إلى القاصد في الموصل، وقام الأب (أوغسطين مركي)، رئيس دير الآباء الدومنيكان في الموصل، الذي قام بتدبير شأنهم، وأرسلهم إلى (السليمانية)"[39]. وهناك انقطعت أخبارهم.

ويبدو أن هؤلاء المنصّرين، من الدومنيكان الفرنسيين، ونظراؤهم مسيحيي الموصل، كانوا وجلين من أن تعلم الدولة العثمانية بما يقومون به من محاولة تنصير المسلمين أنفسهم، لذا كان كل جانب يحاول إرسال هؤلاء المرتدين الثلاثة إلى مكان آخر، بغية تعليمهم وتربيتهم على نهج المسيحية، وفق رواياتهم؛ التي يعوزها الدليل، من جهة أخرى، سيّما وأن هؤلاء الثلاثة كان أحدهم عالم دين، والآخران آغوات، بحسب الرواية. لذا، يجب الحذر في تقبل تلك الرواية، في تلك الحقبة من منتصف القرن التاسع عشر، رغم صدور

بعض الفرمانات من الدولة العثمانية، تحت ضغط الدول الأوروبية، بالمساواة بين المسلمين وغيرهم. ومن جهة أخرى، فإن هذه الرواية تثبت - بما لا يدع مجالاً للشك-، بأن هؤلاء الرهبان، وأسيادهم من الإرساليات الدومنيكية، والكرملية، والكبوشية، واليسوعية، كانوا – ولا زالوا - ينفذون مخططات عجيبة غريبة ضد أبناء وطنهم المسلمين!

وكان الكاتب الآشوري الشهير (هرمز أبونا) قد شن حملة شديدة على الإرساليات الكاثوليكية، التي أرسلتها (باباوات روما)، بقصد تمزيق الشعب الآشوري إلى عدة أقسام، تمهيداً لاحتوائه. فهو يقول بهذا الصدد ما نصه: "كان ذلك التقوقع الطائفي، المبني على الخلافات المذهبية، التي كانت قد باعدت بين أبناء شعب وأمة واحدة. والحالة التي كانت قائمة بين الآشوريين (= النسطوريين)، من أتباع الكنيسة الشرقية، وإخوانهم أبناء الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، على سبيل المثال، كانت نموذجاً لذلك. أو ما آلت إليه حالة الانقسام المأساوية في الكنيسة الشرقية ذاتها، حين انقسمت إلى فرعين (نسطوريين)، منذ أواخر القرن السادس عشر. فأصبح لها خطين بطريركيين، يتمثلان بالخط البطريركي المنحدر من (مار أدي) و(مار ماري)، والذي استقر به المطاف في دير (الربان هرمزد)، بالقرب من (القوش). والخط المنشق المعروف بخط (البطاركة الشمعونيين)، والذي أول سلسلته تنحدر من المحاولة الأولى لروما سنة 1551م، لخلق خط كاثوليكي، يتبعها من بين مؤمني الكنيسة الشرقية، والذي استمر من (سنة 1553 إلى سنة 1579م)، ودخل التاريخ باسم خط (مار يوحنا سولاقا)، الذي استهل نشاطه في (آمد) (=دياربكر)، وانتهى المطاف بثالث بطاركته، وآخرهم في (سعرت) (= سيرت). أما رابعهم (مار شمعون دنخا)، الذي عاد خلفاؤه إلى عقيدة الكنيسة الشرقية، وأمانها، ولكن بفرع مستقل - حسب تقويم البطاركة الشمعونيين- إذ أصبح يعرف بخط (مار شمعون)، والذي كانت مدينة (أورميه) أول مقر له. ثم تنقل من مكان لآخر، ليستقر المقام به أخيراً في قرية (قودجانس)، في هكاري. ومنذ سنة 1580م أصبحت أبرشيات الكنيسة الشرقية، موزعة بين البطريركيتين النسطوريتين: السهلية، والجبلية، لحين بروز خط بطريركي ثالث في سنة 1681م، وهو خط البطاركة اليوسفيين في (آمد- دياربكر)، الخاضع لـ(روما)، والذي حتى اختفائه النهائي سنة 1828م لم يتجاوز في انتشاره، وحدوده الجغرافية، مدن (آمد) و(ماردين) .

ومنذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر أصبح الخط السهلي - وبحكم موقعه الجغرافي- هدفاً سهلاً للحملة الكاثوليكية التي اشتدت إبان الانحطاط العثماني، وهيمنة فرنسا وبريطانيا على مقدرات وسياسة الدولة العثمانية. وكان قدر الشعب الآشوري (= النساطرة - الآثوريين)، وكنيسته، أن يتعرض هذا الخط البطريركي إلى عملية إخضاعه،

والسيطرة عليه، من قبل البعثات التبشيرية الكاثوليكية العاملة في السهول (= الدومنيكان والكبوشيون)، وبدعم مباشر من فرنسا، والعثمانيين"[40].

بعدها يتطرق الكاتب الآشوري إلى النتائج التي تمخضت عنها هذه الحملة العنيفة من الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية المدعومة من فرنسا، وبتواطؤ عثماني، حيث اختفى الخط البطريركي المار شمعوني(= النساطرة) من السهول (= سهل نينوى) كلياً: "ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، اختفى هذا الخط البطريركي للكنيسة الشرقية من السهول، وحلت محله المجموعة التي شكلت منها (روما) (الكنيسة الكلدانية)، التي أصبحت تجاور - جغرافياً - أختها الكنيسة الشرقية (النسطورية) - خط مار شمعون-، سواءً في المناطق الواقعة إلى الجنوب من وطن القبائل المستقلة، حيث الكثافة الكلدانية (= العمادية والزيبار وعقرة)، أو التجمعات المتفرقة التي كانت تتبع الكنيسة الكلدانية، في المناطق الواقعة إلى الغرب من وطن هذه القبائل، في منطقة الجزيرة، والمناطق الواقعة في الأجزاء الشمالية لبلاد ما بين النهرين (= زاخو، ودهوك، وسهل نينوى)، أو أولئك المنتشرين بين التجمعات الآشورية .

وبهذا يظهر لنا بأن الإرساليات البابوية الكاثوليكية كان لها دور كبير في إضعاف أتباع كنيسة المشرق، والكنيسة السريانية الأرثوذكسية، بتحويل غالبية أتباعهما إلى الكثلكة، عن طريق الإرساليات البابوية، وعن طريق رعاة الكنيسة الكلدانية، فيما يخص النساطرة – أتباع كنيسة المشرق- وكنيسة السريان الكاثوليك، فيما يخص أتباع الكنيسة السريانية الأرثوذكسية القديمة. وحتى بالنسبة للأرمن، فإنهم استطاعوا اقتطاع قسم منهم تحت مسمى (كنيسة الأرمن الكاثوليك)❐

المصادر والمراجع والهوامش:

1- أدي شير، تاريخ كلدو وآشور، بيروت، 1913،ج 2، ص2 ؛ فرست مرعي، تاريخ اليهودية والمسيحية في كوردستان، دار ئاراس، أربيل، 2008م، ص61.

2- فرست مرعي، تاريخ التبشير المسيحي في كوردستان، السليمانية، أكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر، 2011م، ص6.

3- سلوى بالحاج صالح العايب، المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري، بيروت، دار الطليعة، 1997م، ص27.

4- لمزيد من المعلومات، ينظر: فرست مرعي، بارزان في المصادر التاريخية، جامعة زاخو، مركز الدراسات الكوردية، 2019م، ص...

5- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود وزميله، 2013م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، مج3، ص3921.

6- فرست مرعي، محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية، صنعاء، دار منتدى الكتاب، ص17.

7- القمص ميخائيل جريس ميخائيل، تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية - مذكرات في تاريخ الكنيسة المسيحية البدع والهرطقات، الأبيونية.

8- صحيفة البيان الإماراتية، الفرق والمذاهب المسيحية، في 28 رجب 1442هـ 12مارس 2021م.

9- ميشال عون، البدعة الأريوسية، المجلة الكهنوتية المارونية، السنة السادسة والعشرون، العدد الأول، كانون الثاني 1996، بيروت - لبنان، ص.7.

10- فؤاد يوسف قزانجي، أصول الثقافة السريانية في بلاد ما بين النهرين، عمان - الأردن. دار دجلة، ص 117.

11- عبد القادر أحمد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، مطابع مؤسسة دار الكتب للنشر في جامعة الموصل، (د.ت)، ص 245 .

12- الالبجنسيين: فرقة مسيحية زاوجت في إنكارها بين المسيحية والمانوية، لذلك اعتمدت على الزهد والتقشف كمنهج لحياة أنصارها، حوربت هذه الفرقة بشدة وقسوة متناهية من قبل باباوات روما .

13- عبد القادر أحمد اليوسف: المرجع السابق، ص247، 250 – 251 .

14- الأب سليم دكاش: المسيحية عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الثانية 2000م، ص689 – 690 .

15- الأب سليم دكاش: المرجع السابق، ص690 نقلاً عن برنار هيبرجيه.

16- الكرمليون: وهم رهبان كاثوليك، نشأت طائفتهم في أول الأمر على جبل الكرمل في فلسطين، ثم نزحوا إلى قبرص عام 1238، ومنها إلى أوروبا. ينظر: غسان دمشقية: لاهوت التحرير، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق الطبقة الأولى 1990، ص 188.

17- الأوغسطينيون: إحدى الرهبانيات الكاثوليكية مؤسسها القديس أوغسطين، سافر أتباعه إلى الهند الشرقية في 18 آذار 1578م، وكانوا في مضيق هرمز منذ سنة 1576م، ومن هناك توغلوا في إيران في عهد الشاه عباس الأول، وقد أحسن إليهم هذا الشاه الصفوي. ينظر: اوجين تسران: خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية، نقلها إلى العربية: القس سليمان صائغ، الموصل 1939، ص176.

18- الفرنسيسكان: وهم أتباع القديس فرنسيس، ينقسمون إلى ثلاث طوائف، وهم: الرهبان الصغار، وهم أكبر الطوائف، والكبوشيون والديريون، تمسك الفرنسيسكان منذ البداية بحياة الفقر المدقع، ولم يسمحوا لأنفسهم بامتلاك شيء مطلقاً، كانت لهم في القرون الوسطى حركة علمية مرموقة. ينظر: غسان دمشقية، دار الأهالي، دمشق،1990م، ص183.

19- اللعازريون: رهبانية فرنسية مؤسسها (أوجين بوره)، جاء بمهمة إلى إيران من قبل مديرية معارف فرنسا والمجمع العلمي للخطوط والآداب. ينظر: أوجين تسران: خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية، ص 182 – 183.

20- الأب البير أبونا: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ج3، ص 230.

21- عماد عبد السلام رؤوف: الموصل في العهد العثماني، مطبعة الآداب – النجف، 1395هـ - 1975م، ص 327 .

22- المطران عمانويل دلي: مبادرات الاتحاد بين بطاركة بابل وروما في القرن السابع عشر، القسم الخامس، مجلة نجم المشرق، العدد 27 في 2001م، ص 349 – 350 .

23- المطران عمانوئيل دلي: مبادرات الاتحاد بين بطاركة بابل وروما في القرن السابع عشر القسم السادس، مجلة نجم المشرق، العدد 28 في 2001، ص486 – 493 .

24- يوسف حبي: التراث الكوردي في مؤلفات الإيطاليين: مجلة المجمع العلمي العراقي الهيئة الكوردية، المجلد الثامن، 1981، ص239 .

25- م. ابراهيم: الدومنيكيون – نشأتهم – إرساليتهم ودورهم الإنساني والثقافي والعلمي في البلاد، مجلة الصوت الكلداني، العدد 4، 1999، ص 45 – 46 .

26- الأب بطرس نصري الكلداني: كتاب ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة والسريان، دير الآباء الدومنيكان، الموصل 1913، ج2، ص 356 – 357 .

27- الكاردينال اوجين تيسران: خلاصة تاريخية للكنيسة الكلدانية، نقلها إلى العربية القس سليمان الصائغ. الموصل 1939، ص 178 – 179.

28- بطرس نصري: ذخيرة الأذهان، ج2 ص 357.

29- م. إبراهيم: الدومنيكيون، ص46.

30- بطرس نصري: ذخيرة الأذهان، ج2 ص 391 .

31- بطرس نصري: المرجع السابق، ج2، ص 390 – 391.

32- الصحيح: قرية هيران، التي هي الآن مركز ناحية هيران التابعة لقضاء شقلاوة، وجل سكانها كورد مسلمون. ينظر: السيرة الذاتية للبطريرك يوحنا هرمزد، عرّبها وحققها: الأب الدكتور بطرس حداد، مجلة بين النهرين، العدد 34-35، 1981م، ص251.

33- السيرة الذاتية للبطريرك يوحنا هرمزد: عربها وحققها: بطرس حداد، مجلة بين النهرين، الموصل، العدد 34-35، 1981، ص251.

34- خلاصة تاريخ الكنيسة الكلدانية، https://saint-adday.com/

35- موفق نيسكو، مسيحيو العراق والرحَّالة كارستن نيبور، https://www.ahewar.org

36- عماد عبد السلام: الموصل في العهد العثماني: ص163 – 167، بطرس نصري: ذخيرة الأذهان، ج2، ص 390.

37- حوليات الرهبنة الهرمزدية الكلدانية، ترجمة وتحقيق بنيامين حداد الموصل، منشورات مركز جبرائيل دنبو الثقافي،2008، ص 203.

38- حوليات الرهبنة الهرمزدية الكلدانية، ص 282-283.

39- المرجع نفسه، ص 286 – 287.

40- هرمز أبونا: الآشوريون بعد سقوط نينوى - القبائل الآشورية المستقلة، الولايات المتحدة الأمريكية، الينوي- شيكاغو، 2005، ج5، ص 189-190.

دعوة بديع الزمان سعيد النورسي إلى الوحدة الإسلامية

د. دحام إبراهيم الهسنياني

من أهداف الداعين إلى الإسلام والعاملين له: الاتحاد والألفة، واجتماع القلوب، والتئام الصفوف، والبعد عن الاختلاف والفرقة، وكل ما يمزق الجماعة أو يفرق الكلمة، من العداوة الظاهرة، أو البغضاء الباطنة، ويؤدي إلى فساد ذات البين، مما يوهن دين الأمة ودنياها جميعاً. فلا يوجد دين دعا إلى الأخوة، التي تتجسد في الإتحاد والتضامن، والتساند والتآلف، والتعاون والتكاتف، وحذر من التفرق والاختلاف والتعادي، مثل الإسلام؛ في قرآنه وسنته.

وأخبرنا الله – سبحانه - بأن المسلمين إذا لم يتوحدوا فسوف يضعفوا وتضيع قوتهم: {**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**}[127].

فهذه الآية الكريمة تبين أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت المسلمين محرومين من القوة اللازمة في العالم اليوم: وهي عدم الانضواء تحت لواء الوحدة.. فلو أن جميع المسلمين توحدوا؛ لمكّنهم الله – سبحانه - من تحقيق النجاح في كثير من المجالات، مثل

(127) سورة الأنفال، الآية: 46.

تحقيق النهضة في البلاد الإسلامية، وتحقيق الإعمار والإنشاء، ومد يد العون والمساعدة للمظلومين من المسلمين، والنضال الفكري المطلوب لحمايتهم والدفاع عنهم، وتبليغ الأخلاق الإسلامية، والتبشير بها، في كافة أنحاء العالم، على أحسن وجه، وتسجيل عدد من النجاحات النافعة للإنسانية كافة، في المجالات العلمية والصناعية والثقافية. وبعبارة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي فإن أكبر خطر على العالم الإسلامي هو: "الجهل والفقر والاختلاف، ويمكن الانتصار على هذه الأخطار الثلاثة بواسطة الصناعة والمعرفة والوحدة"[128].

صدى دعوة النورسي:

دعوة الإمام النورسي إلى الوحدة والاتحاد لقيتْ من النجاح والتجاوب ما جعلها تتخطى الحواجزَ الضخمة، والسدودَ المنيعة، فقد مستْ شغاف القلوب، وحرَّكتِ المشاعر، وترددتْ أصداؤها في الخافقين، وسار ذِكرُها العاطر في المشارق والمغارب، فإذا الأمة الإسلامية تصحو على حقيقة وجودها، التي كانت الدعاوى الزائفة تحاول حجْبها، وإذا بها تدرك أنها قد جانبتْ رسالتها، أو كادت، في حقب مضتْ، وقد آن لها أن تعود لتؤدي دورها، وتقوم بواجبها.

كبرى المشاريع التي دعا إليها الإمام النورسي لتوحيد المسلمين

أولاً: الاتحاد الإسلامي:

في بداية الصحوة الإسلامية في العصر الحديث، وظهور بوادر البعث والنهضة الفكرية في العالم الإسلامي، كانت قضية الاختلاف هذه محل عناية عند المصلحين ورجالات الفكر الإسلامي المعاصر، لأنهم أدركوا أنها من معوقات الفكر الإسلامي.

ومع بداية القرن العشرين الميلادي تنبه الإمام بديع الزمان النورسي - رحمه الله - لهذه المسألة، فوقف عندها ناظراً متأملاً فاحصاً، على عادته - رحمه الله - في تأملاته ونظراته العميقة في حقائق الأشياء، وهو من الذين كانوا يدعون إلى الوحدة والائتلاف، والبعد عن التفرق والاختلاف، وتناول فكرة الوحدة والاتحاد الإسلامي بصورة واضحة في كثير من مؤلفاته، ووقف عليها طويلاً. وقد اهتم بغاية وحدة المسلمين، واتحادهم، إلى درجة فائقة من الأهمية، حتى بيّن في مقالته المكتوبة تحت عنوان (صدى الحقيقة)،

(128) ديوان حربي عرفي: 15.

المؤرخة بـ(27 مارت 1909)، هذا الفكر الآتي بعينه: "لا رياء في الفرض، وأكبر فريضة في هذا العصر هي الاتحاد الإسلامي".

وقد صرّح، في أكثر من موضع وبأسلوب صريح، إنّ من أهم غايات ومقاصد رسائل النور العمل على توحيد كلمة المؤمنين، ولمّ شملهم، لخدمة هدف واحد، مؤدّاه خدمة الإيمان نفسه، وطريقُهُ التأسيس العملي للوحدة الشعورية بين المؤمنين أنفسهم؛ فلا يصح أن يبقى المؤمنون مشتتين في أهدافهم وجهودهم. يقول رحمه الله: "الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي، وأحد منابع العزة الإسلامية"[129].

فالاتحاد يقوّي الضعفاء، ويزيد الأقوياء قوّة على قوتهم، فاللبنة وحدها ضعيفة مهما تكن متانتها، وآلاف اللبنات المتفرقة والمتناثرة ضعيفة بتناثرها، وإن بلغت الملايين، ولكنها في الجدار قوة لا يسهل تحطيمها، لأنها باتحادها مع اللبنات الأخرى، في تماسك نظام، أصبحت قوة، أيُّ قوة. ويرى الإمام النورسي -رحمه الله- بأن النزاعات والاشتباكات العرقية، والألسنية، عاملان أساسيان في تشتيت شمل الأمة الإسلامية، لا على النطاق العالمي فحسب، بل وحتى على المستوى الوطني. وإن اتحاد الأمة على أساس الإسلام، هو الدواء الذي يصفه النورسي لداء التفرقة. يقول - رحمه الله-: "لقد آن أوان الاتحاد الإسلامي، وهو على وشك أن يتحقق، وعليه ينبغي أن تصرفوا النظر عن تقصيراتكم الشخصية، وليتجاوز كل عن الآخر"[130].

والحقيقة أن الدولة العثمانية كانت أمل جميع مسلمي العالم. وقد كان بديع الزمان سعيد النورسي يشعر بهذا الوضع، ككثير من المثقفين المسلمين في تلك المرحلة. وعندما حوكم في ديوان الحرب بعد حادثة 31 آذار، يذكر في مدافعته أسماء الشخصيات التي قبلها سلفاً في موضوع وحدة الإسلام، ويقول:

"لقد بايعت السلطان سليم، وقبلت فكره في (الاتحاد الإسلامي)، لان ذلك الفكر هو الذي أيقظ الولايات الشرقية، فهم قد بايعوه على ذلك. فالشرقيون الآن هم أولئك لم يتغيروا. فأسلافي في هذه المسألة هم: الشيخ جمال الدين الأفغاني، ومفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده. ومن العلماء الأعلام علي سعاوي، والعالم تحسين، والشاعر نامق كمال، الذي دعا إلى (الاتحاد الإسلامي)، والسلطان سليم، الذي قال: "إن مغبة الاختلاف والتفرقة يقلقاني حتى في قبري، فسلاحنا في دفع صولة الأعداء إنما هو الاتحاد، إن لم تتحد الأمة فإنّي

(129) اللمعات: 229.

(130) صيقل الإسلام، (الخطبة الشامية): 512.

أتحـرّق أسى". ويقـول: "أوجـب الفـرائض في هـذا الوقـت هـو اتحـاد الإسـلام (الوحـدة الإسلامية)"[131].

ليس غريبًا أن تكون الجامعة الإسلامية هي أمنية كل مسلم؛ بـل إن الغرابـة تكمـن في أن تكون هـذه الجامعـةُ لم تخـرج إلى حيـز الوجـود في هـذا العصـر، وأن يسـتعاض عنهـا بأسماء وشعارات لا تسمن ولا تغني من جوع؛ بل إنها شـعارات شـتَّتَتِ الجمـع، وقطعـت الأواصـر بانعزالها وإقليميتها الضيقة، وقوميتها التي تشـعر الآخـرين بانفصـالها وانطوائهـا على نفسها.

والجامعة الإسلامية يدعو لها الدين، وتفرضها الأخوةُ الإسلامية والروابط الدينية، وفيهـا قوة هائلة لستمائة مليون نسمة ينضوون تحت لواء التوحيد، ويتعاونون لما فيـه كـرامتُهم وعزتهم، وتجمعهم جامعةٌ يلتقون فيها، ويتفاهمون في إطارها، ويكمـل بعضـهم بعضًـا في كل النواحي، سواء أكانت اقتصادية، أم ثقافية، أم سياسية، أم عسـكرية، في رقعـة فسـيحة من الأرض.

وإذا كانت الجامعة الإسلامية يفرضها الدين، فإن الحاجة ملحَّة تدعو إليها؛ لتتبوأ الأمـة مكانًا لائقًا، ولترفع رأسها شامخًا لا يعرف الخضوع والذلَّ إلا للـه رب العـالمين، إلـه الكـون، ومدبر الخليقة. وهذا ما كان يدعو إليه الإمام بديع الزمان النورسي - رحمه الله-.

ويقول الإمام النورسي، مبيّناً مبادئ الاتحاد الإسلامي: "الاتحاد الإسـلامي مجلـس نـوراني ممتد من الشـرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال. وقد دخلنا ذلـك المجمـع بالإيمـان، الذي هو يميننا وعهدنا بالميثاق الأزلي، فنحن أهل توحيد مأمورون بالاتحاد"[132].

ثانياً: إنشاء جامعة الزهراء:

اهتم النورسي بمتابعـة أحـوال العـالم الإسـلامي، مـن خـلال الاطـلاع عـلى مـا ينشـر في الصحف اليومية، والمطبوعات الأخرى.

وأثناء إقامته في (وان) قرأ خبراً مثيراً، نقلته إحدى الصحف المحلية عـن خطـاب لـوزير المستعمرات البريطانية (ولـيم غلادسـتون)[133]، في مجلـس العمـوم البريطـاني، حيـث كـان يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم قائلاً: "مـا دام هـذا القـرآن بيـد المسـلمين

(131) صيقل الإسلام، (الخطبة الشامية): 529.

(132) المصدر السابق.

(133) وليم غلادستون (1809 - 1898م): زعيم حزب الأحرار في انجلترا، تقلد مناصب وزارية متعددة، تعمق في الدراسات الدينية، وله عدة مؤلفات).(انظر: الموسوعة العربية الميسرة: 635 ـ 636).

فلن نستطيع أن نحكمهم، فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به"[134].

هزّ هذا الخبر كيان النورسي هزاً عنيفاً، وأدرك بذكائه واطلاعه أن العالم الإسلامي يتعرض لهجوم غربي جديد، يستهدف إخضاع المسلمين، وتقويض عقيدتهم؛ وهذا ما جعله يقرر تسخير حياته لإظهار إعجاز القرآن الكريم، وربط المسلمين بتعاليمه، ووعد قائلاً: "لأبرهنن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"[135].

ولإنجاز وعده، فكر في إنشاء جامعة إسلامية في كوردستان، تحت اسم (**مدرسة الزهراء**)[136]، تكون مركزاً لخدمة القرآن الكريم، على غرار (الجامع الأزهر) بمصر، وفق نظام حديث، تجمع في التدريس بين العلوم القرآنية والعلوم الحديثة، حتى تخرّج شباباً مثقفاً ثقافة أصيلة، مستوعباً لما استجد من العلوم، فيسهم حينئذ في نشر حقائق الإسلام، والدفاع عنها..

ومن أجل تحقيق هذا المشروع، شد النورسي الرحال إلى (استانبول)، وهو لم يتجاوز بعد الثالثة والعشرين من عمره، ومكث هناك سنة ونصف سنة، محاولاً إقناع المسؤولين بمشروعه، غير أنه لم يفلح في مسعاه؛ فرجع إلى (وان)[137].

وفي سنة (1907م) - أي بعد إحدى عشرة سنة - عاد إلى (استانبول)، وأقام في (خان الشكرجي)[138]، في منطقة (فاتح)، حيث كان ملتقى كثير من المفكرين والأدباء، أمثال الشاعر المشهور: (محمد عاكف)[139]، فعرض عليهم فكرته، فاستحسنوها، ودارت بينهم مناقشات علمية متنوعة، برهنت على نبوغه وتفوقه.

(134) إحسان قاسم: بديع الزمان: 25.

(135) المصدر السابق.

(136) المدرسة هنا بمعنى: الجامعة.

(137) المرجع السابق.

(138) الخان: الفنادق التي كانت توجد سابقاً في المدن، أو على الطرقات الخارجية.

(139) محمد عاكف (1873 ـ 1936م): من أبلغ شعراء الترك، أصبح عضواً في دار الحكمة الإسلامية، جمع بين الثقافة العلمية واللغوية والدينية. اشتهر بديوانه، ونشيد الاستقلال. (انظر: المرجع السابق: 26).

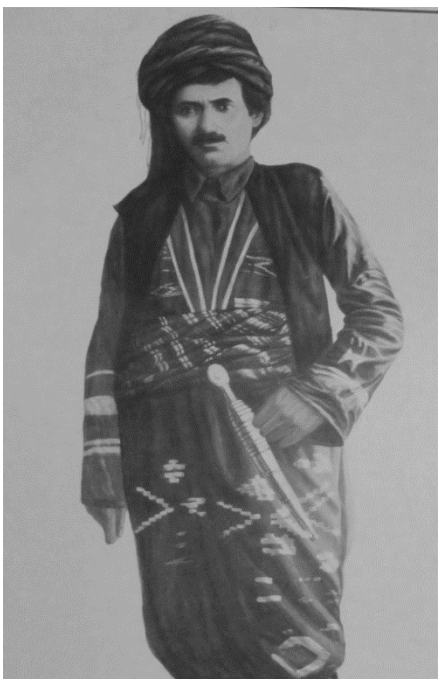

وأثناء إقامته في هذا الخان، علّق لوحة على باب غرفته، كتب عليها: (هنا تُحل كل معضلة، ويجاب عن كل سؤال، من دون توجيه سؤال لأحد)، فأثار هذا الإعلان فضول الناس، فقدموا عليه طلاباً وعلماء مصدقين ومكذبين، غير أن جميعهم خرجوا من عنده بانطباع واحد مفاده أن هذا الشخص عالم غريب لم يروا له نظيراً من قبل[140].

ويشرح انتعاش فكرة مدرسة الزهراء عنده، في رسالة أرسلها إلى (جلال بايار)، و(عدنان منديريس)، بيّن فيها أضرار العنصرية، وفوائد الأخوة الإسلامية، على الشكل التالي:

"قبل خمس وستين سنة أردت الذهاب إلى الجامع الأزهر، باعتباره مدرسة العالم الإسلامي، لأنهل فيه العلوم. ولكن لم يُكتب لي نصيب فيه، فهداني الله إلى فكرة، وهي: إن الجامع الأزهر مدرسة عامة في قارة أفريقيا، فمن الضروري إنشاء جامعة في آسيا على غراره، بل أوسع منه، بنسبة سعة آسيا على أفريقيا. وذلك لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية، والهند، وإيران، والقفقاس، وتركستان، وكوردستان، وذلك لأجل إنماء الروح الإسلامية، التي هي القومية الحقيقية الصائبة السامية الشاملة، فتنال شرف الامتثال بالدستور القرآني: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}**، وكذلك لتتصافح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين، وتتصالح الحضارة الأوروبية مع حقائق السلام مصالحة تامة، ولتتفق المدارس الحديثة وتتعاون مع المدارس الشرعية في الأناضول"[141].

(140) انظر: مصطفى زكي العاشور، بديع الزمان، نظرة عامة عن حياته وآثاره: 25 - حيث يروي شهادة (حسن فهمي أوغلو) (الذي أصبح فيما بعد عضواً في هيئة الاستشارة الدينية)، وفيها يبين ما حدث له مع النورسي، عندما زاره لأول مرة في الخان، بغرض الوقوف على حقيقة ما سمعه عنه.

(141) الملاحق، أميرداغ: 416/2.

والخلاصة: إن الإسلام لو تجسّم لكان قصراً مشيداً نورانياً، ينوّر الأرض ويبهجها. فأحد منازله مدرسة حديثة، وإحدى حجراته مدرسة دينية، وإحدى زواياه تكية، ورواقه مجمع الكل، ومجلس الشورى، يكمل البعض نقص الآخر[142].

"لذا بذلتُ جهدي كله لتأسيس هذه الجامعة في مركز الولايات الشرقية، التي هي وسط بين الهند والبلاد العربية وإيران والقفقاس وتركستان وكوردستان، وسمّيتها: (مدرسة الزهراء). فهي مدرسة حديثة، ومدرسة شرعية، في الوقت نفسه. فمثلما بذلت جهدي في سبيل إنشاء هذه الجامعة، بذلته في سبيل نشر رسائل النور... "[143].

الأسباب الموجبة لتأسيس مدرسة الزهراء:

1. تدني العلوم في المدارس الدينية:

إن كثيراً جداً من الناس يمضي بميل السيادة، والآمرية، والتفوق على الآخرين، فيجعل العلم المشوّق المرشد الناصح اللطيف، وسيلة قسر وإكراه لاستبداده وتفوقه، فبدلاً من أن يخدم العلم يستخدمه. وعلى هذا، فقد دخلت الوظائف بيد من ليسوا لها أهلاً، ولا سيما الوظائف في المدارس الدينية، فآلت إلى الاندراس نتيجة هذا الأمر. والعلاج الوحيد لهذا: تنظيم المدرسين، الذين هم في حكم العاملين في دائرة واحدة، في دوائر كثيرة، كما هو الحال في الجامعة، كلٌ في مجال اختصاصه، ليذهب كل واحدٍ بسوق إنسانيته، وبتوجهه نحو حقّه، ينفّذ قاعدة تقسيم الأعمال بميله الفطري، امتثالاً للأمر المعنوي للحكمة الأزلية[144].

2. إصلاح الولايات الشرقية، وتطوير المنطقة الكوردية:

يقول الإمام النورسي: "كنت ألمس الوضع الرديء لما كان يعيشه أهالي الولايات الشرقية، فأدركت أن سعادتنا الدنيوية ستحصل - من جهة - بالعلوم الحديثة الحاضرة، وأن أحد الروافد غير الآسنة لتلك العلوم سيكون العلماء، والمنبع الآخر سيكون حتماً المدارس الدينية، كي يأنس علماء الدين بالعلوم الحديثة. وحيث إن زمام الأمر في تلك

(142) صيقل الإسلام، (المناظرات): 430.
(143) الملاحق، (أمير داغ): 416/2.
(144) صيقل الإسلام، (المحاكمات)

البقاع، التي أغلبيتها الساحقة أُميون، بيد علماء الدين، فهذا الشعور هو الـذي دفعنـي إلى المجيء إلى (استانبول)، ظناً مني أن نلقى السعادة في دار السعادة في ذلك الوقت"[145].

فقدم إلى السلطان عبد الحميـد العريضـة الآتيـة، لضــرورة إنشـاء مدرسـة الزهـراء في الولايات الشـرقية: "على الرغم من أن الحكومة على علم بأحوال أهـالي كوردسـتان، الـذين يمثلون عنصـراً مهـماً في الأمـة العثمانيـة، فـاني أرجـو السـماح لي بتقـديم بعـض المطاليـب الخاصة بالخدمة العلمية السامية.

إن في هذا العالم، عالم الرقي والحضارة، ينظر بعين الشكر والتقدير إلى أوامـر الحكومـة بإنشاء مدارس في قصبات كوردستان وقراها، أسوة بالأخوة الآخرين، وبجنب ما تنجزه مـن خـدمات في مرافـق أخـرى. إلاّ أن مـدى الاسـتفادة مـن هـذه المـدارس ينحصــر في الـذين يعرفون اللغة التركية، بينما يحـرم الأكـراد مـن العلـوم والمعـارف، لعـدم معـرفتهم باللغـة التركية، ولعدم معرفة معلميهم باللغة المحلية، لـذا لا يجـدون أمـامهم سـوى الانخـراط في المدارس الدينية طريقـاً للمعرفـة، مـما يسـبب شـماتة الغـرب لتفشــي الجهـل، وحـدوث الاضطرابات، وانتشار الشبهات والأوهام فيما بينهم. وهذا ما يدعو أهل الغيرة والحمية إلى التأمل، حيث الأكراد قد ظلوا في أماكنهم، بينما استفاد من هم أوطأ منهم مـن كـل جهـة، منذ القدم، من توقفهم هذا.

فهذه النقاط الثلاث تقض مضجع أهـل البصـيرة، لأنهـا تمهّـد لضــربة عنيفـة توجّـه إلى الأكراد في المستقبل. وعلاج هذا النقص هو قيـام الحكومـة بفـتح ثـلاث مـدارس نموذجيـة للتعليم، في مواقع مختلفة من كوردستان.

إحداها: في (بيت الشباب)، التي هي مركز عشائر الأرتوشي.

ثانيتها: وسط (موتقان)، و(بلقان)، و(ساسون).

ثالثتها: في (وان)، التي تمثل وسط (حيدران) و(سبكان).

وتدرس في هذه المدارس العلوم الدينية مع العلوم الحديثة الضــرورية، ولـيكن في كـل مدرسة خمسون طالباً - في الأقل - تتكفل الحكومة بمعاشهم.

ومن الأسباب المهمة لحياة كوردستان - المادية والمعنوية - مسـتقبلاً، هـو إحيـاء بعـض المدارس. ويتم بإرساء أسس المعارف في هذه المنطقة، فتتقـرر وحـدة الأمـة عليهـا، وتسـلّم قوتها العظيمة - التي تضيع نتيجة الاختلافات الداخلية - إلى الحكومة، لتوجيههـا لمقاومـة

(145) صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية.

الأعداء في الخارج. وبهذا يتيسر لأهل المنطقة السبيل لإظهار جوهر فطرتهم، واستعدادهم لتقبل المدنية، واستحقاقهم العدل"[146].

3. المؤامرة الخبيثة على القرآن:

قبل خمسة وستين عاماً أخبرني والٍ من الولاة أنه قرأ في الصحف بأن وزير المستعمرات البريطاني خطب، وبيده نسخة من المصحف الشريف، قائلاً: إننا لا نستطيع أن نحكم المسلمين ما دام هذا الكتاب بيدهم، فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به.

وهكذا دأبت المنظمات المفسدة الرهيبة على تحقيق هاتين الخطتين: إسقاط شأن القرآن الكريم من أعين الناس، وفصلهم عنه. فسعوا في هذا المضمار، سعياً حثيثاً، للإضرار بهذه الأمة المنكوبة البريئة المضحية.

وقد قررتُ قبل خمس وستين سنة أن أجابه هذه المؤامرات الخطرة، مستمداً القوّة من القرآن العظيم، فألهمني قلبي طريقاً قصيراً إلى الحقيقة، وإنشاء جامعة ضخمة. فمنذئذ نسعى لإنقاذ آخرتنا.

وإحدى ثمراتها - أيضاً - إنقاذ حياتنا الدنيوية من الاستبداد المطلق، والنجاة من مهالك الضلالة.

4. دفعاً للنعرات القومية، وإقراراً للسلام في المنطقة:

لقد ظهرت أضرار النعرة القومية، والعنصرية، في عهد الأمويين، كما فرّقت الناس شرّ فرقة في بداية عهد الحرية وإعلان الدستور، حيث تأسست النوادي والتكتلات، كما استغلت إثارة النعرة القومية مجدداً للتفريق بين الأخوة العرب النجباء، وبين الأتراك المجاهدين، فعّم الاضطراب، وسُلبت راحة الناس.

علماً أن الإضرار بالناس بأعمال سلبية، هو فطرة القومية والعنصرية، التي فطروا عليها. والأتراك مسلمون في أنحاء العالم كافة، فقوميتهم مزجت بالإسلام، لا يمكن فصلهم عنه. فالتركي يعني المسلم. حتى أن غير المسلم منهم لا يكون تركياً. وكذلك العرب، فإن قوميتهم مزجت بالإسلام أيضاً، وينبغي هكذا. فقوميتهم الحقيقية هي الإسلام، وهو حسبهم. ألا إن العنصرية، ودعوى القومية، خطر عظيم[147].

وقد أجاب (سعيد القديم) الذين اعترضوا من النواب بالآتي:

---

(146) عن جريدة الشرق وكردستان، 19 تشرين الثاني 1908.

(147) الملاحق، أميرداغ: 2/417-419 .

لنفرض فرضاً محالاً أنكم لستم بحاجة إلى ذلك، ولكن ظهور أكثر الأنبياء في (آسيا)، والشرق، وظهور أكثر الحكماء والفلاسفة في الغرب، يدل على أن الذي يدفع آسيا إلى الرقي الحقيقي هو الشعور الديني أكثر من العلوم والفلسفة. فإن لم تأخذوا بهذا القانون الفطري، وأهملتم الأعراف الإسلامية، بحجة التغرّب، وأسستم الدولة على الإلحاد، فأنتم مضطرون أيضاً إلى الانحياز إلى الإسلام - لصالح الوطن والأمة - إقراراً للسلام في الولايات الشرقية الواقعة بين أربع دول كبرى[148].

5. وفاة المدارس الدينية:

إنه بوفاة (مدرسة خورخور)، التي هي تحت قلعة (وان) الصلدة، والتي هي مدرسة ابتدائية لمدرسة الزهراء، وغلق المدارس الشرعية في الأناضول كافة، الدال على وفاتها، توفت جميع المدارس، وكأن (قلعة وان) صارت شاهداً لقبرها العظيم. فيا أيها المقبلون بعد ثلاثمائة سنة، ازرعوا على قمة هذه القلعة زهرة مدرسة نورية[149].

ثالثاً: إنشاء مجلس تشاوري علمي، لإحياء الاجتهاد الجماعي في العصر الحاضر:

نتيجة لكثرة الحوادث والنوازل المستجدة، وحاجة المجتمعات الإسلامية إلى إيجاد أجوبة شرعية لها، نشأت فكرة إحياء الاجتهاد الجماعي، وذلك عن طريق إنشاء مجامع فقهية تضم نخبة من فقهاء العصر في مختلف البلاد الإسلامية، للنظر في الحوادث والمستجدات، وإعطاء الحلول المناسبة لها في ضوء الشريعة.

وقد دعا عدد من علماء القرن الرابع عشر الهجري إلى تشكيل مجامع ومجالس لممارسة الاجتهاد الجماعي.

ومن أوائل العلماء المنادين بذلك بديع الزمان سعيد النورسي، الذي عايش فترة انهيار الدولة العثمانية، فقد دعا إلى ضرورة إنشاء مجلس شورى للاجتهاد، يتحاور فيه أهل العلم للوصول إلى الحكم المراد لله.

قال بديع الزمان النورسي: "نجد أن المشيخة قد أُوْدِعَت إلى اجتهاد شخص واحد، في وقت تعقدت فيه العلاقات، وتشابكت، حتى في أدق الأمور، فضلاً عن الفوضى الرهيبة في الآراء الاجتهادية، وعلاوة على تشتت الأفكار، وتدني الأخلاق المريع، الناشئ من تسرّب

(148) المصدر السابق

(149) صيقل الإسلام، المناظرات: 428.

المدنية الزائفة فينا، وبينما كانت الأمور بسيطة، والتسليم للعلماء وتقليدهم جارياً، كانت المشيخة مودعة إلى مجلس شورى- ولو بصورة غير منتظمة -ويتركب من شخصيات مرموقة. أما الآن، وقد تعقدت الأمور، ولم تعد بسيطة، وارتخى عنان تقليد العلماء، واتّباعهم... أقول :كيف يا ترى يكون بمقدور شخص واحد القيام بكل الأعباء؟ لسنا في الزمان الغابر، حيث كان الحاكم شخصاً واحداً، ومفتيه ربما شخص واحد أيضاً، يصحح رأيه ويصوبه، فالزمان الآن زمان الجماعة، والحاكم شخص معنوي ينبثق من روح الجماعة، فمجالس الشورى تملك تلك الشخصية، فالذي يفتي لمثل هذا الحاكم، ينبغي أن يكون متجانساً معه، أي ينبغي أن يكون شخصاً معنوياً نابعاً من مجلس شورى عالٍ.."[150].

إن هذه الدعوة الكريمة من الإمام النورسي، إلى إنشاء مجلس تشاوري علمي للاجتهاد، تعتبر مبادرة فريدة في ذلك الوقت، يتم فيه التشاور بين أهل العلم والكفاءة والخبرة، حيث كان المسلمون بحاجة إلى مؤسسة اجتهادية جماعية، تضم جميع ممثلي دول الإسلام وشعوبه، تتدارس أحداث المسلمين ومشاكلهم، وتتلمس لها الحلول والقرارات. يقول رحمه الله: "إن كل من يجد في نفسه كفاءة واستعداداً للاجتهاد يمكن أن يجتهد، ولكنه لا يكون بهذا الاجتهاد موضع عمل، إلاّ عندما يقترن بتصديق نوع من إجماع الجمهور"[151]، فهذا المجلس غرضه قطع دابر الشذوذ في الآراء، والعمل بما يتفق مع رأي جمهور الأمة، وجعل ما يصدر عنه له من القوة ما يصح جعله ملزماً.

وهذا المجلس يمكن أن تتنوع هيئاته، وأشخاصه، بحسب العلوم، ففي مجال التفسير – مثلاً - يقول الإمام سعيد النورسي: "أريد تشكيل مجلس شورى علمي، منتخب من العلماء المحققين، كل منهم متخصص في علم، ليقوموا بتفسير عظيم، ويجمعوا المحاسن المتفرقة في التفاسير ويهذبوها. وهذا الأمر مشروط بأن تكون الشورى مهيمنة في كل شيء، والأفكار العامة مراقبة، وحجية الإجماع حجة عليه"[152]. ذلك أن التشاور في الأمر يفتح مغاليقه، ويتيح النظر إليه من مختلف زواياه، بمقتضى اختلاف اهتمامات الأفراد، واختلاف مداركهم وثقافتهم، وبهذا يكون الحكم على الأمر مبنيّاً على تصوّر شامل، ودراسة مستوعبة. فالإنسان بالشورى يضيف إلى عقله عقول الآخرين، وإلى علمه علوم الآخرين.

(150) صيقل الإسلام

(151) صيقل الإسلام، (السانحات): 353.

(152) صيقل الإسلام، (محاكمات عقلية): 37.

والمسلمون اليوم بأمسّ الحاجة إلى تجديد هذه الدعوة الكريمة، وهم أشد ما يكونون حاجة إلى الوحدة؛ سياسياً وفكرياً وتشريعياً، خاصة وأن هذا المجلس سيكون أوسع وأشمل وأكثر اختصاصاً من هذه المجالس والمجامع الموجودة في العالم الإسلامي، والتي تعتبر بدورها طريقاً ورافداً لهذا المجلس، للحد من الخلاف

وهذه شذرات من خطابات النورسي في تأصيل الوحدة:

"فيا أهل الحق! ويا أهل الشريعة والحقيقة والطريقة! ويا من تنشدون الحق لأجل الحق! اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرض الاختلاف، بتأدبكم بالأدب الفرقاني العظيم، ألا وهو: {**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**}[153]، فاعفوا عن هفوات إخوانكم، واصفحوا عن تقصيراتهم، وغضوا أبصاركم عن عيوب بعضكم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً. فالأعداء الخارجيون يغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا إنقاذ أهل الحق من السقوط والذلة من أهم واجباتكم الأخروية، وأولاها بالاهتمام، وامتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، من التآخي والتحابب والتعاون، واستمسكوا بكل مشاعركم بعرى الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين، ونهج الحق المبين، بأشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون، واحذروا دائماً من الوقوع في شباك الاختلاف"[154].

"نحن على أمل عظيم برحمة الله أنه بعد مرور أربعين أو خمسين عاماً تتحدون فيما بينكم - كما اتحدت الجماهير الأمريكية - وتتبوءون مكانتكم السامية، وتوفّقون - بإذن الله - إلى إنقاذ السيادة الإسلامية المأسورة، وتقيمونها كالسابق، في نصف الكرة الأرضية، بل في معظمها، فإن لم تقم القيامة فجأة، فسيرى الجيل المقبل هذا الأمل"[155].

"لا تثر الاختلاف لأجل الأحق، بعد وجدانك الحق"[156]، إذ "أحيانا يضيع الحق لدى التنقيب عن الأحق، فإن كان الاتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحقُ أحقَّ من الأحق"[157].

(153) سورة الفرقان، الآية: 72.
(154) اللمعات، (اللمعة العشرون): 235.
(155) صيقل الإسلام، (الخطبة الشامية): 512.
(156) الكلمات: 863.
(157) سيرة ذاتية: 136.

إذ يحق: "لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه: أن هذا (حق) ولا أتعرض لما عداه. فإن يك جميلاً، فمذهبي أجمل. بينما لا يحق له القول في مذهبه: إن هذا هو الحق، وما عداه باطل. وما عندي هو الحسن فحسب، وغيره قبيح وخطأ! إن ضيق الذهن وانحصاره على شيء، ينشأ من حب النفس، ثم يكون داءً، ومنه ينجم النزاع"[158].

إن أفكار النورسي في الشورى الجماعية، والاجتهاد، جديرة بالتقدير. وصيغة الاجتهاد الجماعي، المتمثلة بالمجامع الفقهية اليوم، هي صورة عملية للاجتهاد عن طريق الشورى. ولا شك أن القيود التي وضعها على الاجتهاد الفردي لا زالت قائمة إلى اليوم❐

(158) الكلمات: 863.

الخارطة السياسية الإثنية في تركيا

شوان زنكنة

المقدمة

أجرى مركزُ (ميتروبول للأبحاث) (MetroPOLL) استطلاعاً للرأي حول موقفِ المواطنين الأتراك من الأحزاب السياسية حسب أعراقِهم وإثنِيَّاتِهم، ويُعتبَر هذا الاستطلاعُ واحداً من الاستطلاعات النادرة التي تدرُس توَجُّهاتِ الشّارِعِ التركيّ تِجاهَ الأحزاب، حسب الإنتماءاتِ القوميّة والعِرقيّة .. ولِأهمِّية هذا الاستطلاع، تَطلَّبَ تَحليلَهُ وبيان ما فيه من المُؤشّرات السياسية والاجتماعية، والوقوف على نَبَض الشّارع وما يَحمِلُه من إمكانيّات إستشراف المستقبل السياسي التركي.

ولإجراء تحليلٍ مُتكاملٍ، لا بُدَّ من الرُّجوع إلى بعض الإحصَاءات حول آخِر تِعدادٍ للسّكان، ونتائجِ آخرِ انتخاباتٍ برلمانيّة تمَّ إجراؤُها في تركيا.

الكلماتُ المِفتاحيّة:

* اليمينُ القوميُّ المُحافِظ: الإسلاميُّ القوميُّ، والإسلاميُّ المُتديِّن، معظمُ قواعدِ حزب العدالة والتنمية(AKP)، وبعضُ قواعدِ حزب الخير(IYI Parti)، وقليلٌ في حزب الحركة القومية(MHP) .

* اليمينُ القوميُّ الأتَاتوركيُّ: قوميّ، تركيّ، طُورانيّ، معظمُ قواعدِ حزب الحركة القومية.

* اليَسارُ الأتَاتوركيّ العَلمانيّ: عَلمانيّةُ الجمهوريةِ الحديثةِ الاشـتراكيّةِ الاجتماعيّـةِ، التيّـارُ اليَساريُّ العَولَميُّ العَلَويُّ داخلَ حزب الشعب الجمهوري(CHP).

* اليَسارُ الاتَاتوركيُّ الوطنيّ: اليَسـاريّةُ الوطنيّـة، التـي يُمثِّلُهـا الحـرسُ القـديم والقيـادةُ الكلاسيكيّة لحزب الشعب الجمهوري .

* القوميُّ اليَساريُّ: القَوميُّون الأكراد اليَساريُّون، معظمُ قياداتِ وقَواعدِ حـزب العـمال الكوردستاني(PKK) وحزب الشعوب الديمقراطي (HDP) .

الخارطة السياسية الإثنية في تركيا

استطلاع رأي أجراه مركز ميتروبول للأبحاث في شهر تشرين الثاني ٢٠٢٠

MetroPOLL Arastirma Merkezi

	حزب العدالة والتنمية AKP	حزب الشعب الجمهوري CHP	حزب الخير İYİ Parti	حزب الشعوب الديمقراطي HDP	حزب الحركة القومية MHP	حزب الديمقراطية والعدالة DEVA Partisi	حزب السعادة Saadet Partisi	حزب المستقبل Gelecek Partisi	أخرى Diğer	المترددون Kararsızım	الأصوات الرافضة Protesto Oyu	بدون جواب Cevap Yok	المجموع Toplam
الأتراك	29.7	19.2	10.6	1.3	8.2	0.6	1.2	0.3	0.8	12.9	9.6	5.7	100
الأكراد	29.3	3.7	0.3	32	-	4.7	-	2.4	0.3	16.5	6.7	4	100
الزازا- أكراد	20	5	0.9	30	-	10	5	-	-	24.1	-	5	100
العرب	39	17.1	2.4	7.3	19.5	-	-	-	7.3	2.4	2.4	2.4	100
مهاجرو البلقان	15.8	26.3	10.5	5.3	-	-	5.3	-	-	-	36.8	-	100
مهاجرو القفقاز	22.2	-	-	-	33.3	-	22.2	-	-	-	22.2	-	100
المعدل	**30.2**	**16.4**	**8.2**	**7.6**	**6.7**	**1.6**	**1.1**	**0.6**	**0.8**	**12.8**	**8.8**	**5.2**	**100**

1- تِعدادُ السُّكّان، والعَددُ التّخمِينيُّ لنُفوسِ الإثْنِيّاتِ:

ليس هناك تِعْدادٌ رَسـمِيٌّ لِنفُـوس القوميّـات القاطِنـة في تركيـا، ولكـن يُمكِـن تَخمِينَهـا بالمُقارَنـة بِبَيانـاتٍ تَـدُلُّ عليهـا؛ كنتـائجِ الانتخابـات، ومعلومـاتِ مراكـز الأبحـاث المحليّـة والعالميّة، والتِّعدادِ السكانيّ للمُحافظـاتِ حسـبَ الكثَافَـة القوميّـة. لـذلك سـتكون الأرقـام تقريبيّة، ولكنها مُقارِبَة للواقِع.

* عددُ سكّان تركيا، حسب إحصاء 2019 = 83,154,797 ، ولنَقلْ أنّه الآن = حـوالي 84 مليون نَسَمة.

* عددُ مَنْ يَعتبِرون أنفسَهم من القوميّة التركية حوالي 62.4 مليون نسمة، وبمـا يُعـادِل 75% من السكّان .

* عددُ السكّان الأكراد، ومِن ضِمنِهم (الزازا)، حوالي 16.63 مليـون نَسـمة، وبما يُعـادل 20% من السكّان.

* عددُ السكّان العرب حوالي 0.83 مليون نَسمة، وبما يُعادل 1% من السكّان، مِـن غـيرِ السوريّين المُتجنِّسين مُؤخَّراً .

* عددُ مُهاجِري القُوقاز (من أواسطِ آسيا) حوالي 1.66 مليون نَسـمة، وبما يُعـادل 2% من السكّان.

* عددُ مُهاجِريّ البَلقَان (شـرق أوروبا) حوالي 2.5 مليون نَسمة، وبما يُعـادل 3% مـن السكّان.

ولِعدم وجودِ إحصاءٍ رسميٍّ تركيّ بخصُوص نفُـوس الإثنيَّـات القاطِنـة في تركيـا، لـذا تـمَّ الاعتمادُ على الأُسُس التّاليَة في تَخمين نفُوس هذه القوميّات، وهي أرقامٌ تقريبيَّة قريبةٌ من الواقِع:

- تِعدادُ سكّان كلِّ محافظة، وتَخمِينُ الكثافَة السكّانية العِرقيّة فيها.
- الأرقامُ الرسميّة وشبهُ الرسميّةِ بخصُوص المُهاجِرين القَفقاز، ومُهاجِري البَلقَان.
- مجموعُ الأصواتِ التي حصـلَ عليهـا حـزب الشـعوب الـديمقراطي، إذ دخـلَ الحـزب الانتخابات بمُفردِه، والذي يُعتبَرُ جُلّ أصواتِه من الأكراد، وإضافةُ هذه الأصوات إلى أصواتِ الأكراد الّذين صَوتّوا لحزب العدالة والتنمية، والتي تكون عادةً قريبـةً مـن الأصـواتِ التـي حصلَ عليها حزب الشعوب الديمقراطي.
- الأخذُ بنَظرِ الاعتِبارِ، رأيَ المواطنِ نفسِه في انتمائِه القـوميّ، إذ يَعتـبِرُ بعضُـهم نفسَـه مُنتمِياً للقوميّة التركيّة، وهو ليس كذلك في الأصل.

2- نتائجُ آخرِ انتخاباتٍ جَرتْ في 24 حزيران 2018:

جـرَتْ في تركيـا انتخابـاتٌ برلمانيـة عامّـة بتـاريخ 24 حزيـران 2018، حيـث كـان عـددُ الناخبين هو 59354840 ناخباً، وحصلتِ الأحزاب الرئيسيّة الخَمسة على النتائج التالية:

حزب العدالة والتنميـة 21335581 صـوتاً ، وهـي تعـادل 42.56% مـن مجمـوع الأصوات الصحيحة المَحسُوبَة.

حزب الشـعب الجمهـوري 11348878 صـوتاً ، وهـي تعـادل 22.64% مـن مجمـوع الأصوات الصحيحة المحسوبة.

حـزب الشـعوب الـديمقراطي 5865977 صـوتاً ، وهـي تعـادل 11.7% مـن مجمـوع الأصوات الصحيحة المحسوبة.

حـزب الحركـة القوميـة 5564514 صـوتاً ، وهـي تعـادل 11.1% مـن مجمـوع الأصوات الصحيحة المحسوبة.

حزب الخير 4990710 صوتاً ، وهي تعادل 9.96% من مجموع الأصوات الصحيحة المحسوبة.

علماً بأنّ حزب العدالة والتنمية، وحـزب الحركـة القوميـة، كانـا قـد شـكّلا اتفاقـاً قبـل الانتخابـات باسـم (اتفـاق الجمهـور)، الـذي حصـل عـلى 26900095 صـوت، وبمـا يُعـادل 53.66% من مجموع الأصوات، كما وأن حزب الشعب الجمهـوري، وحـزب الخـير، وحـزب السعادة، شكّلتْ اتفاقاً انتخابياً باسم (اتفاق مللت)، الذي حصل عـلى 17013319 صـوت، وبما يعادل 33.94% من مجموع الأصوات. أمـا حـزب الشـعوب الـديمقراطي، فقـد خـاض الانتخابات لوحده منفرداً.

وكانــت نســبة عــدد النــاخبين إلى عــدد الســكان هــي : 59354840 /83154797 = 71.38%.

3- تحليل بيانات مؤسسة ميتروبول:

البياناتُ تُشيرُ إلى تَوجُّهِ مُنتمِي القوميّات والأعـراق الرئيسـية القاطِنـة في تركيـا، وهـي كالآتي:

A- الأتراك، أو الذين يَعتبِرون أنفسَهم ينتمُون إلى القومية التركية:

لدى الأتراك ثلاثة توجُّهاتٍ رئيسية:

* التوجُّه الإسلاميّ، بنوعَيه: العربي الكلاسيكي، والعثماني القومي الوطني. وغالبيّـة هـذا التوجّه يصوِّتون لحزب العدالة والتنمية. وينتشر هذا التوجّـه في كـلّ انحـاء تركيـا، وتـزداد كثافتُه في وسـط وشــرق الأناضـول، إضـافةً إلى البحـر الأسـود، وتقُـلّ كثافتُـه في السـواحل الغربية والجنوبية من تركيا.

* التوجّه القومي، بنوعَيه: القومي الإسلامي المُحافِظ،الذي يُصوِّت أكثريتُه لحزب الخـير، ومنهم جماعةُ فتح الله غولن، والبعض الآخـر يصـوّت لحـزب العدالـة والتنميـة، ومنـاطقُ تَمركُزِه هي غرب الأناضول.. والقومي الأتـاتوركي الـوطني اليمينـي، الـذي يصـوّت أكثريتـه لحزب الحركة القومية، بشكل رئيسي، والبعض الآخر يصوّت لحزب العدالة والتنمية، وهـم من يُديرُون شُؤونَ الدولة الداخلية والخارجية في الوقت الراهن، ويَتمركَـز هـذا التوجّـه في وسط الأناضول.

* التوجّه العَلماني الأتاتوركي، بنوعَيه: العَلماني الأتاتوركي الوطني، ويُمثِّله الحرس القـديم داخل حزب الشعب الجمهوري، وهو التيّار الضعيف داخل الحـزب.. والعَلـماني الأتـاتوركي

العَولَميّ اليساريّ، المُعادي للتيار القومي الوطني، وهي الشريحة العَلَويّة التي تُسيطر على زمام الأمور داخل حزب الشعب الجمهوري. ويُعتبَر هذا التوجّه القاعدة الأساسية لحزب الشعب الجمهوري، وينتشر هذا التوجّه بالخصوص في السواحل الغربية والجنوبية لتركيا وأسطنبول وأنقرة، إضافةً إلى مدينة (تونجالي) العَلويّة اليسارية في شرق الأناضول.

* قليلٌ جداً من الأتراك يصوِّتون لحزب الشعوب الديمقراطي، وتأتي هذه الأصوات القليلة من الإسلاميين الأتراك المساندين للقضية الكوردية، والتيار التركي العَلوي العَولَمي اليساري المُناهِض لسلطة نظام الحكم، والمُساند للقضية الكوردية.

B- الأكرادُ والزَازَا:

لدى الأكراد توجُّهان سياسيان رئيسيان، فحوالي 90% من أصواتهم تذهبُ مناصَفة (تقريباً) إلى حزب الشعوب الديمقراطي، وحزب العدالة والتنمية. فالتيار الإسلامي الكوردي المُحافظ يصوِّت دوماً لحزب العدالة والتنمية، أما التيار اليساري القومي، فهو يصوِّت دوماً لحزب الشعوب الديمقراطي، ويقفُ إلى جانب هذا التيار في تصويته لحزب الشعوب الديمقراطي، تيار آخر هو التيار القومي المُحافِظ (المُتَديِّن).

هذان التوجُّهان يمثّلان ثُلثَي عدد الناخبين الأكراد، والذي يتناصَفه (تقريباً) حزب الشعوب الجمهوري، وحزب العدالة والتنمية. أما الثُلثُ الآخر، فمُعظمه من التيار الرافِض للسلطة وللانتخابات، ومِمّن يصوِّتون للأحزاب السياسية الأخرى. ويتمركَز تواجدُ الأكراد في شرق وجنوب شرق تركيا، ومدن: أسطنبول، وأزمير، وأنطاليا، وأنقرة، وأدنه، ومرسين.

C- القوميةُ العربيةُ:

العربُ في تركيا، مُحافِظون مُتديِّنون على العموم، وتشكَّلتْ توجّهاتُهم السياسية حسب المحيط الذي تواجدوا فيه، ويتواجَدون بكثافة في مدينتي: ماردين، وسيرت، بالإضافة إلى انتشارهم في المنطقة بين أدنة، وديار بكر، على الحدود السورية، فالعرب الذين يعيشون في قرى هذه المناطق، يصوِّتون عادةً لحزب الشعوب الديمقراطي، بحُكمِ جوارهم للأكراد (حوالي 7% من الناخبين العرب)، والعرب القاطِنون في مراكز المدن الرئيسية في المنطقة، ينقَسِمون عموماً إلى قسمين: الإسلاميون المُحافظون، الذين يصوِّتون لحزب العدالة والتنمية (حوالي 39% من الناخبين العرب)، والقوميون المحافظون، وهم الذين يصوّتون لحزب الحركة القومية التركي (19.5% من الناخبين العرب)، وهناك توجّه يساري عربي في مراكز المدن، وهو توجّه سياسي أكثر مما هو توجه فكري، ويتمركَز عادةً في المدن الساحلية كإزمير وأنطاليا التي تُعتبَر قلاعاً لليسار، ويصوّت هذا التيار لحزب الشعب الجمهوري بحكم المُعايشة والجوار (حوالي 17% من الناخبين العرب).

D- مهاجرو البلقان:

وهم الـذين هـاجروا، أو هُجِّـروا، مـن دول البلقـان؛ كبلغاريـا، واليونـان، ويوغسـلافيا، وألبانيا، إبَّان الحرب العالميـة الأولى ومـا بعـدها، بسـبب أصـولهم التركيـة، والـذين سـكنوا المناطق الغربية من تركيا، وبالأخص إزمير، وأدرنه، وبورصة، وما جاور هذه المدن. وهـم في العموم علمانيون، يساريون، ولكـن هـذا لا يعنـي عـدم وجـود شريحـة متدينـة محافظـة بينهم. ويمتاز هؤلاء بعزوفهم عن السياسة، وعدم مشاركتهم في الانتخابات (حـوالي 36.8% مـنهم مـن الرافضـين)، ويصـوت حـوالي 26.3 % مـن نـاخبيهم لصـالح حـزب الشـعب الجمهوري، بينما يصوت حوالي 15.8% من ناخبيهم لصالح حزب العدالة والتنمية، وكـذلك يصوت 10.5% من ناخبيهم لصالح حزب الخير، وهم الشـريحة التي تؤيد وتناصر جماعـة فتح الله غولن. أما حـزب الشـعوب الـديمقراطي، فنصـيبه مـن هـذه القوميـة هـو حـوالي 5.3%.

E- مُهاجِرو القَفقاز:

وهم القفقاس والشركَس والأبخَاز المُهاجرون، والمُهجَّـرون، مـن أواسـط آسـيا إلى تركيـا، والذين استقرُّوا في شـرق ووسط الأناضول، وبعض الأجزاء من البحر الأسـود، وهـم قاطبـةً قوميون، وكثيرٌ منهم إسـلاميون قوميـون، يـذهبُ جُـلُّ أصـواتهم إلى تلاتـة أحـزاب، حـزب الحركة القومية (حوالي 33% من أصوات الناخبين)، وحزب العدالة والتنميـة (حـوالي 22% من أصوات الناخبين)، وحزب السعادة (حوالي 22% من أصـوات النـاخبين)، أمـا العـازفون عن السياسة، فهم يمثلون حوالي 22% من ناخبيهم.

4- تحويلُ هذه التوجُّهات والمعلومات إلى لغةِ الأرقام:

يُمكن ترجمة التوجّهات القومية إلى لغةِ الأرقام، وكالآتي:

- لمّا كـان مجمـوعُ نفـوس سـكّان تركيـا هـو 83154797 نسَـمة، وعـددُ النـاخِبين هـو 59354840 ناخِباً. وبالتالي، فـإن نسـبة عـدد النـاخبين إلى العـدد الكـلي للسـكان سـيكون 71.38%، لذا وجَب إيجادُ عدد الناخِبين لكلّ شـريحة قومية عـلى حِـدَة، ومـن ثَـمَّ توزيـعُ أصوات الناخِبين على الأحزاب، وكالآتي:

أولاً: إيجادُ عدد الناخِبين لشـريحةِ القومية التركية:

عدد النفوس التَّخمينِيّ للقومية التركية هو حوالي 62400000 نسَـمة.. وبالتـالي، فعـددُ ناخِبيهم المُخمَّـنُ سـيكون: 62400000 × 0.7138 = 44541120 ناخبـاً. وتتـوزَّع أصـواتُهم على الأحزاب الرئيسية كالآتي:

حزب العدالة والتنمية: 44541120× 0.297 = 13228712 صوتاً.

حزب الشعب الجمهوري: 44541120× 0.192 = 8551895 صوتاً.

حزب الخير: 44541120 × 0.106 = 4721358 صوتاً.

حزب الحركة القومية: 44541120 × 0.082 = 3652371 صوتاً.

ثانياً: إيجادُ عدد الناخبين لشـريحة الأكراد(الأكراد والزازا) :

عدد النفوس التَّخمينيّ للأكراد (مع الزازا) هو حوالي 16630000 نسمَة، وعدد الناخبين سـيكون: 16630000× 0.7138 = 11870494 ناخبـاً، 90% مـن أصـوات النـاخبين الأكـراد ذهبتْ إلى حزب الشعوب الديمقراطي، وحـزب العدالـة والتنميـة، والبـاقي ذهبـت لبقيـة الأحزاب. وعلى هذا الأساس، سيكون نصيب الحزبين من الأصـوات هـو 10683444 صـوتاً، وقد حصل حزب الشعوب الـديمقراطي فعليـاً في هـذه الانتخابـات عـلى 5865977 صـوتاً، فيكون حزب العدالة بذلك حاصلاً على: 10683444- 5865977 = 4817467 صوتاً كورديّاً.

ثالثاً: إيجادُ الناخبين للقومية العربية، وتوزيعُها على الأحزاب:

عـدد النفـوسُ التخمِينـيّ للشـريحة العربيـة هـو 830000 نسَـمة، وعـددُ النـاخِبين للشـــريحة العربيــة = 830000 × 0.7138 = 592454 ناخبــاً، وتتــوزّع أصــواتُهم عــلى الأحزاب كالآتي:

حزب العدالة والتنمية: 592454 × 0.39 = 231057 صوتاً.

حزب الشعب الجمهوري: 592454 × 0.171 = 101309 صوتاً.

حزب الحركة القومية: 592454 × 0.195 = 115528 صوتاً.

حزب الشعوب الديمقراطي: 592454 × 0.073 = 43249 صوتاً.

رابعاً: إيجادُ عدد الناخبين لمُهاجِري البَلقان:

عدد النفوسُ التخمِينيّ لشـريحة مُهاجِري البَلقان هو 2500000 نسَمة، وعدد ناخِبيهم هو 2500000 × 0.7138 = 1784500 ناخباً، وتتوزّع أصواتُهم على الأحزاب كالآتي:

حزب العدالة والتنمية: 1980000 × 0.158 = 312840 صوتاً.

حزب الشعب الجمهوري: 1980000 × 0.263 = 520740 صوتاً.

حزب الخير: 1980000 × 0.105 = 207900 صوتاً.

حزب الشعوب الديمقراطي: 1980000 × 0.053 = 104940 صوتاً.

خامساً: إيجادُ عدد الناخِبين لشريحة مُهاجِري القَفقاز:

عـدد النفـوس التخمينـيّ لشــريحة مُهـاجِري القَفقـاز هـو 1660000 نسَـمة، وعـددُ نـاخِبيهم هـو 1660000 ×0.7138 = 1184908 ناخبـاً، وتتـوزّع أصـواتُهم عـلى الأحـزاب كالآتي:

حزب العدالة والتنمية: 1184908 × 0.222 = 263049 صوتاً.

حزب الحركة القومية: 1184908 × 0.333 = 394574 صوتاً.

حزب السعادة : 1184908 × 0.222 = 263049 صوتاً.

5- التحليلُ السياسيُّ للبياناتِ:

يَتبيَّنُ من البيانات أنّه هناك قوميَّتَين أساسيَّتَين تُوثِّران في السياسة التركية ونظامِ الحكم فيها، هما: القوميةُ التركية، والقوميةُ الكوردية. أما القوميّات الأخرى، كالقَفقاز، والشّرَكَس، والتُّركمان، ومُهاجِرو البَلقان، واللَّاز (القاطِنون في سواحل البحر الأسود)، وغيرهم، فهم يَعتبِرون أصولَهم تركية. كما أنّ الكثافة السكّانية للعرب في تركيا قليلة، ومَحدودَة في بُقعَة صغيرة، إضافةً إلى أنّها ذائِبة ثقافياً داخل الشرائح الاجتماعية الأخرى. ولم يُدرِج المركزُ في إستِطلاعِه موقفَ العِرق الأرمَنيّ السياسي في تركيا، وأظنّه بسبب قِلّة عدد السكان، وانقسامهم السياسي بين فئة راضِخة واقِعة تحتَ سُلطة الدولة، وفئة مُضرِبة عن السياسة ورافِضةٌ للسلطة. كما لم يُدرِج بقية الإثنيَّات، كاليهود، ويهود الدُونمَة، والرُّوم، لقلّةِ عددهم، وعُزُوفِهم عن السياسة.

ومع قيام الجمهورية التركية بقيادة أتاتورك، نشبَ صراعٌ إثنيٌّ بين القوميَّتَين، وانتهت بذلك فترةُ التَّحالُف التركي الكوردي، الذي أسَّسه الشيخ إدريس البتليسي بين أمراء الأكراد والسلطان سليم الأول سنة 1515م، أي بعد سنة من (معركة جالديران)، التي انتصر فيها السلطان سليم الأول على الشاه إسماعيل الصفوي، هذا التَّحالفُ الذي حمَى شرقَ الدولة العثمانية، وفتحَ أبوابَ الشام ومصر لها بعد إسقاط المماليك، وحقَّق التوازُن بين الفرس والأتراك.

جَلبَت الجمهورية، بعدَ (مُعاهَدة لوزان)، التي ألغَتْ حقَّ تقريرِ المصير للكورد، الذي نَصَّتْ عليه (مُعاهَدة سيفر)، الصّراعَ والاضطرابات مع الأكراد، فقامتْ ضدّها عدة حركاتٌ مناهِضة، أشهرُها، حركةُ الشيخ سعيد بيران، وآخِرُها حركة حزب العمال الكوردستاني بقيادة عبدالله أوجلان، الذي أسَّس أوّل قاعدةٍ عسكرية له في شَمال العراق سنة 1983م.

يمتاز المجتمعان التركي والكردي بكونهما مجتمَعَين مُحافِظَين على العموم، فأكثرية أبنائهما من اليمين المحافظ (حوالي 70%)، إلى جانب اليسار العَلماني (حوالي 30%)، علماً بأن اليمين المُحافظ ينقسم إلى قسمين: يمين قومي محافِظ، ويمين إسلامي مُحافظ، وأن اليسار العَلماني ينقسم إلى قسمين: يسار عَلماني أتاتوركي، ويسار عَلماني قومي، الذي يُشكّل الأكرادُ اليساريُّون معظمَه.

بدأ المَدُّ القومي التركي المُحافظ بالظُّهور والتَّرَعرُعِ في الستِّينات من القرن الماضي، فتَمَّ تحريكُ المشاعرِ القوميـة التركيـة المُحافظـة، واستغلالها ضدَّ التوجُّهات الشيوعية التي توغَّلت إلى تركيا ضمن مُخطَّط تصدير الاتحاد السوفيتي لفكرِهِ الماركسيّ في ذلك الوقت، ومحاولات احتوائِها، فأسَّس العميد المتقاعد (ألب أصلان تـوركيش) - أحـد قـادة الانقـلاب العسكري في 27 أيار 1960م - (حزبَ الأمة القروي الجمهوري) سنة 1965م.. وفتح بابَ الصِّراعِ السَّاخِن بينَه وبين اليسار الماركسيّ، بِشِقَّيهِ التركي والكردي، والمُلفِتُ للنَّظر أنّ هذا الحزب كان يَنظُر إلى الأكراد على أنّهم يساريُّون ماركسِيُّون.

جَرتْ أحداثُ عُنفٍ كبيرة، بَدْءاً من أواخر الستينات، والمُسمَّاةُ بـ(أحداث السبعينات الدامية)، بين اليمين القومي المحافظ، واليسار الماركسي، بِشِقَّيهِ الأتاتوركي والقومي الكردي، ولعدم قدرة اليمين القومي التركي على مقاومة المَدِّ الشيوعي وحدَه، والتخَوُّفِ من دخولِ تركيا تحت المَظلّة السوفيتية، تمَّ السَّماح للتيار الإسلامي بتَشكيلِ حزب سياسي، لإسنادِ اليمين مَعنويّاً ضدَّ المَدَّ اليساريّ، فقامَ (نجم الدين أربكان) بتأسيس حزب (ملي نظام) سنة 1969م.

بعدَ الانقلاب العسكريّ سنة 1970م، وإغلاقِ حزب (ملي نظام)، أسَّس نجم الدين أربكان حزب (ملي سلامت)، سنة 1971م. وكان الأكراد والأتراك الإسلاميُّون هم اللَّبنَة الأساسيّة لهذا الحزب، فتَشكَّلتْ بذلك، ومنذ ذلك التاريخ، آلِيَّةُ التَّعامُلِ التركي الكردي داخل الحزب، وتأثيرُها على تَحالُفات الحزب مع الأحزاب الأخرى.

أوَّلُ فكرةِ تَحالفٍ مع التيار الكردي ظَهرتْ داخل حزب الرَّفاه، قُبَيلَ الانتخابات البرلمانية سنة 1991م، حيثُ كان الحزب أمام خيارَين: إما التَّحالُفُ مع حزب (الجهد الشعبي الكردي)، والاستِحواذُ على مُعظم الصَّوت الكردي في المدن التي فيها كثافة سكانية كرديـة عاليـة، أو التَّحالفُ مع حزب الحركة القوميـة، والحزب الإصلاحي الديمقراطي القومي، وهما حركتان تركيتان قوميتان، وحدثَ في حينه نزاعٌ شديد داخل الحزب بين وُجهَتَي النَّظر، تَطوَّر إلى تَضارُبٍ بالأيدي بين بعض أعضاء قيادة الحزب. وبعد جِدالٍ طويل قرَّر الحزبُ الدخول في تحالفٍ مع التيار القومي التركي، وحصل على 17.4% من أصوات الأكراد في تلك المدن، بينما تحالفَ الحزبُ الاجتماعيُّ الديمقراطي الشعبي (التركي اليساري) مع حزب الجهد الشعبي الكردي، فحصل على 32.7% من أصوات الناخبين، في حين لا يحصلُ في العادةِ من تلك المناطق إلا على ما دون 5%.

استمرَّ الجناحان المُتعارِضان داخل حزب الرفاه، الجناحُ المُوالِي للتَّحالف مع التيار السياسي القومي الكردي، والجناحُ المُوالِي للتَّحالف مع التيار القومي التركي، بالصِّراعِ

والجَدلِ، حتّى تاريخَ غلقِ الحزب من قبل السلطات الحاكمة، وانتقال معظم كوادرِ الحزب إلى حزب العدالة والتنمية، الذي تأسَّس في 2001م.

تَهيَّأتِ الظُّروفُ أمام حزب العدالة والتنمية، في ظلِّ النظام العالَميِّ الجديد، لِيكونَ الحزبَ الحاكم بلا مُنازِعٍ في تركيا مع بداية القرن الحادي والعشرين، فتصَدَّى مع بدايةِ حُكمهِ لأربعِ قضايا مهمة: تَحييدُ الجيش وعزلُه عن السياسة، عمليةُ السلام مع الأكراد، تَوازنُ العلاقة مع إيران، السَّعيُ لأن تكون تركيا قوةً إقليمية فاعِلةً في بُؤَرِ الصِّراعِ، وذلك للمُساهَمة في ضَمان أمنِ إسرائيل.

اختيارُ حزبِ العدالة والتنمية لِحَلِّ القضية الكردية كان مُوفَّقاً، كما أن اختيارُه لإدارة الحُكم وجعلِ تركيا قوةً إقليمية كان مُوفَّقاً أيضاً، فحزبُ العدالة والتنمية يَمتازُ عن بقية الأحزاب التركية الأخرى، بأنّه يَحكُمه جناحان، جناحٌ كردي وجناحٌ تركي، وهما الجناحان اللّذان جَعلا الدولة العثمانية تَحلُق فوقَ أوروبا الشرقية وأواسط آسيا والشرق الأوسط.

بدأَ حزبُ العدالة والتنمية مشروعَ حَلِّ القضية الكردية سنة 2009م من (أوسلو)، وانتهى المشروعُ بالفشلِ سنة 2015م، وأسبابُ الفشل مُتعَدِّدة ومُتناقِضة، إلّا أنّ الذي أطلقَ رَصاصةَ الرَّحمة على حلّ القضية الكردية هو الانقلابُ العسكريّ في 15 تموز سنة 2016م، فَقد ارتَمى الحزبُ والحكومةُ والدولةُ في حُضنِ التيّار القوميّ الأتاتوركيّ المُحافِظ داخل الحزب وخارجَه، وذلك بسبب تَولِّيهِ مُهمّة تَصفيةِ جماعة فتح الله غولن من مَفاصِل الدولة، فمَسكتْ هذه العُصبَةُ بزِمام أمورِ الدولة، وتوغَّلتْ فيها، وتَرَجَّحتْ كفَّةُ التيار القومي التركي، وتمَّتْ عملياتُ تصفيةٍ لقياداتِ الجناح الكردي من الحزب والدولة.

استطاعَ الرئيسُ التركي إردوغان أن يُحقِّقَ التَّوازُنَ الإثنِيَّ داخل الحزب والحكومة والدولة منذ توليه السلطة في تركيا، ولغاية تَعرُّضِ سلطتِه للانقلاب، إذ تَولّى بعد ذلك التيار القومي الأتاتوركي السلطةَ داخل الدولة العَميقة التركية، ولكن ليس بعيداً عن سلطة وإرادةِ الرئيس إردوغان. الأمرُ الذي يجعلُه مُؤهَّلاً من جديد لقيادة التوَازُن الإثنِيِّ والسياسي داخل الحزب والدولة.. وقد لا تكونُ قيادة هذا التوازُن سَهلاً، كما كانت في السابق، وذلك لوجود عاملٍ خطير خارجَ الحزب والحكومة، مُتحَكِّمٍ فيهما، وهو وجُود شريكِ حكم قومي تركي، متمثل بحزب الحركة القومية، على الرئيس اردوغان التعامل السَّلس معه، وضمان انسجامه مع منظومة التوازُن هذه.

وأعتقدُ أنّ النِّظامَ العالَميَّ الجديد، الذي يسعَى لِجعلِ تركيا قوةً إقليمية، سيَفرِضُ على تركيا، وعلى الرئيس التركي، التعاملَ مع القضية الكردية بمنطقِ الرَّابح للطَّرفَين، وهذا يَستوجِبُ صياغةً جديدة للعلاقاتِ التركية الكردية في كلِّ المنطقة، تتشَارَك فيها كلُّ من

تركيا وأمريكا وإسرائيل والطرفُ الذي يُمثِّلُ الجانبَ الكردي، وجلُّ المسؤولية تقعُ على الجانب الكردي، الذي يجب عليه: * طَمأنةُ التيار القومي التركي بعدمِ سعيِه للاستقلال واستِقطاعِ الأراضي، * ونَزعُ سلاحِ حزب العمال الكوردستاني، * وحَلّ حزبه السياسي في تركيا، * وإنشاءُ حزبٍ سياسي كردي مستقل، ومن صميم الشعب الكوردي.. ويَبدو أنه هناك بوادِرُ واقعيةٌ تُشيرُ إلى هذا الاتِّجاه، فالضغوط العسكرية التركية على قنديل، وسنجار، بدعم أمريكي، قد تَعاظَمتْ، والأصواتُ المُنادِية بحظر حزب الشعوب الديمقراطي، المُوالي لقنديل، قد تصَاعَدتْ في تركيا، بمُوازاةِ حِراكٍ شعبيٍّ كوردي في المناطق ذات الكثافة الكوردية العالية لتأسيس حزب كوردي مُستقِل، من قبل شخصيات كوردية معروفة.

هذه المسؤوليةُ الجَسيمةُ واقعةٌ على عاتِق حكومةِ إقليم كوردستان، باعتِبَارِها الطرفَ الرسميّ المُعترَف به دولياً، وأنها حازتْ على أكثرية أصوات الأحزاب السياسية في البرلمان الكوردستاني.

الخاتمة:

قَسَّمَ الاستطلاعُ المجتمعَ الإثنِيَّ في تركيا إلى ست شرائح: الأتراكُ، والأكرادُ، والزازا، والعربُ، ومُهاجِرو البَلقان، ومُهاجِرو القَفقاز.. ولو اعتبَرنا الزَازَا من الأكرادِ - وهم فعلاً كذلك - فإنّنا سنكون أمام خمس شرائح. أما مُهاجروا البَلقان، والقفقاز، فهم أقوامٌ من أصول تركية، قطنت دول القَفقاز والبَلقان، هاجرَ أو هُجِّرَ قِسْمٌ منهم إلى الأناضول قبل حوالي 200 عام، وانسجَموا مع المجتمعِ الأناضوليّ، وأصبَحوا جُزءاً منه. ولم يَذكرِ الاستِطلاعُ شرائحَ إثنِيَّةً أُخرى في تركيا، كالأرمَن، والرُّوم، واليَهودِ، ويَهودِ الدُّونمَةِ (اليَهودُ الذين أعلنُوا إسلامَهم بعد تهجيرِهم من السيلانيك، وتَوطُّنِهم في الأناضول)، إما بسبب قلّة عددِهم، أو بسبب ضَعف ثِقَلِهم السياسيّ.

أمّا الأتراكُ، أو لِنَقُلْ الّذين يَعتبرون أنفسَهم أتراكاً، كالتركمان والآذر واللاز، والمُنحدِرين من أصولِ الأوغوز والسلاجقة، فهم يعتبرون أنفسهم من سكَنةِ الأناضول الأساسِيِّين. وهم يُمثّلون حوالي 75% من السكّان، ويَمتازون بالطابِع المُحافِظ عموماً، وعلى مرِّ التاريخ، ولكن ومع سقوط السلطنة العثمانية ونُشوءِ الجمهورية التركية على يدِ مؤسِّسها أتاتورك، غَطَّى الطابعُ العَلماني اليميني القومي على الساحة السياسية في تركيا، ثم أخذَ هذا الطابِع في التوَجُّهِ نحوَ اليسار في عَهد (عصمت إينونو)، وأصبحَ حزبُ الشعب الجمهوري الحاكم حزباً عَلمانياً قومياً يسارياً، ويَبدو أنّ هذا التوَجُّهَ قد أقلقَ الغربَ الرأسمالي، مِمّا حَدا به إلى دفعِ النِّظام السياسي في تركيا إلى تَبَنِّي نظامَ تَعَدُّدِ الأحزاب، فتأسَّس الحزبُ الديمقراطي

على (مندريس)، الّذي وصلَ إلى السلطة سنة 1950، وبدأ العَدُّ التَّصاعُدي للتيار المُحافِظ من جديد.. ومنذ ذلك الحين تَتنافَسُ التيارات الثلاثة: اليمينيُّ القوميُّ بِشِقَّيهِ المُحافِظ والأتاتوركي، واليساريُّ العَلمانيُّ بِشِقَّيهِ الأتاتوركي والعَلَويُّ، والإسلاميُّ بِشِقَّيهِ المُحافِظُ والقوميُّ، تتَنافَسُ على توسيعِ قاعِدتها الشعبيّة، حتّى وصَلتِ اليومَ إلى ما يُشيرُ اليه الاستِطلاعُ، وكالآتي:

29.7% من الناخبين صوّتوا لصالح حزب العدالة والتنمية، وغالِبيَّتُهم من التيار الإسلامي بِشِقَّيهِ المُحافظ والقوميّ التركيّ.

19.2 من الناخبين الأتراك صوّتوا لحزب الشعب الجمهوري، ومعظمهم من اليسار العلماني بِشقّيهِ الاتاتوركي والعَلَوي.

10.6% من الناخبين صوّتوا لحزب الخير، وغالبيَّتُهم من التيار القومي المحافظ مع خليط من التيار القومي الأتاتوركي.

8.2% من الناخبين الأتراك صوّتوا لحزب الحركة القومية، وكلُّهم من التيار القومي الأتاتوركي .

وللتوضيح، يَجدُر أنْ نُشيرَ هنا إلى التَّشَظِّي الذي عانَى منه التيار القومي التركي، فقد أنشأَ (ألب أصلان توركيش)، حزب الحركة القومية، على أُسسٍ قومية أتاتوركية يمينية بَحْتة، لكن في صراعِ الحزب مع اليسارِ ظهرتِ الحاجةُ عنده إلى دعم اليمين الإسلامي المُحافظ والمُعادي لليسار، فتوغّلَ هذا التيار داخل الحزب، حتى انفصالِ (محسن يازجي اوغلو) في التسعينات من القرن الماضي، وتأسيسِه لحزب الإتحاد الكبير، وهو حزب قوميٌّ مُحافظٌ يَميل إلى الإسلام، فاستقطبَ هذا الحزبُ غالبيةَ الإسلاميين المُحافظين داخلَ حزب الحركة القومية، فتأسَّسَ بذلك تيارٌ قوميٌّ جديدٌ، يحملُ التوجُّهَ المَحافظ القوميَّ، ثمّ انفصلتْ (ميرال أق شنر) لِتُؤسِّسَ (حزب الخير)، مُستقطِبةً عدداً كبيراً من التيار القومي الأتاتوركي من داخل حزب الحركة القومي، إضافةً إلى قواعدِ جماعةِ فتح الله غولن، وبعضِ القواعدِ من التيار القومي التركي المحافظ، وتأسَّسَ بذلك تيارٌ قومي محافظ آخر ، يحملُ السِّمة المُحافظة بِصبغَةٍ أتاتوركية، وقد عانَى هذا الحزب من صراعٍ داخلي بين التيار الأتاتوركي، وجماعة فتح الله غولن، حيث انتصرت فيه الجماعة، بعد طرد (أميد اوزداغ) من الحزب، والذي كان من أهم أقطاب الأتاتوركية الطورانية داخل الحزب .

كما يجب أنْ نُشيرَ هنا إلى أنّ التيار اليساري في تركيا، انحصَر بشكلٍ رئيسي بين شريحة الأتراك القاطِنين على السواحل الغربية والجنوبية من تركيا، مُستقطباً عدداً كبيراً منهم، لكنّه فشلَ بشكلٍ كبير في استقطابِ الأتراك في المقاطعات التركية الأخرى، وتراجعت نسبةُ

تمثيلِه لدى الأتراك خصوصاً، ولدى عموم الشعب التركي، خلال التسعين سنة الماضية من عمره، بشكلٍ كبير ،حتّى إستقرَّت قريبا عند حاجز الـ(20%) ، وليس هناك في الأُفُق على المدى القريب ما يُشير إلى تزايُد نفوذِه وتاثيرِه السياسي على الساحة التركية.

أمّا الأكرادُ، وأكرادُ الزَّازَا، فَهُم بين إسلامي مُحافظ لا يَميلُ إلى القوميّة، وقوميٌّ مُحافِظٌ، لا يَفصِلُ تَديُّنَهُ عن قوميّتِه، وقوميٌّ يساريٌّ يُناهِضُ الإسلامَ والمسلمين.. التيارُ اليساري القومي المُتمثِّلُ بحزب العمال الكوردستاني المسلَّح، وامتدادُه السياسي المُتمثِّلُ بحزب الشعوب الديمقراطي، أصبحَ عالةً على القضيةِ الكورديّة ، ولم يَعُدْ في نظرِ الأمريكان وإسرائيل حليفاً مناسباً، وحَصلتِ القناعةُ لديهما بضرورةِ إنهاء هذا الوجودِ العسكريّ وتصفيةِ تيّارِه السياسيّ، وبناءِ نموذجٍ جديدٍ يَشمُل كلَّ الوضع في تركيا وسوريا والعراق، وقد نشطتْ أمريكا بهذا الاتِّجاهِ منذ عدةِ سنواتٍ في سوريا والعراق، على أملِ إقناع الأتراك لإبرامِ صيغةِ التَّعاونِ التركيّ الكرديّ في المنطقة، وتَحقيقِ سلامٍ كاملٍ فيها. وأعتقدُ أنّه لا مَفرَّ لأطرافِ النِّزاعِ إلّا سُلوكَ هذا الطريق، طريقَ السَّلام، على مِنوال الإتِّفاقِيّة التي أُبرِمتْ بين الأكراد والدولة العثمانية برعاية الشيخ البتليسي سنة 1515م.. فهذه هي الفُرصةُ المُؤاتِيةُ الوحيدَةُ للطّرفَين، فمِن جِهةٍ هناك حزبٌ تركيٌّ ثُلثُه من الأكراد المحافظين القوميين، وثُلثُه الآخرُ من الأتراك المحافظين القوميين، يرأسُه رئيس تركي، يُؤمِنُ بالقضية الكوردية بِحُكْمِ تَديُّنِه، وهو كان أولُ من لفظَ كلمةَ (كوردستان) المَمنوعَة في تركيا. ومِن جِهةٍ أُخرى، هناك حكومةٌ مُعترَفٌ بها دوليّاً في إقليمِ كوردستان، وقياداتٌ كورديّةٌ تدعَمُها، وقواعدٌ من الشريحة الكوردية تسانِدُها في كلٍّ من تركيا وسوريا والعراق.

هذا ما يُشيرُ إليه استطلاع الرأي، من تَعارُضِ التَّوجّهات الإثنية، وتشابُكِ مصالِحها، وتخَوُّفاتِها، وهَواجسِها، التي ترسمُ الخارطة السياسية في تركيا، وضرورةَ السَّعي إلى تأسيس حالة السّلم الوطنيّ، وتَحقيقِ المَصالح المُشتَرَكة، وتخفيفِ المَخاوِفِ والهَواجِسِ، وتشكِيلِ بُنيَةٍ داخليةٍ مَتينَة قادِرَةٍ على بَسطِ النُّفوذِ المُشترَكِ في المنطقة، وبُؤَرِ الصِّراعِ فيها .

ولم تَسقُطِ الدُّولُ والإمبراطوريّاتُ والأنظِمَةُ السياسيّةُ الحاكِمَةُ على مَرِّ التاريخِ، إلّا بعدَ أنْ انفَرَطَ عَقْدُها الدّاخليّ، وتَشَظَّت بُنيَتُها، ودبَّ الخِلافُ بين أهلِها، وستَبقى هذه القاعِدةُ قائِمَةً إلى يوم القِيامة❐

اسمع كثيراً وتحدَّث قليلاً

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

تملكُ لساناً واحداً، وتملكُ أذنَين اثنتَين، اللّسانُ يقعُ خلف بابَين، والأذنان طليقتانِ حتّى تسمعَ أكثرَ مما تتحدَّثُ، لأنّكَ تحتاجُ إلى السّمعِ أكثر من حاجَتِكَ إلى النّطق، وتكتشف الحياةَ عن طريقِ الأذنين أكثر ممّا تكتشفها عن طريق اللّسانِ. ما يعلّمهُ إيّاكَ السّمعُ، يفسدُهُ اللسانُ عليكَ .

ألا ترى أنّ النطقَ يحتاجُ إلى بذلِ جهد، في حين لا يحتاجُ السمعُ إلى أيّة حركةٍ حتى يعلّمكَ شيئاً جديداً. اللّسانُ يصلُحُ مرةً، ويفسدُ عشرَ مرّاتٍ، لذلكَ فإنّ قلةَ الكلامِ حكمةُ الرجالِ والنساءِ معاً .

إنْ أطلقَ الإنسانُ العنانَ للسانِهِ قتَلَهُ لسانُه، كمْ من لسانٍ أدى بصاحبِهِ إلى التّهلكةِ، كم من لسانٍ سفكَ جداولاً من دماءٍ، كمْ من لسانٍ هدّ بيوتاً آمنةً، كم من لسانٍ أشعلَ العداوةَ والبغضاءَ بينَ شخصَين مدى الحياةِ .

إنْ أردتَ النّطقَ احتجتَ إلى فتحِ بابِ الأسنانِ، وفتحِ بابِ الشفتَين، وتحريكِ اللّسانِ، واستخدامِ الصوتِ، والاستعانةِ بأكثرِ أوتارِ الجُملةِ العصبيّةِ حساسيّةً، وبشيءٍ من التّركيزِ والحدّةِ قد تستعينُ بيديكَ وعينيكَ وحاجبَيكَ ورأسِك، وهذا كلُّهُ يُسببِ الإرهاقَ لك، يعلُو الاحتقانُ سماتَ وجهك، يختلُّ قلبُك في نبضِهِ.

أمّا وأنتَ تسمعُ، ينشرحُ صدرُكَ، يتّسعُ تأمُّلكَ، تستكينُ في حُضنِ نشوةِ السّماعِ والتّأملِ، تدخُلُ بكاملِ حواسكَ حالةً استرخائيّةً من لذّةِ الإصغاءِ، ونشوةِ التّأملِ قد تُتَوَّجُ بغفوةٍ لم تُدركْ لذّتها في ألفِ نومٍ.

التبذيرُ في الكلماتِ لا يقلُّ عن التبذيرِ في المالِ، لأنَّ الكلمة تحتاجُ إلى بذلِ جهدٍ من كلّ أعضاءِ الجسدِ.

تسْطعُ شمسُ الحياةِ على أولئكَ الذينَ يبذّرونَ البذورَ، وينتظرُون شُروقَها كي تينَعَ تلكُ البذور فيغتنِي بها الزّارعُ، ويغتنِي بها الآخرون، وتغتنِي بها الحياةُ أيضاً.

كثيرونَ يمضُون حياتَهم دونَ أن يبذُروا بذرةً واحدةً، ودونَ أنْ تسطَعَ عليهِم شمسُ الحياةِ، إنّهم يعيشونَ في ظلامٍ أبديّ، لمْ تشرُق على ظلمَتِهم أيُّ شمسٍ.

الحياةُ هي إحساسٌ داخلي بالإشراقِ والطّرب يعبقُ على النّفوسِ جميعاً، بَيد أن آليةَ الاستقبالِ لهذا الإحساسِ تختلفُ من تركيبةٍ إنسانيةٍ إلى غيرها، وهذا يتداخَلُ بمفهومِ حياةِ الغنى لدى شرائحِ النّاس.

ما يهمُّ، أن أيَّ إنسانٍ على سطحِ الأرضِ يمكنُ لهُ أن يعيشَ دفءَ الحياةِ النّفسيةِ، حتّى لو كانَ في خيمةٍ صغيرةٍ في عمقِ صحراءٍ.. يمكنُ لهُ أن يستمتعَ بشروقِ الشّمس على حياتِهِ كلّ صباح .

الشمسُ هنا تكونُ لِمَن يُهيئُ مشاعِرَهُ لاستقبالِها، ويستمتِعُ بلحظاتِها الذّهبيةِ، وعندئذٍ يمكنُهُ أنْ يشرقَ على الحياةِ ويقدّمَ عملاً مجدياً فيها .

ليسَ بوسعِ الإنسانِ أنْ يفعلَ شيئاً مُجدياً دونَ أن تشرقَ الشمسُ على حياتِهِ، لأنّ الشمسَ هنا تحملُ معها دفقاتِ الحياةِ، ودفقاتِ الحيويّةِ التي هي بمثابةِ النّبض لفؤادِ الحياةِ .

اسمع كثيراً، إنّك لمْ تسمعْ إلا القليلَ، وانظرْ كثيراً، إنّك لم ترَ إلا القليلَ، واقرأْ كثيراً، فإنكَ لم تقرأْ إلا القليلَ، ولا تفكّر في النُّطقِ كثيراً، فإنّكَ قلت الكثير .

اسمعْ أصواتَ كائناتِ الطّبيعةِ، سترى كلّ صوتٍ يغتنِي بميزةٍ خاصةٍ بهِ، إنّكَ تحتاجُ إلى سماعِ لسانِ كلّ حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، اسمعْ رزامَ الإبلِ، ستراهُ مختلفاً عن طنينِ الذّباب، اسمع أزيزَ الرصاصِ، ستراهُ مختلفاً عن عندَلةِ العندليبِ، اسمعْ عواءَ الذئبِ، ستراهُ مُختلفاً عن بفومِ الفيلِ، اسمعْ تغريدَ البلبلِ، ستراهُ مختلفاً عن فحيحِ الأفعى، اسمعْ قباعَ الخنزيرِ، ستراهُ مُختلفاً عن ثغاءِ الغنمِ، اسمعْ قصفَ الرعدِ، ستراهُ مختلفاً عن قعقعةِ السّيوفِ، اسمعْ خوارَ البقرةِ، ستراه مختلفاً عن خترشةِ الجرادِ، اسمع تغريد البلبل ستراه مختلفاً عن حنينِ النّاقة، اسمع حفيفَ الأشجارِ، ستراهُ مختلفاً عن جحمةِ الفرسِ، اسمع قهقاعِ الدبّ، ستراهُ مختلفاً عن قطقطةِ القطة، اسمعْ خريرَ الماءِ، ستراهُ مختلفاً عن خشخشةِ القرطاس، اسمع دويّ النحلِ، ستراهُ مختلفاً عن مواءِ الهرّ، اسمعْ دبيبَ النملِ، ستراهُ مختلفاً عن نباحِ الكلبِ، اسمع نقيقَ الضفادعِ، ستراهُ مختلفاً عن زمارِ النعامةِ، اسمع نعيقَ الغرابِ، ستراهُ مختلفاً عن هديلِ الحمامِ، اسمع سجيرَ النارِ، ستراهُ مختلفاً عن صريرِ الباب، اسمع نهيقَ الحمارِ، ستراهُ مختلفاً عن يعارِ المعزِ، اسمع دويّ الهواءِ، ستراهُ مختلفاً عن قلقلةِ المفتاحِ، اسمع ضغيب الأرنبِ، ستراهُ مختلفاً عن نغماتِ الأوتار .

ستتعلّمُ من كلّ صوتٍ تسمعهُ، ويمكنُ لكَ أن تجري حواراً صامِتاً مع هذهِ الأصوات، فتراها تستجيبُ وتحاورُك بما أنتَ عليهِ من صمتٍ.

يقول جرير :

جرحُ السّيفِ تُدملهُ فيبرأُ ويبقى الدّهرُ ما جرح اللسان❐

مقالات

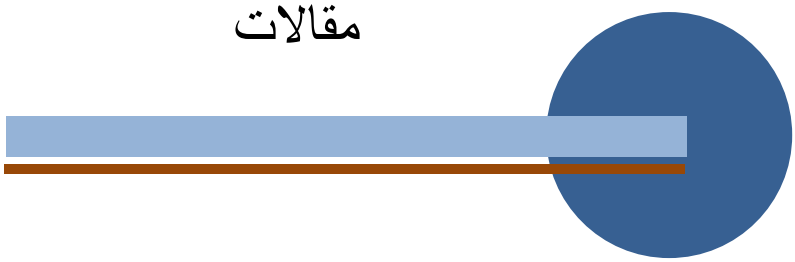

- هل ستلحق الموصل بكوسوفو؟	د. سعد الديوه جي
- دوائر المعنى وخطاب الواقع	د. سامي محمود
- دوافع دخول الإسـرائيليات في الفكر الإسلامي	د. سنان أحمد
- القول بأبدية العالم طريقة لإنكار يوم القيامة	د. أكرم فتاح
- معضلة التوريث وإشكالية تجديد الدماء الشابة في العمل الإسلامي	محمد صادق أمين
- الخطاب الإسلامي والتجديد	سالم الحاج
- الستون وقد بلغتها!	عمار وجيه

هل ستلحق الموصل بكوسوفو؟

سعد سعيد الديوه جي

✍لا نقصد في هذا الطرح بمصطلح (الموصل) مدينة الموصل وحدها، وإنما محافظة (الموصل - نينوى) بحدودها الحالية، أو ربما بنوع من التداخل مع كوردستان العراقية، ليكون المصطلح شاملاً لـ(ولاية الموصل) العثمانية، وهو ما تقتضيه مصالح الدول المتصارعة على النفوذ في المنطقة، ومنهما النفط والغاز، وطرق نقلهما، ناهيك عن إقامة القواعد العسكرية الدائمة، وحماية إسرائيل.

والعراق - بوضعه الحالي - وضع قلق، ومثخن بالمشاكل، تحت وطأة الطائفية، والفساد، وينتظره مستقبل غامض، كما جرى لـ(يوغوسلافيا) في بدايات تسعينات القرن الماضي، عندما انقسمت إلى ستة دول، ثم تبعها (إقليم كوسوفو) الصغير، الذي تميز بالحكم الذاتي، ثم أرادت (صربيا)، وريثة يوغوسلافيا، ضمّه بالقوة، ولكن تحت القصف المكثف لحلف شمال الأطلسي (98-1999) اضطرت (صربيا) للانسحاب، وتمّ وضع الإقليم تحت حماية الأمم المتحدة، وحلف شمال الأطلسي، وهي سابقة جديدة في التاريخ الأوروبي، أي كان استقلالاً تحت إشراف دولي بدعم أمريكي وأوروبي، وكانت تلك الأحداث بعد أن تمرد الإقليم طالباً الاستقلال عن (صربيا).

في 17 فبراير شباط (2008م)، أعلن الإقليم انفصاله الكامل عن صربيا، والتي رفضته، ولكن أكثر من مئة دولة أعلنت اعترافها باستقلال (كوسوفو)، ومن ضمنها (تركيا)، وتم إقامة قاعدة لـ(حلف شمال الأطلسي) في هذا الإقليم، الذي تقارب مساحته 10 آلاف كم^2، وتعد من أكبر القواعد في أوروبا.

علماً أن عدد سكان الإقليم لا يتعدى حوالي (2 مليون)، غالبيتهم العظمى من الألبان، ولا يمتلك منفذاً للبحر، لأنه محاط بصربيا وألبانيا والجبل الأسود ومقدونيا.

والذي دفعنا للدوران حول بعض هذه الأفكار، هي زيارات سفراء الدول الأوروبية: (فرنسا، وألمانيا، والدنمارك)، إلى الموصل، دفعة واحدة، يوم 13 /2 /2021، وقبلها كانت زياره السفير البريطاني. وقد أعلن السفراء عن نياتهم الصريحة بالمساعدة في إعادة تعمير الموصل، ثم أعقبت تلك الزيارات استهداف وقصف بعض المواقع في (أربيل)، من قبل بعض الميليشيات، ولا ندري أكان ذلك صدفة، أم متعلقاً بهذه الزيارات.

جاء بعدها إعلان حلف شمال الأطلسي مضاعفة عدد قواته عدة مرات داخل العراق، ومن ضمنها القوات التركية، الموجودة أصلاً شماليّ الموصل.

ولا يمكن إهمال زيارة (البابا) للمنطقة، إن تمّت على أنها تصبّ في إرساء جذور المسيحيين في الموصل وسهل نينوى فقط، بعدما ازدادت هجرتهم إلى خارج العراق، ولكنها جزء من عملية مستقبلية تنتظر المنطقة على الأكثر.

ولا ننسى أن هذه الأحداث جاءت بعد تنصيب السيد (بايدن) رئيساً للولايات المتحدة، والمشهور عنه أنه كان من المشجعين على إقامة الفيدرالية في العراق، أيام كان نائباً لـ(أوباما) بين (2008- 2009).

إن انفصال زيارة السفير البريطاني عن زيارة باقي السفراء، يعيد للأذهان ذلك الصراع الخفي على المنطقة بين بريطانيا وفرنسا، بعد تخلي بريطانيا عن بعض تعهداتها في (سايكس بيكو) قبل أكثر من مئة عام، واستئثارها بمعظم مناطق ولاية الموصل العثمانية، والتي كانت ضمناً داخل النفوذ الفرنسي، وكان النفط، والموقع الاستراتيجي للمنطقة، من أهم العوامل التي دفعت إلى استئثار بريطانيا بالمنطقة.

فهل هنالك تنافر في المصالح بين بريطانيا ودول الاتحاد الأوروبي، بزعامة فرنسا، في الوقت الحاضر، أم هو نوع من التوافق اللا متجانس، برعاية أمريكية، ستكشف عنه الأيام القادمة؟

لقد كتب كثير من المحللين - بعد احتلال الموصل، وما حولها، من قبل الدواعش - بأن خريطة الشرق الاوسط ستتبدل، وإذا كان الأمر كذلك، فإن انتشار قوات عدة دول في

المناطق السورية المحاذية للموصل، وارتفاع حدّة الصراع الأمريكي - الإيراني داخل أراضي العراق، هي مؤشرات لهذه الحقيقة.

وهنا لا بد من الرجوع إلى بعض الحقائق التاريخية بشأن قضية الموصل، وتعقيداتها، ففي عام 1935م، كتب (هنري. أ. فوستر) كتاباً عن نشأة العراق الحديث، خصص فيه حيزاً كبيراً لـ(مشكلة الموصل)، التي حدثت بين تركيا وبريطانيا، بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى 1918م، وما صاحب ذلك من ملابسات انتهت بضم (ولاية الموصل) إلى العراق، بقرار من قبل (عصبة الأمم)، عام 1925م، وكان العراق قبلها يتكون من ولايتي البصرة وبغداد فحسب.

وقبل ذلك كانت بريطانيا قد استخدمت قوتها لفرض السيطرة على الموصل والعراق في (معاهدة لوزان) 1923م، وفرض شروطها على تركيا، ثم غلب اسم العراق على الولايات الثلاث، كما يقول (هنري. أ. فوستر).

ولكن تركيا لم تتخل ضمنياً عن حقها في الموصل، رغم إذعانها لمقررات لوزان رسمياً، فهل جاءت الفرصة للدخول مع قوات حلف الأطلسي، وبمشاركة التحالف، كما وضعت لها قدماً في سوريا؟

قبل مئة عام، كان لبريطانيا اليد الطولى، وحصلت على النفط والأرض، والآن تغيرت الأمور الجيوسياسية، ولكن الأطماع - إن صح التعبير - لم تتغير، وإنما ازدادت تعقيداً بدخول تركيا كحليف رئيسي في حلف الأطلسي، ودخول إيران وروسيا على أطراف اللعبة، ورعاية كل الأطراف لمجموعات ميليشياوية تعمل لخدمة أهدافها.

إن ما يدعو لإثارة هذه الأمور، قد يكون مردّه إلى اقتناع الحلفاء بصعوبة إدارة العراق كوحدة نفطية متكاملة، ووجود كميات هائلة من النفط والغاز في الحقول الشمالية للصحراء الغربية، حيث أثبتت آخر الدراسات أن العراق يقع في المرتبة الخامسة عالمياً في احتياطياته النفطية، والثاني عربياً.

فهل سيؤدي ذلك إلى تقسيمه إلى فيدراليات، أو كونفودراليات، تحت إدارة شبه مركزية في بغداد، وليس بالضرورة إلى تقسيمه على طريقة كوسوفو، وتكون عندها منطقه الموصل أكثر المناطق ترشحاً لأي نوع من التقسيم؟!.

ورجوعاً إلى مشكلة الموصل، فلا بد من الوقوف على نظرة (الآخر) إلى هذه المنطقة التي يصفها (هاري تشارلز لوقا)، في كتابه (الموصل وأقلياتها)، عام 1924م، بأن هذه المدينة لها أهمية جديدة في عيون العالم، وخصوصاً تنوعها الأثنوجرافي، وتاريخها الطويل،

لما يقارب الـ 4000عام ، وأن العالم المسيحي على استعداد للتخلي عن منطقة من مناطقه التاريخية.

ورغم أن منطقه الموصل تشابه القوقاز، الذي توجد فيه فسيفساء من الأجناس أكثر تعقيداً، ولكن المنطقة لم تعرف خلافات حادة إثنية أو دينية إلا قليلاً، وكانت السمة الأبرز في التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود (قبل خروجهم إلى إسرائيل، قبل حوالي سبعين عاماً)، وكذلك بين القوميات الرئيسية، وهم العرب والكورد والتركمان، لأن الرابطة الدينية كانت أقوى من الرابطة القومية، إلى ما قبل ظهورها بعد الحرب العالمية الأولى.

إن التواجد الأممي، والأوروبي – الأمريكي، واضح للعيان في مفاصل كثير من مناطق الموصل بعد هزيمة الدواعش، خصوصاً الوجود الكثيف للمنظمات الإنسانية، فهل هنالك أشياء ستحدث؟!

كما أن الدور التركي بدأ يأخذ أبعاده، ولو على استحياء في هذه التشكيلة، ناهيك عن وجوده العسكري، وفعالياته على أطراف المنطقة، وشمالها.

نحن نرى الظواهر، فهل هنالك أشياء لا ندركها؟ الجواب حتماً نعم، ولكن نوع من التغيير واقع لا محالة.

ولكن ليس بسيناريو كوسوفو بالكامل، عندها يكون التدخل الدولي برعاية حلف شمال الأطلسي وارداً بعد إعلان الحماية الدولية لسكان المنطقة، والأقوى هو الذي سيختار السيناريو حسب التوافق مع مصالحه❐

دوائر المعنى وخطاب الواقع

ا. م. د. سامي محمود إبراهيم
قسم الفلسفة / كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

في عالم مشحون بظواهر الظلم التي تمزق كبد العاقل كما يتمزق قلب المؤمن من دلالات الفسوق والتفريط في المقدسات على مذابح الشهوات، يستهلك الضمير، ويصبح العرى الفكري والأخلاقي سمة العصر بامتياز.

تحول العالم إلى لعبة كونية خطيرة تحكمها القوانين السائلة ونهايات اللايقين. فأرضنا لم تعد صلبة كما كانت. وعلى حبل غسيل الأحلام، تُنشر عقولنا المبتلة بالأوهام. تركنا التاريخ يكتب قصة الحاضر، وما زلنا نعصر بسنّ قلمه في صميم العقل، حتى فاضت الكلمة. بقي المعنى هائماً يردد أخبار مدننا المستباحة، لانتهاء سيرك المحاصصة، وكراسي المتفرجين. بيع الضمير العالمي في العلن، وحين سرق رغيف الجوع، أجمع الساسة على استباحة طينه، وجزموا بمصيره إلى سجون العذاب، وهم يسرقون حتى حبة الشعير من تنور الحياة. لم تبق على أبوابهم سوى رفات أحلام خاوية، يرتقها الأطفال من القمامة. وها هي الأرض تفرش عناءها على منصة الزمن، تتقصى خطى الضمائر، وتحمل الإنسان فينا أمانة. فحين رمى عقل الحداثة الغربية موقفه من الوجود، استيقظ (نيتشة) قائلاً:

أين الإله؟ أنا سأقول لكم ذلك! لقد قتلناه أنتم وأنا! نحن كلنا قتلناه! لكن كيف فعلنا ذلك؟ كيف استطعنا أن نفرغ البحر؟ من أعطانا الإسفنجة لمحو كل هذا الأفق؟ ماذا فعلنا بفصلنا الأرض عن شمسها؟ إلى أين تقود حركاتها، حركاتنا؟ أبعيداً عن كل الشموس؟ ألم نندفع في منحدر لا قرار له؟ أما يزال هناك أعلى وأسفل؟ ألسنا نتيه صوب عدمٍ لانهائي؟

لذلك تبدو العودة إلى مراجعة موقفنا من الفكر الفلسفي ضرورة ملحة، لبحث جذور الأزمة الفكرية التي نعانيها.

ومعظم الرؤى والتصورات التي يتبناها خطابنا الفلسفي متطرفة، وغير مكتملة، بل ومثيرة للسخرية..

لذلك بقيت إنسانيتنا مهدورة من قبل الطاغية المتسلط. وهذا كله تحركه الخلفية المعرفية للغرب، بأبعادها السلطوية كافة، وتغذيها النزعة الأمريكية العابرة للقارات. وهكذا نتيجة الشعور باليأس، يحاول الخطاب الفلسفي أن يخضع حياتنا للمصادفة، وينفي لدينا الشعور بالمسوؤلية، والوعي بالمستقبل. كل هذا أدى إلى انهيار المستقبل، ذلك البعد الإنساني المهم، وأصبحنا نحكم الظن والاحتمال.. وهذا ما يفسر عداواتنا، وحروبنا الطائفية، وقلة وعينا، وحيلتنا، وهواننا على العالم.

هكذا تنتصر الفلسفة الأمريكية، وآيديولوجياتها.. أما نحن، فبقينا نجتر نفايات الفكر الغربي، ونعمل على تسويق بضاعته التقنية، والتكنولوجية. ولو تم رفع هذه الوسائل، والتقنيات، لأنكرنا الزمن ذاته، ولثبت شرعاً وعقلاً: أننا لا نستحق العيش فيه.

فمن دموع ضحايا القتل والتهجير، تغتسل الفلسفة، لتصلي صلاة الغائب على العقل الشرقي.. من دماء الشهداء والمعذبين، ترسم أفكار العرب والمسلمين.. من حيرة المثقف الناظر في وجه السياسة البغيض، يُكتب مستقبل الأمة..

كما أن مستقبلنا الغائب اللاجيء إلى الغرب، مرجعيتنا فيه جحافل النازية، وخليفتها الفاشية. نتقمص على أسواره بشاعة الشوفينية، ووضاعة الليبرالية الصهيو أمريكية.. ونحن في وسط هذا التيار العنيف، نتنفس الألم، من بشاعة الكوارث التي سببتها أسطورة الفلسفات اللاعقلانية المدمرة.. فمن الصعب أن نعقل في حضارة الجنون الوحشي المستعر، ونحن أمام المسرح العالمي المخيف، نشاهد على خشبته الأحداث المرعبة؛ من تطرف، وقتل، وعنف، وإرهاب.. جماعات، وعصابات منظمة، وممولة لإثارة الفتن والمشاكل، شركات احتكارية عابرة للقارات، شعوب مهددة بالإبادة والتهجير.

وهكذا تتبدد أوهامنا في قصة الفلسفة، حتى النظام الأخلاقي والروحي تزيحه فوضى اللاحتمية، فالكون عقلاني بنسبة ضئيلة جداً.

أمّا التقنية والتكنولوجيا المعاصرة، والتي أفلتت من كل السلطات، بدأت تستهدف جينات الإنسان الحقيقي، تستهدف كل ما هو أخضر وجميل.. وعلوم الذرة والأشعة والطاقة ستوجه مدافعها إلى الأرض، ليتم تقسيمها، وإبادتها، ومن ثم مسح رسالة الإنسان عليها.

وليس مستغرباً أن يكون الموت، الغدر، الاعتداء، الاغتصاب، التجبر، الظلم، شعار فلسفة الآخر. لكن المستغرب، والأغرب، وعينا المعطل بحقيقة هذا الواقع. نغنّي الحرية، وصدورنا تتشظى أنيناً من أعظم أنواع القهر والأسر والعبودية. تنهشنا كلاب الإيديولوجيات المختلفة بأفكارها الهدامة المحظورة إنسانياً، والتي لا يمكن النيل منها، وكشف أسرارها، وأبعادها، ومخططاتها، إلا عندما نحمل شعار (فلنتفكر)، بروح صادقة أمينة، تكتب بمداد (العقل) و(الإيمان).

إذن، نحن بحاجة إلى الفلسفة، روحياً ومادياً، لنتمكن من آليات النهوض، نستثمر الذات الإنسانية في الوجود، فنتوسع داخل فلك الحضارة.

وبذلك نتخلص من حتمية السقوط والانحدار، إلى حتمية النهوض في مسار الحياة العالمية. هذا التحول يتزامن مع رؤية فلسفية عالمية كونية، تمتلك بصراً حاداً، يغوص في أعماق بئر الواقع، لينتشل سر كينونتنا الغامض !

معنى هذا أن الإجابة التي تغري طموح الفلسفة، وكبرياءها، محجوبة عن محض التفكير الإنساني المجرد المحدود ذي الوسائل المحدودة. أليست هذه دعوة لأن يلزم الفيلسوف حدوده، وأن يعرف المسالك والفجاج التي يمكن أن تمثل سبحاً للعقل والتجربة، ويعمل من خلالها ليراكم الحقيقة. أم أن الخوف الأزلي، الذي لا ينفك يلازم الفلسفة من المحدود والمحسوس، سيجعل من الفيلسوف مستكبراً عن الحقيقة، التي يدعيها هدفاً، ومحبوباً أسمى.

إن الدين وأسراره الروحية، والإنسان وعوالمه، والأخلاق والكون، هي محاور ثمينة يمكن أن تمثل موضوعاً يلبي طموح أو حاجة التفلسف لدى الإنسان الفيلسوف، وهو ما يجعل عقله دوماً منتبهاً؛ لأن السر العجيب والجميل الذي يحسه الفيلسوف داخل الإنسان، والمحيط الطبيعي، والكوني، أثمن من أن يغفل عنه. فالبحث والتأمل في المحسوسات والمعنويات، وأسرارها، هو ضرب من المتعة، ومن تحمل المسؤولية، لا ينفك يعطى للإنسان من المعقولات ذات الدلالة والمغزى، ما يجعله يرى من الآيات في النفس والآفاق، حتى يتبين له الحق. فآيات النظر دالة على النفس والآفاق، وعلى قيومها سيد الإنسان، وخالقه - سبحانه وتعالى-❐

دوافع دخول الإسرائيليات في الفكر الإسلامي

د. سنان سعيد

الإسرائيليات هي الأفكار والروايات اليهودية التي دخلت في متون بعض الأحاديث المنسوبة للرسول (ص)، وبعض شروحات القصص القرآني المنتشرة في بعض الكتب الإسلامية (التفاسير)، وكذلك عن معجزات وخوارق لبعض رجال بني إسرائيل، وكلها تخالف مقاصد القرآن الكريم، حيث لم يتطرق إليها، وإلى تفاصيلها، وبعضها تحاول التوفيق بين الروايات الإسلامية واليهودية، بدون الالتفات لمصداقية التوراة ككتاب تاريخي وعقائدي لا تُعرف لُغته الأُم، ولا متى كُتب، حتى أن عالماً لاهوتياً مثل (سبينوزا/ ت1677م)، يقول في كتابه الشهير (رسالة في اللاهوت والسياسة)، إذا استباح المرء لنفسه أن يُفسر صيغ نصوص الكتاب المقدس (التوراة) على طريقتهم - اليهود -، فلن يبقى لدينا نص واحد لا يمكن الشك في معناه الحقيقي.

وعلى كل حال، فالديانة اليهودية كانت منتشرة في الجزيرة بين القبائل العربية، وفي اليمن، وسواحل البحرين (الخليج العربي)، وفي قلب الجزيرة العربية؛ مثل: يثرب، وخيبر، وبطون متفرقة هنا وهناك. ويضرب (إسرائيل ولفنسون)، في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب)، مثلاً عن التداخل بين العرب واليهود، لأنهم ذوي أصول عربية.

وكان هنالك تداخل في بعض المفاهيم العقائدية قبل الإسلام، واستمرت بعده، ويضرب مثلاً لذلك عن الختان، وهو من أصول الدين الإسرائيلي، وعبر عنه الناموس الديني بأن كل من اختتن قد دخل في ذمة وعهد إبراهيم (ع)، ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختتن التعبير (مِلّة إبراهيم)، والعضو التناسلي بعد ختانه بالعبرية (مِلة= דָת)، وكل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم (حنيف = חניף).

وعندما ظهر الإسلام في (مكة)، وكان جل أهلها من عبدة الأوثان، لم يحصل صِدام يذكر مع أهل الكتاب، وخصوصاً اليهود، لأن الدعوة كانت منصبة على محاربة الوثنية.

وعندما انتقلت الدعوة إلى المدينة المنورة (يثرب)، وكان سكانها خليطاً من الوثنيين قبل إسلامهم (الأوس والخزرج)، وبعض القبائل اليهودية الذين يتكلمون العربية برطانة عبرية، ثم أسلم أهل المدينة، وقليل من اليهود، وصارت المدينة أشبه بدولة تمارس فيها حرية الاعتقاد، والشعائر، والمساواة، والعدل. حينما وضع الرسول (ص) دستور (وثيقة) المدينة في السنة الأولى للهجرة (623م)، الذي احتوى على (52) بنداً، منها (25) خاصة بأمور المسلمين، و (27) مرتبطة بالعلاقة مع أصحاب الديانات الأخرى، وخصوصاً اليهود والنصارى (أهل الكتاب)، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، وفي حال مهاجمة المدينة من قبل عدو، عليهم أن يتحدوا لمجابهته، وطرده. ومما جاء فيها: بأنه من تبعنا من اليهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وبينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين. وهذا ما ذكره (إسرائيل ولفنسون) في كتابه آنف الذكر، نقلاً عن المستشرق الروماني (جيورجيو).

رغم كل هذه المعطيات، فقد شعر اليهود بأنهم أمام موقف جديد، يفقدون فيه تعاليهم على أهل المدينة، كونهم أصحاب كتاب، وينتظرون مخلصاً (مسيحاً) يعيد لهم أمجاد سياسية ضائعة يجعلهم ظاهرين على غيرهم. ولهذا، عندما جاء الرسول محمد (ص)، كخاتم الأنبياء، ولا مخلص من بعده (مسيحاً منتظراً)، سواءً لبني إسرائيل أو لغيرهم، فقد شكل ذلك عقدة نفسية وعقائدية عند اليهود، لم يكن من السهل التخلص منها، فبدأت بوادر الصِدام العقائدي الذي تحول الى صِدام سياسي على النفوذ والسيطرة، ودخلت الأمور العقائدية كتحصيل حاصل. علماً أن كل ما جاء في القرآن عن أفعال بني إسرائيل في عهد موسى (ع)، وما بعده، من عبادة العجل، ومعصيتهم لموسى وهارون،

وامتناعهم عن دخول مصر، وغيرها، مذكورة في أسفار التوراة، ولم تكن اتهامات قرآنية، كما يبدو للبعض. وعليه، فلو اعترف اليهود بالإسلام، ورسوله، والقرآن، فذلك يعني التخلي عن التوراة والعقائد اليهودية.

في حين أن المسلمين لم ينكروا التوراة، والإنجيل، ولكن القرآن حذر مما لا يتطابق مع العقيدة الإسلامية، خصوصاً بما يتعلق بعصمة الأنبياء، وأخلاقهم. فمثلاً تذكر التوراة عن نوح (ع): "وشرب نوح من الخمر، وسكر، وتعرى في خيمته، 21- 11، التكوين". وجاء عن لوط (ع) بعد أن يئست ابنتاه من الزواج، قالت الكبرى للصغرى: "تعالي نسقي أبانا خمراً، ونضاجعه، ونقيم من أبينا نسلاً، 32-21، التكوين". وحتى النبي سليمان (ع)، صاحب الهيكل العتيد، لم ينجو من هذه الاتهامات، فيعاقبه الرب، "وذلك لأن سليمان تركني وسجد لعشتاروت آلهة الصيدونيين، ولكموش إله المؤابيين، وللملكوم إله بني عمون، 31-33، الملوك الأول"، والعشرات من هذه الأمثلة.

لقد كانت التوراة المتداولة آنذاك مكتوبة على الأغلب بالآرامية، مع شروحات بالعبرية، ولم تكن هنالك توراة بالعربية. ولهذا، كان العرب المسلمون يسمعون مثل هذه القصص، وغيرها، شفاهاً من الأحبار، واليهود. ولشعورهم بقدسية التوراة، فقد وقعوا في بعض الالتباسات، والشكوك، حول مصداقية بعض الروايات والقصص. لذلك، نبّه القرآن الكريم المسلمين بأن ليس كل ما مكتوب في التوراة له مصداقية عقائدية أو تاريخية، حيث تعرضت على مدار مئات السنين لشتى التغيرات والتحريفات، فيقول تعالى: (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّـهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿79﴾ البقرة).

وكذلك كان موقف الرسالة عموماً، والرسول (ص)، حيث لم ينكر التوراة، ونبه المسلمين على التعامل بحذر، فيقول الرسول (ص) بهذا الصدد: (لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون) (البخاري/ النسائي)، وقوله: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) (البيهقي).

ونظراً لكثرة الإسرائيليات وتشعبها، فقد ارتأينا الوقوف على أحد الأحاديث المنسوبة للرسول (ص)، وما يتعلق به في هذا المجال، كمثال من بين العديد منها. يقول الحديث المنسوب للرسول (ص): (لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث، كلهن في الله: قوله إني

سقيم، ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة أختي، وقوله بل فعله كبيرهم هذا) (أبو داود، والترمذي).

فقد جاء سُقم إبراهيم (ع) في الآية: (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ الصافات)، والسقم هنا هو ليس المرض الجسدي، ولكنه الإحباط النفسي، من خلال إصرار قومه على الكفر، ولم يكن في محادثة معهم، وإنما أعقب حالة السقم تنبيهه لقومه، بقوله: (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿87﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ الصافات)، وهذا لا يدخل في باب الكذب مطلقاً، ولكنه عتاب نفسي ذاتي أليم على إنكار قومه للوحدانية وخالق الكون والنجوم. وقد تم وضع المسألة، في سياق تبرير الحدث الثاني، بقوله لسارة (أختي)، وهي كارثة فكرية سنقف عندها قليلاً، لأنها تمثل نموذجاً صارخاً للإسرائيليات الشائعة في فكرنا الإسلامي، وبعض تفاسيرنا القرآنية.

ففي قصة إبراهيم (ع) في التوراة، هنالك ادعاء بأنه ذهب إلى (مصر) نتيجة مجاعة في أرض كنعان، وقال لزوجته (سارة)، وكانت فائقة الجمال، وخوفاً من أن يأخذها رجال فرعون لسيدهم: "قولي إنك أختي فيحسنوا معاملتي بسببك، ويبقوا على حياتي، 12،12، التكوين"، وهو سياق لا يليق بأناس عاديين، فكيف يليق بأبي الأنبياء؟! وهذه الفاجعة العقائدية تتكرر مرة أخرى مع (أبي مالك)، ملك جرار الفلسطيني، ويقول له صراحةً عن سارة: "هي أختي، ابنة أبي لا ابنة أمي، فصارت امرأة لي، 12،20، التكوين"، وهو إهانة لشخصية إبراهيم (ع)، حاشاه الله منها. ثم ينال إبراهيم - حسب ادعاء التوراة - الحظوة والمال من المعجب بجمال زوجته، كما فعل في المرة الأولى مع فرعون.!

وأما البعد الثالث في هذا الحديث، والذي وضع على أساس أنه كذب على لسان إبراهيم (ع)، بعدما حطم أصنام قومه، (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿58﴾ الأنبياء)، فهذا استهزاء بعقلية قومه، ولم يكذب عليهم، كما تصور مَنْ وضع هذا الحديث، (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿63﴾ الأنبياء).

وعلى هامش قصة إبراهيم (ع) تقول التوراة بأن اسم والد إبراهيم هو (تارح): "ولد تارح إبرام، وناحور، وهاران، 27-11، التكوين"، بينما في القرآن هو (آزر): (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿74﴾ الأنعام)، ومع ذلك يدخل بعض المفسرين في متاهة التوفيق، فيقولون بأن اسمه تارح، ولقبه آزر، ولله في خلقه شؤون.

وكذلك، فإن قصة النمرود لا أساس لها من الصحة، وجرى تمريرها على أنه الملك الذي أراد حرق إبراهيم (ع)، فمسألة وجود هذا الملك في زمن إبراهيم (ع) مسألة خيالية، فهو مذكور في التوراة على أنه "أول جبار في الأرض من ولد كورش، 8، 10، التكوين"، وكورش حفيد حام بن نوح، بينما إبراهيم (ع) هو الحفيد التاسع لسام بن نوح شقيق حام، فهل من المعقول أن يكون معاصراً لإبراهيم (ع)، وقد تم حشره في كثير من الأحاديث والتفاسير.

وهكذا، فإن نظرة المسلمين لاحقاً للتوراة، ككتاب تاريخي محاط بالقدسية، قد ركز في تفكيرهم كثيراً من الخرافات والأساطير، ثم دخلت في بعض التفاسير، أو تم إدخالها قسراً ضمن بعض الأحاديث المنسوبة للرسول (ص)، كما رأينا.

وهنا يجب أن نقف وقفة لا بد منها، وهي اعتقاد معظم المسلمين أن كل الإسرائيليات دخلت للفكر الإسلامي قصداً عن طريق اليهود، وهي مسألة ليست صحيحة بالكامل، إلا في بعض الحالات، وفي عصور متأخرة، حيث شكّل بعض اليهود الذين أسلموا حلقة بين الثقافتين اليهودية والإسلامية.

والحقيقة أن اليهود لم يغادروا بالكامل الجزيرة العربية في حياة الرسول (ص) وما بعده، حيث يذكر (إسرائيل ولفنسون)، في كتابه آنف الذكر، وبالاستناد لسيرة ابن هشام، وكتاب المغازي للواقدي، بأن بعض يهود بني قينقاع عادوا إلى المدينة المنورة بعد غزوة خيبر، ويؤكد شكّه، وبعض المستشرقين الآخرين، لأنهم كانوا يجيدون بعض الصناعات التي لا يجيدها غيرهم، كالصياغة، وصناعة السيوف.

إن هنالك روايات، ونصوص تاريخية، تدل على أن الرسول (ص) كان يعامل اليهود، بعد غزوة خيبر، بروح التسامح، حتى أنه أوصى عامله (معاذ بن جبل) بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم، وذلك بالاستناد إلى رواية (البلاذري). وكانت هنالك بين الغنائم، التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر، صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر الرسول (ص) بتسليمها لهم.

لقد بقي الاختلاط بين المسلمين واليهود في الجزيرة العربية، وخصوصاً الذين أعلنوا إسلامهم، وكذلك من بقي على دينه، فصاروا حلقة وصل في نقل قصص التوراة ورواياتها للمسلمين، المتعطشين لسماع تفاصيل هذه القصص والروايات، حيث لا مصدر لها خارج القرآن، إلا روايات أهل الكتاب، ولم ينتبه المسلمون أن القصص القرآني لا يعير التفاصيل أدنى اهتمام، فالعبرة هي الأهم، كذلك فإن الله قد فضّل بني إسرائيل، ولو كان تفضيل تأنيب: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

﴿٤٧﴾ البقرة)، وقد ترك ذلك بعض الدوافع لتصديق هذه القصص والروايات، بدون عرضها على النص القرآني.

فيهود اليمن بقوا في أماكنهم، وعلى هذا عومل يهود البحرين، إذ لم يُكلفوا إلا دفع الجزية، وبقوا متمسكين بدين آبائهم.

وكتب الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلى بعض بطون اليهود المتفرقة، أمثال بني حنينة، وأهل مقنا، بعد أن رجعوا لقراهم: (...، فإذا جاءكم كتابي هذا، فإنكم آمنون، ولكم ذمة الله، وذمة رسوله،...).

ولهذا يمكن استنتاج أن معظم يهود الجزيرة، عدا يهود اليمن، هاجروا بعد الفتوحات إلى بلاد الشام والعراق، حيث كانت الأجواء التجارية والاقتصادية أفضل من الجزيرة العربية وسواحل الخليج، واختلطوا بالمسلمين.

وأما أشهر من تركوا بصماتهم في الوسط الإسلامي، فهو كعب الأحبار، وهو من قبائل اليمن، إحدى القبائل العربية، التي تسمى ذي رعين أو قبيلة ذي كلاع، وكان عالماً كبيراً بالدين اليهودي، أسلم وعمره (80) سنة، على عهد أبي بكر الصديق (رض)، وتوفي عام (34هـ) عن عمر (104) سنة على عهد عثمان بن عفان (رض)، ثم رحل للشام، وكان معاوية بن أبي سفيان (رض) والياً عليها، وقد أذن أن يقص القصص في (جامع حمص)، وكان أول من قص القصص في الجوامع الإسلامية، وقد اشترك مع معاوية (رض) في غزو قبرص. ومن أشهر تلاميذه عبد الله بن عباس (رض)، ولذلك فإن كثيراً من الشبهات تحوم حول تأثيره على تفاسير وأحاديث عبد الله بن عباس (رض)، الملقب بحبر الأمة.

ومن المشاهير الذين أسلموا من اليمن: عبد الله بن سبأ، الذي تدور حول دوافع إسلامه كثير من الشكوك، لأنه يعتبر الأب الروحي لفرق الغلاة التي نشأت لاحقاً، وأدخل عن عمد بعض المفاهيم اليهودية بين أتباعه.

على النقيض من ذلك كان عبد الله بن سلام، الذي توجه بالنصح نحو أحبار اليهود قائلاً: "اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فو الله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأصدقه، وأعرفه. فقالوا: كذبت"، حسبما روى ذلك ابن هشام في سيرته.

وعليه، فكانت هنالك عدة تيارات بين اليهود في تأثيرها على بعض جوانب الفكر الإسلامي، وبما يتعلق بالإسرائيليات، منها ما هو مقصود، ومنها نتيجة التلاقح الثقافي الديني بين المسلمين واليهود في بعض الأساسيات، وعدم إنكار الإسلام لديانات اليهود والنصارى، وأنه جاء لإصلاحهما وإرجاعهما للطريق الصحيح❐

القول بأبدية العالم
طريقة لإنكار يوم القيامة

-الجزء الأول-

د. أكرم فتاح سليم/ أستاذ جامعة دهوك

✍يعتبر موضوع أبدية العالم مسألة فلسفية قديمة ومتجددة، وعادة ما يستخدم منكرو البعث والحساب والجزاء هذه المسألة، ويرددون بأن العالم أبدي لا نهاية له. ومعنى كلمة (الأبد) هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن (الأزل) استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، والسرمدي ما لا أول له ولا آخر.

واذا نظرنا الى موقف فلاسفة المسلمين عموماً، نراه قائماً على الربط بين فكرة الأزلية وفكرة الأبدية. فكل ما له انقضاء ونهاية له مبدأ. إذ إن صحة فناء العالم، بعد وجوده، يعد فرعاً من الحدوث. فمن قال إن العالم حادث، فقد قال بجواز فنائه. بمعنى أن العدم قبل الوجود، كالعدم بعده، لا تمايز بينهما، ولا اختلاف فيهما.

يرتبط هذا الموضوع بالعديد من المشكلات الكلامية، ومن بينها مشكلة حدوث العالم، وقدمه. كما يتضح ذلك في ردّ الغزالي على الفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة)، وتكفيره إياهم للقول بقدم العالم.

فقبل الحديث عن الأبدية، لا بد أن نتحدث عن الأزلية والأبدية معاً؛ لأنهما قضيتان متلازمتان تقريباً، إذا بحثت الأولى بحثت الثانية بشكل متماثل، وكل من تحدث في مسألة الأبدية، جعلها فرعاً للمسألة الأولى، أي الأزلية؛ لأن الحجج والأدلة نفسها جارية فيها. قال الغزالي: "ليعلم أن هذه المسألة فرع الأولى، فإن العالم عندهم، أي الفلاسفة، كما هو أزلي لا بداية لوجوده، فهو أبدي لا نهاية لآخره، ولا يتصور فناؤه". فالعالم عندهم معلول، وعلته أزلية أبدية، فكان المعلول مع العلة، ويذكرون أنه إذا لم تتغير العلة لم يتغير المعلول، وعليه بنوا منع الحدوث.[1] ويرون من الفعل مما لا نهاية له، فليس عندهم مبدأ ولا منتهى، ولذلك ليس يصدق على شيء منه أنه قد انقضى، ولا أنه قد دخل في الوجود، ولا في الزمان الماضي؛ لأن كل ما انقضى فقد ابتدأ، وما لم يبتدأ فلا ينقضي[2].

والأصح أن نقول إن الفعل يشمل الزمان مع الحركة، والزمان مقدار الحركة، فهما ليس أزليين، بل لهما بداية ونهاية. فهذا يعني أن الفعل، أي فعل، له بداية ونهاية، ويشمل جزءاً من أجزائه، فإذا كان جزء من أجزاء الفعل له بداية ونهاية، فالأجزاء الأخرى ينطبق عليها نفس الكلام.

فإذا كانت الفلاسفة استدلوا على منع الحدوث، بالقول بأن العالم معلول لعلّة أزلية أبدية، أي أن المعلول مع العلة ضرورة، وإذا لم تتغير العلة لم يتغير المعلول، فهم سلكوا هذا المسلك بالنسبة لأبدية العالم [3].

ولـ (إخوان الصفا) رؤية غريبة في هذا الموضوع، فهم لا يعتقدون بأبدية العالم [4]، إذ إن العالم إنسان كبير، وموت الإنسان مفارقة نفسه جسده، وبعد المفارقة يضمحل الجسد، ولا تبقى صورة الإنسان. وموت العالم هو مفارقة النفس الكلية له، فحينما تفارقه، تبطل حركات الأفلاك، وإذا هي بطلت بطل العالم، وتلك هي القيامة الكبرى. والنفس الكلية لها جانبان، جانب أعلى يتصل بالعقل الفعَّال، ومنه يتلقى الفيض، وجانب أدنى متصل بالهيولي، تفيض عليها الصور والأشكال. والنفس الكلية عندما تنتهي من إلقاء هذه الصور والأشكال، تترك الجسم وتتخلى عنه وتتجه بكليتها نحو العقل الفعَّال، فإذا هي تركت الجسم المطلق، يبقى هو من غير مدبِّر ومحرِّك، فيسكن الفلك عن الدوران، والكواكب عن السير [5]. ويحتجون لذلك بدليل من خمس مقدمات، و هي: -

1. الفاعل المختار، هو الذي يقدر على الفعل وتركه متى شاء، فهذه مقدمة موجبة صادقة، حسب الإصطلاح المنطقي، ويبدو أن هذه المقدمة عبارة عن شـرح معنى الاختيار.
2. كل فاعل حكيم مختار، فله في فعله غرض، وهذه موجبة كليّة صادقة، وهي شـرح لمعنى الحكيم.
3. الغرض هو عناية سابقة في علم الصانع قبل إظهار صنعته، من أجل أن يفعل ما يفعله، فإذا بلغ إلى غرضه قطع الفعل وأمسك عن العمل، وهذه مقدمة لتحديد معنى الغرض.
4. كل حكيم صانع إذا علم علماً يقينياً أنه لا يبلغ إلى غرضه في فعله، فإنه لا يعمل شيئاً فلا يطلبه، وهذه مقدمة كلية موجبة صادقة.
5. محرِّك الأفلاك والكواكب فاعل مختار حكيم قادر، وهذه مقدمة موجبة، فينتج من هذه المقدمات، أن العالم سيخرب يوماً.[6]

قد تعرض الفلاسفة والعلماء منذ زمن طويل إلى طبيعة الزمن، فهو كالنهر الجاري الذي يسير تياره بصفة منتظمة، من منبعه إلى مصبه، وهذا يعني أن للزمن بداية ونهاية، فإذا كانت له بداية فمن أين جاءت؟ وإذا كانت له نهاية، فهذا يعني أنه سيأتي زمن لن يكون فيه زمن، ولكن العقل لا يستطيع أن يتقبل هذا القول، فمن الصعب أن نتصور مثلاً أن

لحظة قد ظهرت بدون لحظة سابقة، أو أن تكون هناك لحظة قادمة بدون لحظة تتبعها[7].

والأصح أن أبسط مثال يمكن أن نقدمه هنا عن علاقة الحركة بالمكان وبالزمان، هي وسائل المواصلات، فلو فرضنا أن سيارة تتحرك بسرعة 70 كم في الساعة من أربيل[8] إلى زاخو[9] دون توقف، وبسرعة منتظمة، فإنك تستطيع أن تعتمد على الزمن لتحدد مكانها، أو أن تعتمد على المكان لتحدد الزمن، فنقول إنه بعد ساعة ستمر بمدينة عقرة[10]، وبعد ساعة أخرى ستمر بمدينة دهوك[11]. فحركة الأرض حول محورها، ثم حول الشمس، هي التي تعطينا إحساساً بمرور الزمن، ولولا هذه الحركة، ما عرفنا شيئاً اسمه الزمن. ذلك أن قياسات الزمن ليست في حقيقة الأمر إلا أماكن محددة في الفضاء، فالضحى أو الظهيرة أو الغروب، ليست إلا زوايا محددة بيننا وبين الشمس، أي أن الأرض تتحرك في المكان ليكون الزمان[12]. واعتبر العلماء قبل مجيئ (أينشتاين)[13] أن الزمن مطلق، شيء ثابت لا يتغير، كما أنه مستقل بذاته، ويسري سرياناً منتظماً، ولا أحد يستطيع أن يقول إن الزمن يبطئ أو يسرع أو يتوقف. وعندما جاء (أينشتاين)، ودرس الموضوع دراسة فيها تأمل وأصالة، بيّن أن الزمن شيء نسبي، وأن المتناقضات التي وقعنا فيها من قبل، وعند مناقشة موضوع السرعة والحركة في الكون، كانت منبثقة من خطأ؛ ولأننا اعتبرنا الزمن شيئاً ثابتاً لا يتغير، ولكنه في الواقع متغير ونسبي، وأنه يعتمد على الحركة، ويتغير تبعاً للحركة، أي لا بد أن يقيس كل من في الكون زمنه في الإطار الذي يتحرك فيه، حتى لا يقع في متناقضات كثيرة، ويرجعها إلى عدم تناسق قوانين الكون، رغم أن القوانين الكونية واحدة في كل أرجاء السماوات، ولكنها قد تبدو لنا غير متناسقة، نتيجة قصور قدراتنا في هذا الكون العظيم[14].

ويؤكد ابن سينا الارتباط التام بين الزمان وبين الحركة، فيؤكد أنه: "لا يتصور الزمان إلا مع الحركة، ومتى لم يحسّ بحركة، لم يحسّ بزمان، مثلما قيل في قصة أصحاب الكهف". ويذكر أيضاً: "أن الزمان ليس محدثاً حدوثاً زمانياً، بل حدوث إبداع، لا يتقدمه محدثه بالزمان والمدة، بل بالذات، ولو كان له مبدأ زماني، لكان حدوثه بعد ما لم يكن، أي بعد زمان متقدم، وكان بعداً لقبل غير موجود معه، فكان بعد قبل وقبل بعد، وكان له قبل غير ذات

الموجود عند وجوده، وكل ما كان كذلك، فليس هو أول قبل، وكل ما ليس أول قبل، فليس مبدأ للزمان كله. فالزمان مبدع، أي يتقدمه باريه فقط"[15]. والمكان ليس هيولي الشيئ ولا صورته، وليس هو الخلاء، إذ لا يوجد خلاء، والمكان شيء فيه الجسم، فإما أن يكون ذلك على سبيل التداخل، وإما أن يكون على سبيل الإحاطة. ويبحث ابن سينا في الخلاء لإبطاله، إذ لو كان الخلاء موجوداً، لكان فيه أبعاد، وفي كل جهة، وكان يحتمل الفصل في الجهات كالجسم. ولو كان الخلاء موجوداً، لما كان يختص فيه الجسم المحيط إلا بجهة تعين، فيجب أن يكون لهذا المحيط جهة. ولو كان خلاء لكان له حيز من الخلاء مخصوصاً، ووراءه أحياز أخرى خارجة عن حيزه، لا يتحدد بها حيزه، ولا تتحدد هي لحيزه. ويستمر ابن سينا في بيان أنواع التناقض التي تنجم عن افتراض وجود الخلاء، وينتهي من ذلك إلى إبطاله[16].
أمّا الأدلّة العلمية على بطلان أبدية المادة، فهي كثيرة. منها:

ما قاله (جون كليفلاند كوتران)، عالم الكيمياء والرياضيات: "تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد على سبيل الزوال والفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة. وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية". فالنتيجة: لا دليل على أن المادة أزلية وأبدية، والأدلة العقلية والعلمية الحديثة، تدل على أن المادةَ ليست بأبدية، بل لها بداية ونهاية، وبهذا تسقط دعوى أبدية المادة والعالم. ويوم البعث والحساب والجزاء آتٍ لا محالة، والشرير سيأخذ جزاءه بعذاب في جهنم، والصالح يأخذ جزاءة بالنعيم في الجنة. فالذين يثيرون موضوع أبدية العالم ينكرون خالق الكون - والعياذ بالله -، وكذلك يوم القيامة؛ يوم الجزاء والميزان❐

الهوامش

(1) موقف الغزالي من الفلاسفة، إشراف: دكتور السيد رزق الحجر، إعداد الطالب: موسى بن محمد بن هجاد الزهراني، إشراف: دكتور السيد رزق الحجر، رسالة ماجستير، 2003-2004م، قسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ص16.

(2) المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد، دكتور محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ص63-64.

(3) النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد، دكتور عاطف العراقي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1984م، ص182-183.

(4) إخوان الصفاء: جماعة سرية ظهرت بالبصرة، في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، اجتمعت على النصح والطهر من الدنس، وضعت لنفسها مذهباً، أرادت به أن تظهر الشريعة بوساطة الفلسفة من

الاجتهادات التي علقت بها، معتقدة أن الكمال إنما يتألف من امتزاج الفلسفة اليونانية بالشريعة الإسلامية. (الموسوعة الفلسفية، دكتور فيصل عباس، مركز الشرق الأوسط الثقافي للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، 1432 هـ = 2011م، ج14، ص66).

(5) إخوان الصفاء فلسفتهم وغايتهم، دكتور فؤاد معصوم، ص229-230.

(6) نفس المصدر السابق، ص230-231.

(7) الإنسان والنسبية والكون، دكتور عبد المحسن صالح، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م، ص74.

(8) أربيل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة، عاصمة إقليم كوردستان العراق، قام بعمارتها، الأمير مظفر الدين. تقع محافظة أربيل في وسط كوردستان، تبلغ مساحة المحافظة 13165كم2، وعدد سكانها يقدر بحوالي 1532081 نسمة، وتتألف محافظة أربيل من عدة أقضية: أربيل، بنصلاوة، جومان، ميركسور، خبات، كويسنجق، راوندوز، سوران، شقلاوة. (ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج1، ص140). وكذلك: http://www.cosit.gov.iq/ar/، الجهاز المركزي للاحصاء.

(9) زاخو: مدينة في أقصى شمال كوردستان الجنوبية، قرب حدود تركيا، على أحد روافد دجلة، لها مناخ لطيف في الصيف، وبارد في الشتاء، حولها جبال، وقممها مغطاه بالثلوج، وفيها بساتين وأشجار كثيرة، ومياه وافرة، يجري الخابور وسط المدينة، وهي مركز قضاء بمحافظة دهوك. (المنجد في الأعلام، لويس معلوف، ص276).

(10) عقرة: قلعة حصينة في جبال الموصل، أهلها أكراد، وهي شرقي الموصل، تعرف بعقر الحميدية، تقع شرق مدينة دهوك، مركز قضاء عقرة بمحافظة دهوك. (ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج4، ص136).

(11) دهوك: مركز محافظة دهوك، شمال غرب كوردستان الجنوبية، اشتهرت بجمالها، وبجبالها الشاهقة، وبساتينها. في عام 200هـ=916م، كانت دهوك مركزاً لإمارة (داسن سفلى)، بعد أن تأسست إمارة الشيخان، قضى عليها الأمير حسن بك بن سيف الدين بك، أول أمير بهدينان، سنة 891هـ=1486م. تبلغ مساحتها 10715كم2، أما عدد سكانها فيقدر بحوالي 1072324 نسمة. ولمحافظة دهوك سبعة أقضية: دهوك، زاخو، عقرة، شيخان، سميل، بردرش، عمادية. (بشير سعيد عبد الرحمن، بهدينان وعشائرها-دراسة تاريخية، مطبعة خاني-إقليم كوردستان العراق-دهوك، الطبعة الأولى، 1427هـ2006م، ص144). وكذلك: http://www.cosit.gov.iq/ar/، الجهاز المركزي للاحصاء.

(12) الإنسان والنسبية والكون، دكتور عبد المحسن صالح، ص76، مصدر سابق.

(13) أينشتاين (ألبرت): (1879- 1955م)، فيزيائي أمريكي، ألماني الأصل، وضع نظرية (النسبية)، وحاز على جائزة نوبل 1921م. (المنجد في الأعلام، لويس معلوف، ص96، مصدر سابق).

(14) الإنسان والنسبية والكون، دكتور عبد المحسن صالح، ص77-78، مصدر سابق.

(15) موسوعة الفلسفة، دكتور عبد الرحمن بدوي، ذوي القربى، الطبعة الأولى، تاريخ الطبع 1427هـ ج1، ص54.

(16) نفس المصدر السابق، ج1، ص55.

معضلة التوريث وإشكالية تجديد (الدماء الشابة في العمل الإسلامي)

محمد صادق أمين*

✍أسميتها معضلة؛ لأنها ببساطة سكين غرزت في خاصرة العمل الإسلامي في عموم العالم، تستنزف الموارد والطاقات، وتستعصي على الحل، رغم كثرة العقلاء في الحركة الإسلامية.

وأصل المشكلة يعود إلى وجود طبقة من يصطلح على تسميتهم بـ(أهل السابقة)، وهم الذين قضت سنن الله في خلقه أن يتحملوا أعباء التأسيس، وما يتطلب من تضحيات وخسائر، ولا يكون لهم نصيب في غنائم التمكين والانتصار والانتشار، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- سيد المؤسسين نموذجاً؛ مات في الستين، وما شهد استباب دينه في كامل الجزيرة العربية.

(أهل السابقة) في الحركة الإسلامية؛ لم يرضوا بتمام شِقّي سنّة الله في خلقه، وفي كل سانحة يأذن الله فيها للدعوة أن تتمكن ينبرون للصدارة، مردّدين: {لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ}، محتجين بتفريق عمر بين الفريقين، خلافاً لمنهج أبي بكر ورسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيستأثرون بالصدارة، رغم أن كل أدبيات الحركة تدعو للزهد في الإمامة، وعدم التقدم للإمارة، حتى أن الأنظمة الداخلية ضُمّنت فقرات تجرّم الدعاية الانتخابية، أو ما يعرف بـ(التثقيف).

ولكن؛ كيف يفسر هذا التناقض؟ التفسير بسيط، هم يرون في أنفسهم قوّاماً على دعوة الله، وتخليهم عن الصدارة يعني ضياعها، ولهذه الغاية تُستسهل كل الوسائل!.. هذا التفسير كان مسوغاً لبناء (اللوبيات) التي تقوم على مجاميع تعمل على التخادم القيادي، وتنشط في أزمنة الانتخابات؛ قدّموا فلان، أسقطوا فلان، فلان ينسحب لصالح فلان، فلان ينسحب من الرئاسة مقابل النيابة... إلخ، وتستخدم في سبيل ذلك كافة الوسائل من التثقيف (المُجرّم – بضم الميم وتشديد الراء)، إلى تمرير الأوراق من تحت الطاولة، وإلى أبعد من ذلك، وفي ذاكرة من يقرأ شواهد تغنيني عن إطالة السرد.

ولو نراجع مسيرة بعض الحركات -دون تسمية-، نجد أن (أهل السابقة) شكلوا حولهم هالة من الرجال المطيعين من أهل البلاغة والمبالغة في المديح والثناء، وعمل هذا الفريق المتجانس على التناقل الوظيفي بين مؤسسات العمل، بحيث لا يخرج الأمر - على مدار عقود - من دائرة هذا الفريق، فالرجل منهم يتنقل في المواقع القيادية دورة بعد أخرى، فتارة يكون على رقعة الشطرنج في موضع القلعة، وتارة يكون في موقع الحصان، ثم يرتقي ليصبح الوزير، ثم الملك.

ولو نعود بالذاكرة البعيدة والقريبة نجد أن مقام الملك على رقعة الشطرنج هو معضلة المعضلة، حتى قيل لأحد الملوك إن وجودك في الموقع الأول قد عطل دين الله، فضلاً عن دعوته، فيقول: (ثوب ألبسني إياه إخواني، لا أنزعه)، ثم قيل لمن بعده، بالإجماع: إن تشبثك بالموقع على الرقعة، هو السبب الوحيد لتعطل ماكنة العمل، فما زاده النصح إلا إصراراً.. ومن لا يستسلم لسنة التغيير، تدركه سنة التبديل، فسلّط الله عليه إخوانه، فدبروا له بليل.

وعلى هذا المنوال تمضي سنّة توريث العمل، (أهل السابقة)، ومعهم الهالة: دائرة أهل الحظوة المرضي عنهم، يتبادلون المواقع، كلما أزاح المرض والموت أحدهم، تقدم الذي يليه، ثم الذي يليه، والكل يتقدم بالسنّ ويشيخ مضياً في درب (التنكيس).. وبناء على دورة

التوريث هذه، تسير الحركة الإسلامية بذات العقلية والأدوات والسياسات وطرائق التفكير: يتبدل الأشخاص، ولا تتبدل الرؤى، إلا لماماً، في عالم وتيرته التسارع الجنوني، وهكذا بتنا نمضي في سلم التراجع هويّاً، عاماً بعد عام.

تجديد الدماء الشابة في جسم العمل، تحوّل في هذه الأثناء إلى مشكلة مستعصية، فدورة حياة التوريث آنفة الذكر شكلت قوة طاردة مركزية، تنفي الأجيال الشابة الصاعدة إلى الأطراف القصية، هناك حيث يمكن الاستثمار في الشباب وليس في المركز، من يقترب تتكفل به القوة الطاردة، وتعيده إلى حيث ينبغي له أن يكون.

في هذه الأثناء سنن الله لا تتوقف عن العمل، فبينما تشيخ القيادات في مواقعها على رقعة الشطرنج، وتتراجع قدراتها تبعاً لسنة التنكيس، وتتخلف مهارياً عن مواكبة تسارع العصر، تمضي الأجيال الشابة قدماً في الاتجاه المعاكس، فهي أقدر على استيعاب متغيرات العصر بسبب ثورة المعلومات، التي يسّرتها ثورة الاتصالات، فينضج الشاب العشريني بوتيرة القفزات تبعاً للعصر، ويصبح بحكمة شيخ بفضل ما سُخر له من إمكانات.

هنا يحصل التصادم، بين القديم الذي يأبى أن يُغير أو يتغير، والجديد الذي يأبى أن ينصاع أو ينقاد أو يُذعن، فحصلت الردة الشبابية عن التفاعل مع الدوائر الحركية، ما أدخل الحركة الإسلامية مرحلة الشيخوخة والتنازع المفضي إلى الفشل.

هذه المعادلة المعقدة أفضت إلى عدة مخرجات، منها: ترك العمل، الانشقاق الموازي، الانشقاق المعاكس، الاستعانة بطرف خارجي، وهو ما سأتحدث عنه لاحقاً، إن شاء الله❐

*** صحفي وكاتب- عضو مجلس شورى حركة العدل والإحسان- العراق.**

الخطاب الإسلامي والتجديد

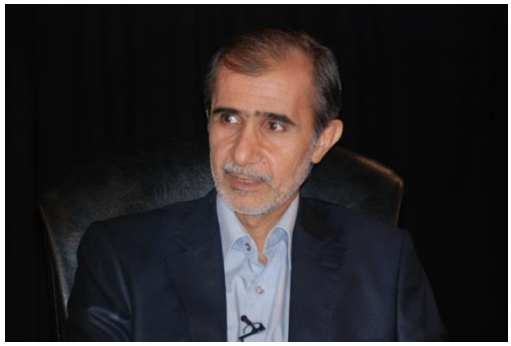

سالم الحاج

لا بد في البداية من تحديد ماذا نريد وما المقصود بالخطاب الإسلامي؟.. لأنه من المعلوم أن الخطاب الإسلامي ليس شيئاً واحداً، ولا تمثله جهة واحدة، فهناك أنواع كثيرة من الخطابات، كلها تدعي تمثيلها للإسلام الحق، بدءاً من خطاب وزارات الأوقاف، وليس انتهاء بخطاب الحركات الإسلامية السياسية، مروراً بخطاب الجماعات الصوفية، والسلفية، وغيرها.. فما هو الخطاب الإسلامي؟

فكل جهة من هذه الجهات لها خطابها الذي تتبناه وتدافع عنه، وتعتبره المعبر الحق عن الإسلام. والدخول في تفصيلات هذه الخطابات، ومضامينها، يحتاج إلى جهود كبيرة. ولكنا بدلاً من ذلك سنحاول أن نتحدث عن ذلك الخطاب الذي جاء به الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم –، في أواخر القرن الخامس الميلادي، والمتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، والذي لم يزل العلماء العاملون يقومون على شرحه وتقريبه وتفهيمه للناس!

وبداية لا بد من القول أن الإسلام، بوصفه ديناً، وخطاباً إلهياً - متمثلاً في القرآن الكريم، وتطبيقاته العملية المجسدة في حديث رسوله الكريم وسيرته - هو شأن مقدس، غير قابل للنقص أو النقض، وأمّا ما يقوم به العلماء؛ من شرح، وتبليغ، وتفهيم للدين، فهو شيء آخر لا يمتلك القداسة، ولا المعصومية، وهو شأن بشري، غير مقدس، ولا ينسب إلا

إلى أصحابه، والقائمين به.. وهذا هو الفرق بين الدين وفهم الدين.. بين الدين والخطاب الديني!

فالدين هو وحي الله سبحانه، وخطابه، الذي أنزله على رسوله الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم –، وأما الخطاب الديني فهو فهم المسلمين، واجتهاداتهم، وشروحهم القائمة على هذا الوحي.. فالأول هو شأن مقدس وإلهي، وثابت، في حين أن الثاني هو شأن بشري، غير مقدس، ومتغير، يقاس مدى صوابه وصحته، بمدى اقترابه ومطابقته للحق الذي يمثله الدين. ومن هنا نرى أن أي قراءة، أو شرح، أو فهم لنصوص الوحي، سيكون شأناً بشرياً، يعتوره النقص، وتعتريه النسبية، وهو ما نراه مجسداً في المذاهب، والفرق، والقراءات، والتفاسير، واجتهادات العلماء، وهي كلها شيء آخر غير الوحي، لا يحمل قداسته، ولا ثباته..

ولذلك، فنحن عندما نريد الحديث هنا عن الإسلام كما أنزله الله سبحانه على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وبارك-، فلن يسعنا أن نتجاوز المصدرين الأساسين للإسلام: القرآن الكريم، وسنة الرسول المجسدة له.. ولكننا ما إن نبدأ بالأخذ من هذين المصدرين، والتلقي عنهما، حتى يبدأ الاختلاف، وتنشأ الفرق والمذاهب، وتتباين التفاسير والتأويلات، وكل يخرج منهما بما فهم وعلم.. أي إن الطريق ينفتح واسعاً أمام الفهوم والاجتهادات البشرية..!

وتلك هي سنة الله، وحكمته.. فلا عصمة، ولا قداسة، ولا ثبات، لغير الوحي، وكل ما سواه فهو فهم بشري نسبي.. فالتعامل البشري مع النص الإلهي، والتفاعل معه، وما ينتج عنه من اجتهاد، وخطاب، هو الذي يأخذ بخطى البشر نحو التجديد الدائم، في ظل هداية الوحي وعنايته.. وهذا هو الباب الواسع الذي فتحه الإسلام أمام البشرية، فيما عرف بـ (الاجتهاد)، و(التجديد)!

وهذا الأمر يثقل كاهل الإنسان بالمسؤولية، من جهة، ولكنه يفتح أمامه طرق التقدم والازدهار، ومواجهة تغيرات الزمان والمكان، من جهة أخرى.. لأن قطعيات الدين (الوحي)، ليست من أجل قطع الطريق عليه، أو اضطهاده، بل هي التي تحدد له مسار الطريق، وتهديه، وتسدده، إن جرى التعامل معها كما هي، وليس كما جرى في تاريخ كثير من أتباع دين الله، الذين ساروا على عكس مقاصد الدين، وخاصة خارج سياق الإسلام..

ولذلك، فليس ثمة شيء محدد ودقيق ومتعال على الزمان والمكان يمكن أن نطلق عليه اسم الخطاب الإسلامي، ولكننا أمام خطاب متغير، ومتعدد، ينتح من الوحي، ويستلهم منه، ويتكئ عليه، وهو في تطور وتغير مستمرين، بحسب تغير الزمان والمكان..

فالقرآن الكريم خطاب الله تعالى إلى العقل البشـري، مطلـق العقـل البشـري، ولـيس العقل الذي كـان يعـيش في الجزيـرة العربيـة يومـذاك، والمحـدود بمعطيـات ذلـك الزمـان والمكان. وهذا واضح من توجيه القرآن لمشـركي العـرب، وتنبـيههم إلى عـدم جـدوى طلـب المعجزات والخوارق من النبي المرسل إلـيهم، ذلـك أنـه سـبحانه قـد قـرر مخـاطبتهم عـن طريق عقولهم، بعد إذ مضـى زمن كان العقل البشـري فيه أدنى من أن يفهم هـذه اللغـة الرمزية، وكان لا يفهم إلا ما يراه عن طريق حواسه:

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ).

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ).

وهذا التوجه بالخطاب إلى العقل، هو الذي فتح الباب أمـام ولادة الخطـاب الإسـلامي، بالمعنى الذي تحدثنا عنه أعلاه.. هذا الخطاب الذي يتميز بأنه خطاب مفتـوح، وأنـه عـلى الرغم من استناده إلى نص مقدس، واعتماده عليه، فإنه هو في ذاته لا يمتلـك القداسـة، ولا يعدو أن يكون خطاباً وفهماً بشـرياً.. وحتى (اجتهاد) الفقهـاء المسـلمين، عـلى الـرغم مـن كونه قائماً على أساس النص المقدس، ويستلهم منه، إلا أنه ليس ملزماً للناس، بل هـو فهـم للدين، واجتهاد فيه، لا يلزم إلا صاحبه.. ولا يلزَم به الناس إلا في حالة أن يتبناه أولو الأمـر، فيكون آنذاك قانوناً بشـرياً، له قوة القانون وإلزامه.. ولا يعني هذا – بطبيعة الحـال – أن التزام المسلمين بآراء الفقهـاء، واجتهـاداتهم، في المسـائل الفقهيـة المختلفـة، هـو شيء غـير سوي، أو خاطئ، بل هو الأمر المطلوب لكـل مـن كـان عـاجزاً عـن الاجتهـاد وفقـه الـدين بنفسه، فيتعبد آنذاك باتباع آراء الفقهاء واجتهاداتهم، و(مذهب العـامي مـذهب مفتيـه) على ما استقر عليه العمل بين العلماء.. وقصدنا ها هنا أن النـاس – آحـاد النـاس – ليسـوا ملزمين باتباع رأي فقهي معين، أو اجتهاد عالم من العلماء، دون غيره، باعتبـاره دينـاً ملزمـاً لهم، فليس لأحد – بعد رسول الله صلى الله عليه وبارك – عصمة من الخطـأ، وكـل يؤخـذ منه ويرد عليه إلا المعصوم – عليه الصلاة والسلام -.

فالخطاب الإسلامي، إذن، هو خطاب بشـري تماماً، ليست له قداسة الـدين، ولا ثباتـه، بل هو فهم للدين، يتغير بتغير الزمان والمكان، فهو خطاب في خدمة الإنسـان، ويـدور مـع مصالحه، وحاجاته، فحيثما كانت المصلحة فـثمّ شـرع اللـه، حسـبما أكـده علـماء الإسـلام الأعلام[159].

([159]) يقول ابن تيمية: "الشَّـرِيعَةَ مَبْنَاهَا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا وَتَعْطِيـلِ الْمَفَاسِـدِ وَتَقْلِيلِهَـا"، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنـور البـاز ، دار الوفـاء، ط3، 1426 هــ / 2005 م(512 /10) . ويقـول ابـن

ومن هنا نستطيع القول بأن الخطاب الإسلامي ليس خطاباً أيـديولوجياً، مغلقـاً، بمعنـى أنه وإن كان يتأسس على القرآن الكريم، وهو نـص مقـدس متعـال، ولكـن القـرآن الكـريم نفسه هو الذي يوجه المسلمين إلى أهمية العقل، وضـرورة تحريره مـن كـل مـا يغلّـه مـن أوهـام، أو عـادات وتقاليـد، أو أفكـار مسـبقة، وعـدم الخضـوع لأي سـلطة، وأي فكـرة أو أيديولوجيا يصنعها الإنسان، لأنها ثمرة عقل ناقص، ونسبي!

وليس هذا بمعنى الحجر على العقل الإنسـاني، والفكـر البشـري، أو تحقـيرهما، ولكنـه بمعنى تحرير عقـل الإنسـان وروحـه مـن الوقـوع في أسـر إنسـان مثلـه، والـرزوح تحـت سلطانه!.. وبهذا يتحرر الإنسان من أسـر ما سواه، ويتساوى مع غيره في الإنسانية، وحريـة الفكر، والعقل، ولا يبقى فوقه، أو أعلى منه، سوى الله - سـبحانه - في عـلاه، الـذي خلقـه، ثم خاطبه بالوحي عن طريق أنبيائه، وأرسل إليه هدايته، لينير له الطريق في حياتـه.. فـإذا تحرر الإنسان من أسـر غيره، وتلقى الهدايـة مـن الـوحي، فإنـه بهـاتين الهـدايتين (الـوحي والعقل) يسـتطيع تسـخير الأسـباب الكونيـة لإعـمار الأرض، وللإبـداع في مختلـف جوانـب الحياة.

وهكـذا، فـإن الخطـاب الإسـلامي خطـاب متجـدد، ومتغـير، بطبيعتـه، وإذا تهيـأت لـه الأسـباب، ولم يـتم التضـييق عليـه ومحاربتـه، فإنـه يجـدد نفسـه دائمـاً بصـورة طبيعيـة، ويستجيب لحاجات الناس وحوائجهم بشكل سلس..

ويكفي لكي يكون الخطاب الإسلامي كـذلك، ويقـوم بهـذه المهمـة بنجـاح وكفـاءة، أن يتوفر له أمران، هما: العلم، والحرية..

العلم، ونقصد به كل تلك العلوم التي يحتاجها الإنسان من أجـل أن يكـون قـادراً عـلى فهم الدين، والاجتهاد في ميادينه المختلفة، بعيداً عن الجهل والتعصب والأمراض الفكرية.

وأما الحرية، فنقصد بها ذلك الفضـاء المـادي، والثقـافي، الـذي يهيـئ الأرضـية الحاضـنة لحركة الاجتهاد والتجديد، والذي يمكّنها أن تتم دون أن تخضـع لأي شيء أو سـلطة خـارج سياقها، وأن تتحرر من أي ضغط أو مصـلحة خـارج المصـلحة العليـا للمسـلمين، أو بعيـداً عنها.

القيم: "فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كـان؛ فـثم شـرع اللـه ودينه ورضاه وأمره"، إعلام المـوقعين عـن رب العـالمين، دار الجيـل - بـيروت، 1973م (473/4). ويقـول الإمام الشاطبي: "المعلوم من الشـريعة أنها شـرعت لمصالح العباد؛ فالتكليف كلـه إمـا لـدرء مفسـدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معاً"، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1/ 1417هـ 1997م (1/ 318).

ولا يتحقق ذلك إلا عندما لا يكون لـ(السلطة) في ديار المسلمين – والمقصود: السلطة السياسية تحديداً - أن تتجاوز، أو تحتكر، حركة الفكر والعلم، ولا أن تشتري بأموالها العلماء والمفكرين، وتقيّدهم في مسارها، رغباً ورهباً..

ولقد لعبت (الأوقاف)، في الحضارة الإسلامية، دوراً كبيراً، ومؤثراً، في تحقيق شيء من ذلك، ولكن ذلك الدور قد تلاشى اليوم، مع استيلاء السلطة السياسية في الدولة الحديثة على مؤسسات الأوقاف، وجعلها تابعة للدولة، وحرمت بذلك العلماء والمفكرين من مصدر قوتهم، واستقلالهم.. ومع أن الدولة الحديثة قد حاولت معالجة ذلك بإيجاد بديل للأوقاف، متمثلاً في منظمات المجتمع المدني، ولكن ذلك لم ينجح في الدول المتخلفة، التي تحتكر فيها السلطة السياسية كل مناحي الحياة، وتستولي على كل مصادر القوة والثروة فيها، حيث تكون الدولةُ مصادَرَة لصالح الطبقة الحاكمة، ويكون العلم والعلماء أسرى لرغبات القوى الحاكمة، ومصالحها[160]..

ولذا، وفي ظل ظروف كالتي يعيشها العالم الإسلامي اليوم، فإن الأمل في ولادة خطاب إسلامي إصلاحي متجدد ومعاصر، لن يعدو أن يكون مجرد سراب في صحراء.

وعلى المسلمين - قبل كل شيء - أن يسعوا إلى إيجاد البيئة والأرضية التي تكون قادرة على استنبات مثل هذا الخطاب الإصلاحي، لأنه من دون هذه البيئة والأرضية لن يفلح ولن ينمو زرع ولا حياة.. ❐

([160]) ولا ننسى أن الاستقلال المالي هو عصب قوة منظمات المجتمع المدني هذه، ولو تسنى أن يعاد إحياء نظام الأوقاف، ويصان استقلالها، بعيداً عن سيطرة الدولة (السلطة السياسية)، وهيمنتها، لكان في ذلك مصدر قوة كبيرة لمنظمات المجتمع المدني في وجه تغول الدولة الحديثة.

الستون وقد بلغتها!

عمار وجيه

✍ليس من منهجي في الكتابة أن أتحدث عن أموري الشخصية، إلا في الحوادث التي مررت بها، للاستفادة أو الاعتبار .

لكن هذه المرة سأقف عند محطة مهمة في حياتي، فقد بلغت الستين، وما أدراك ما الستون؟

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه-، عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: «أعذرَ اللهُ إلى امرئ أخَّر أجلَه حتى بلغَ ستِّين سنةً» (رواه البخاري).

قال العلماء: معناه: لم يترك له عذرًا، إذ أمهله هذه المدةَ.

يُقالُ: أعْذرَ الرَّجلُ: إذا بلغَ الغايةَ في العُذرِ.

ففي العشرينات، ربما يمهل الشاب إن طاش مع الفتيات.

وفي الأربعينات، ربما يمهل إن تجاوز في المال أو السلطة.

لكن ماذا بعد الستين؟

وإن حُرمتَ من ملذات الدنيا قبل هذا العمر، فهل ستتمتع بها بعده؟!! مستبعد جداً..

صدقوني.. ما زلت أشعر بألم وندم شديد على كل ساعة أضعتها في غير عمل نافع.

وأشعر أن صلاتي فيها غفلة وسهو، وصيامي لا يخلو من أخطاء وتجاوزات، وأعمال الخير ربما شابها الرياء وعدم استحضار النية في وقتها..

أما التقصير والتكاسل.. فحدث ولا حرج..

ولا تنفع الندامة بعد هذا العمر إلا قليلاً (اغتنم خمساً قبل خمس... وشبابك قبل هرمك).

وصيتي للشباب الذين ما يزال في أعمارهم متسع كبير:

-أن لا يهبوا أعمارهم لترهات غيرهم .

(الله وكيلك.. لا يفيدك ملحد، ولا حاقد، ولا مدمن، ولا اتكالي كسول، ولا فارغ يقضي نصف حياته في الألعاب، ولا ضائع يشوش عقلك بالشبهات ليهرب من مواجهة الواقع)!

-صاحب العالم، والمتعلم، والعاقل، والمؤمن، والناصح، ورجل الأعمال النزيه، والحرفي، والماهر، والخبير، والإيجابي، والداعية، والرياضي، والفنان الهادف، وكل من يفجر طاقاتك الكامنة.

-ومهما طال البؤس سينتهي.

ويوم تزول الغمة إذا وجدت نفسك قد اكتسبت علوماً ومهارات ومالاً حلالاً وأنت على الهدى، ستكون نهضتك أسرع.

-وتزوج .. (ولا تطول المراهقة.. عيب)!

-وأرجوك، رجاء طبيب صاحب خبرة: (يرحم أمك وأبوك عوف الجگارة)..

وخفف من الوجبات السريعة..

و(قلل البيبسي والحلويات للربع)..

فالسكري، والضغط، وعجز الكلى

كوارث بكل ما تعني الكلمة من معنى

ولكنكم يا شباب قوم (ماخذيها بزودكم)..

ولات ساعة مندم..

عافاكم الله..

والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف❐

مرافئ

(المواطن الصحفي) في عالم الإعلام المتغير

د.يحيى عمر ريشاوي

منذ ظهور الوسائل الإعلامية وهي في تحول وتغير وتطور مستمر، من مطبوعة إلى مسموعة فمرئية، إلى عصر تكنولوجيا الإعلام والإعلام البديل والملتميديا وغيرها من المسميات، من (إعلام النخبة) إلى (الإعلام الجماهيري) إلى (إعلام الجماهير)، والتي غيرت بمجملها من شكل ومضمون العملية الإعلامية، ومن نمط التعامل مع البيئة الإعلامية، وكذلك من نظرتنا الشائعة والتقليدية للعملية الاتصالية: (مرسل، ورسالة، ومستقبل) .

واقع جديد طرأ بسرعة البرق على العملية الإعلامية، وفرض نفسه على الواقع الإعلامي والسياسي والاجتماعي والديني وغيرها، وصرنا نسمع عن أرقام وإحصائيات جنونية في أعداد المؤسسات والمنابر الإعلامية، وأعداد أكثر جنوناً في أعداد المنخرطين في الفضاء الإعلامي، والذين تجاوزوا مرحلة (التلقي)، إلى مرحلة (التفاعل والتشارك)، كما في تحليل (آلفن توفلر) للواقع الإعلامي في عصرنا الحاضر.

ومن أبرز مظاهر هذا التحول الإعلامي في هذا العصر، انتشار ظاهرة (المواطن الصحفي)، الذي فرض نفسه على دنيا الإعلام، وأحدث جدلاً واسعاً في الأوساط الأكاديمية والإعلامية، جدل انطلق من حقيقة التأثير الذي أحدثته هذه الظاهرة في طبيعة العمل الإعلامي، ومن الشكل التقليدي للعملية الإعلامية؛ من مؤسسات، ومراسلين، ومصورين، وحراس بوابة، وأجهزة، وأبنية، وغيرها من المتطلبات، جاءت هذه الظاهرة لتغير هذا الواقع إلى مواطن عادي مع جهاز صغير يسجل وينقل الحدث في اللحظة ذاتها وإلى أبعد مكان .

(المواطن الصحفي) صار الآن منافساً شرساً للمؤسسات الإعلامية التقليدية، بل ربما وأكثر من ذلك، بأن صار هو المصدر للمؤسسات الإعلامية، كما في (إعصار تسونامي، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وثورات الربيع العربي) وغيرها من الأحداث العالمية، والذي كان للمواطن الصحفي حضور قوي وفعال، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وغيرها من المنابر الإعلامية المتنوعة والحديثة.

الآن! المواطن الصحفي جزء لا يتجزء من العملية الإعلامية، يزاحم - وبصمت - الإعلام التقليدي، المتمثل بالمؤسسات الإعلامية الرسمية، ويوظف القنوات الإعلامية (السهلة الاستخدام، والرخيصة الثمن، والمنتشرة في كل مكان) في إرسال رسالته، وتوصيل صوته، والترويج لرؤاه ومعتقداته. هذه الظاهرة، وإن رافقتها بعض النقاط السلبية، إلا أنها قدمت الكثير من الخدمات للجمهور، وسدت الكثير من الفراغات الإعلامية في التغطية الخبرية للمؤسسات الإعلامية التقليدية. وأجبرت المؤسسات الإعلامية على الاعتراف بها، والتعامل معها، بل وأكثر من ذلك، في تخصيص أوقات من برامجها للترويج لها.. هنا وهناك !❐

تأملات في سورة

- تأملات في سورة النصر	صالح شيخو الهسنياني

تأملات في سورة النصـر (بشارات النصر والاستعداد ليوم الميعاد)

صالح شيخو الهسنياني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3) ﴾.

مقدمة:

✍يقول السعدي: "في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصـر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به. وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح

بحمده ويستغفره. وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصـر لهذا الدين، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين، وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصـر الله مستمرًا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

ومع هذا فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به. وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك. فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده - صلوات الله وسلامه عليه-"[161].

يقول سيد قطب: "هذه السورة الصغيرة.. كما تحمل البشرى لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بنصـر الله والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وكما توجهه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين يتحقق نصـر الله، وفتحه، واجتماع الناس على دينه، إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار..

كما تحمل إلى الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) البشرى والتوجيه.. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة، وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشـرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، والانطلاق والتحرر.. هذه القمة السامقة الوضيئة، التي لم تبلغها البشـرية قط إلا في ظل الإسلام. ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي هذا الهدف العلوي الكريم"[162].

عدد آياتها وكلماتها:

السورة مدنية، وعدد آياتها ثلاث، وليس في القرآن آية على الحاءِ غير الفتح. وعدد كلماتها تسع عشـرة كلمة.

---

[161] - تيسير الكريم الرحمن: (ص939).

[162] - في ظلال القرآن: (3994/6).

أسماؤها:

سُمّيت سورة النَّصر؛ لقوله: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله**﴾، وسورة التَّوديع، لما فيه من بيان نعي المصطفى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ﴿**إِذَا جَآءَ**﴾ لمبتدئها([163]).

ترتيب السورة في المصحف:

(سورة الكافرون- 109، **سورة النصر -110**، سورة المسد -111).

مناسبتها لما قبلها:

في سورة (الكافرون) حسم الأمر وانتهى، بقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي أصبحنا فريقين. فريق يعبد الله تعالى وحده، وفريق يعبد الأصنام والأوثان. إذن، هناك صدامات ومواجهات بين الفريقين إلى يوم القيامة، تنتهي بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، التي تبيّن أن الصراع مستمر إلى يوم القيامة. وهنا تأتي سورة (النصر) ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ لتحسم الصراع والظفر لصالح الموحدين.

مناسبتها لما بعدها:

لما انتصر المؤمنون في (سورة النصر)، على الكافرين في (سورة الكافرون)، وقابلوا النصر بالتسبيح والاستغفار، بيّن في (سورة المسد) ما سيؤول إليه مصير هؤلاء الكافرين يوم القيامة، والذي يشابه ما آل إليه مصير أبو لهب الذي ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، والذي كان لا يريد أن يدخل أحد هذا الدين، أو أن ينتصر محمد وأتباعه..

ترتيب النزول:

(سورة التوبة - 113، **سورة النصر -114**).

وقت نزولها:

عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ [النساء: 176]([164]).

---

[163] - الجامع لأحكام القرآن: (229/20)؛ بصائر ذوي التمييز: (550/1)؛ روح المعاني: (493/15).

[164] - صحيح البخاري: (4364).

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا ابْنَ عُتْبَةَ، أَتَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ؟، قُلْتُ: نَعَمْ ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: 1]، قَالَ: صَدَقْتَ([165]).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ عَلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ الْوَدَاعُ، فَأَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ الْقَصْوَاءِ فَرُحِّلَتْ لَهُ فَرَكِبَ، فَوَقَفَ بِالْعَقَبَةِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ"، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي خُطْبَتِهِ([166]).

وقيل: نزلت بمنى في حجة الوداع، فتعد مدنية. وهي آخر ما نزل من سور القرآن([167]).

قال **القرطبي**: "اختلف في آخر آية أنزلت. فقيل ما قال البراء. وقال ابن عباس: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 2]، وقيل: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: 145]. والجمع: أن يقال: إن آية الكلالة آخر ما نزل من آيات المواريث، وآخر آية أنزلت في حصر المحرمات: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ... ﴾، والظاهر أن آخر الآيات نزولاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ لأن الكمال لما حصل لم يبق بعده ما يزاد ، والله أعلم.

وأما قوله: "آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ"؛ فقد فسَّر مراده بقوله في الرواية الأخرى: "أنزلت كاملة"، ومع ذلك: فقد قيل: إن آخر سورة نزلت: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: 1].

وقد اختلف في وقت نزولها على أقوال: أشبهها قول ابن عمر: إنها نزلت في حجَّة الوداع، ثم نزلت بعدها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فعاش بعدها ثمانين يومًا، ثم نزلت بعدها آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا، ثم نزل بعدها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128]، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يومًا، ثم نزلت بعدها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 281]، فعاش بعدها إحدى وعشرين يومًا. وقال مقاتل: سبعة أيام. والله أعلم"([168]).

يقول ابن عاشور: "ويحتمل، على قول القائلين بأنها نزلت عقب غزوة حنين، أن يكون الفتح قد مضى، ويكون التعليق على مجموع فتح مكة، ومجيء نصر من الله آخر،

---

[165] - صحيح مسلم: (3024)؛ سنن النسائي الكبرى: (11649).

[166] - السنن الكبرى للبيهقي: (9682).

[167] - الزمخشري، الكشاف: (810/4)؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: (520/2).

[168] - المفهم: (31/15).

ودخول الناس في الإسلام، وذلك بما فتح عليه بعد ذلك، ودخول العرب كلهم في الإسلام سنة الوفود"([169]).

يقول عبد الكريم الخطيب: "إن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وفي أشد مواقف النبي حرجاً وضيقاً، وهو في مواجهة أهل الشرك والضلال، فكانت مدداً من أمداد السماء، وزاداً من عند الله، يتزود به النبي وأصحابه، فيما امتحنوا به في أنفسهم وأموالهم"([170]).

موضوعها:

الإيذان بقرب وفاته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وحثه على لزوم التسبيح بحمد الله، واستغفاره.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَاطِمَةَ، فَقَالَ: (**إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**)، فَبَكَتْ، فَقَالَ: (**لَا تَبْكِينَ، فَإِنَّكِ لَأَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي**)، فَضَحِكَتْ. فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَتْ لَهَا: رأَيْنَاكِ بَكَيْتِ، ثُمَّ ضَحِكْتِ. فَقَالَتْ: إِنَّهُ قَالَ لِي: (**نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**) فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: (**لَا تَبْكِي، فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي**)، فَضَحِكْتُ([171]).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: "إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ"، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا**﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ، وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا. فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ**﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾. قَالَ عُمَرُ: "مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ"([172]).

---

[169] - التحرير والتنوير: (591/30).

[170] - التفسير القرآني للقرآن: (1700/16).

[171] - المعجم الأوسط للطبراني: (883)، وأخرجه الإمام أحمد (1873) مختصراً دون ذكر فاطمة؛ دلائل النبوة للبيهقي: (167/7).

[172] - صحيح البخاري: (4294).

قال ابن كثير: "وأما ما فسر به ابن عباس، وعمر - رضي الله عنهما - من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نفسه الكريمة: واعلم أنك إذا فتحت مكة ـ وهي قريتك التي أخرجتك- ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا، والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**﴾"([173]).

عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ [يوم الفتح]، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ، أَوْ: أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الكَلاَمَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ[174] بِإِسْلاَمِهِمُ الفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ. فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلاَمِهِمْ([175]).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: 1] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَعْدَ ذَلِكَ: (**جَاءَ الْفَتْحُ، وَجَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ**)، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا أَهْلُ الْيَمَنِ؟، قَالَ: (**قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ قُلُوبُهُمُ، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالْفِقْهُ يَمَانٌ**)([176]).

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ، آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يَقُولُ: (**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ، وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ:** ﴿هؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18])([177]). النَّجْوَى: إسرار الحديث[178].

---

[173] - تفسير القرآن العظيم: (512/8).

[174] - أي: تنتظر.

[175] - صحيح البخاري: (4302).

[176] - سنن النسائي الكبرى: (11648).

[177] - اللؤلؤ والمرجان: (1761).

[178] - القاموس الفقهي: (349/1).

كَنَفَهُ: يقال: كَنَفَهُ الله، أي: رعاه وحفظه. وهو في حفظ الله وكَنَفِه، أي: حِرْزِه[179]. وقيل: يستره. وقيل: يرحمه ويلطف به. والكَنَف: الجانب والناحية. وهذا تمثيل لجعله تحت ظل رحمته يوم القيامة[180].

قال الكرماني: الكنف الجانب والساتر والعون، يقال: كنفت الرجل أي: صنته وحطته وأعنته. وقال الطيبي: كنفه حفظه وستره من أهل الموقف، وصونه عن الخزي والتفضيح، مستعار من كنف الطائر، وهو جناحه، يصون به نفسه، ويستر به بيضه فيحفظه[181].

قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ**﴾

التَّسْبِيحُ: تنزيه الله تعالى. وأصله: المرّ السّريع في عبادة الله تعالى. وجعلَ ذلك في فعل الخير، كما جعل الإبعاد في الشّـرّ، فقيل: أبعده الله. وجعل التَّسْبِيحُ عامّاً في العبادات؛ قولاً كان، أو فعلاً، أو نيّة[182].

أصل التسبيح: التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص. فمعنى سبحان الله: تنزيه الله.

وقيل معناه: التسرع إليه والخفة في طاعته.

وقيل معناه: السرعة إلى هذه اللفظة. وقد يطلق التسبيح على غيره من أنواع الذكر مجازاً، كالتحميد والتمجيد وغيرهما. وقد يطلق على صلاة التطوع والنافلة. ويقال أيضاً للذكر، ولصلاة النافلة: سبحة. وإنما خصت النافلة بالسبحة، وإن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح، لأن التسبيحات في الفرائض نوافل، فقيل لصلاة النافلة سبحة، لأنها نافلة كالتسبيحات والأذكار في أنها غير واجبة[183].

سُبْحان: كلمة تنزيه وتقديس، أو تعجّب. ولا تقال إلاّ لله تعالى. سبحانَ الله: أنزّه الله عن كلّ سُوء[184].

قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾

يعني: فسبح ربك، وعظّمه، بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده. فإنك حينئذ لاحق به، وذائق ما ذاق مَنْ قبلك من رُسله من الموت[185].

---

179 - العين: (381/5).

180 - النهاية لابن الأثير: (205/4).

181 - عمدة القاري للعيني: (287/12).

182 - مفردات الراغب: (ص392).

183 - النهاية: (331/2).

184 - معجم اللغة العربية المعاصـرة: (1024/2).

185 - جامع البيان: (668/24).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) صَلاَةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ**﴾ [النصر: 1] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: (**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**)([186]).

عن عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ([187]).

قال **النووي**: "معنى يتأول القرآن: يعمل ما أمر به في قول الله عز وجل: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾[النصر: 3]. وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول هذا الكلام البديع في الجزالة، المستوفي ما أمر به في الآية، وكان يأتي به في الركوع والسجود، لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها، فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذي أمر به، ليكون أكمل. فسبحان الله معناه براءة وتنزيهاً له من كل نقص وصفة للمحدث. قالوا: وقوله وبحمدك، أي وبحمدك سبحتك، ومعناه: بتوفيقك لي، وهدايتك وفضلك علي سبّحتك، لا بحولي وقوتي. ففيه شكر الله تعالى على هذه النعمة، والاعتراف بها، والتفويض إلى الله تعالى، وأن كل الأفعال له، والله أعلم. وفي قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (**أستغفرك وأتوب إليك**)، حجة أنه يجوز، بل يستحب، أن يقول: أستغفرك وأتوب إليك"([188]).

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ مَوْتِهِ: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**) قَالَتْ: وَكَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تَدْعُو بِدُعَاءٍ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو بِهِ قَبْلَ الْيَوْمِ، فَقَالَ: (**إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَمًا فِي أُمَّتِي، وَأَنِّي إِذَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الْعَلَمَ أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ، فَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ**): ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا**﴾([189]).

---

[186] - صحيح البخاري: (4967).

[187] - اللؤلؤ والمرجان: (275).

[188] - شـرح مسلم: (295/3).

[189] - مسند الإمام أحمد: (25508)، حديث صحيح.

معاني الكلمات:

قوله تعالى: ﴿نَصْرُ﴾:

النصـر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصـر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها، من قحطها. ثم قيل: المراد بهذا النصـر نصـر الرسول على قريش (الطبري). وقيل: نصـره على من قاتله من الكفار، فإن عاقبة النصـر كانت له([190]).

قوله تعالى: ﴿الْفَتْحُ﴾:

الفتح هو فتح مكة، عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: هو فتح المدائن، والقصور. وقيل: فتح سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم([191]). فإنّه يحتمل النّصـرة والظّفر والحكم، وما يفتح الله تعالى من المعارف.

وقيل: يوم إزالة الشّبهة بإقامة القيامة، وقيل: ما كانوا يَسْتَفْتِحُونَ من العذاب ويطلبونه([192]).

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾:

يعني الإسلام، أضيف إلى لفظ الجلالة تشريفاً وتعظيماً.

قوله تعالى: ﴿أَفْوَاجًا﴾:

جماعة من الناس تأتي في وقت واحد. وقيل: الجماعة المارة المسـرعة، والجمع: أفواج([193]).

قوله تعالى: ﴿تَوَّاباً﴾:

اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي يتوب على عباده، ويقبل توبتهم([194]).

الغَفْرُ: إلباس ما يصونه عن الدّنس، ومنه قيل: اغْفِرْ ثوبك في الوعاء، واصبغ ثوبك، فإنّه أَغْفَرُ للوسخ. والغُفْرَانُ والْمَغْفِرَةُ من الله، هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب([195]).

الغفران يَقْتَضِي إِسْقَاط الْعقَاب، وَإِسْقَاط الْعقَاب هُوَ إِيجَاب الثَّوَاب، فَلَا يسْتَحق الغفران إِلَّا الْمُؤمن الْمُسْتَحق للثَّواب، وَلِهَذَا لَا يسْتَعْمل إِلَّا فِي الله([196]).

---

[190] - الجامع لأحكام القرآن: (22/229-230).

[191] - الجامع لأحكام القرآن: (22/230).

[192] - مفردات الراغب: (ص622).

[193] - معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية: (3/55)؛ معجم اللغة العربية المعاصـرة: (3/1751).

[194] - معجم اللغة العربية المعاصرة: (1/304).

[195] - الصحاح: (2/770)؛ مقاييس اللغة: (4/385)؛ مفردات الراغب: (ص609).

[196] - الفروق اللغوية للعسكري: (ص235).

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾:

الخطاب لرسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه، وعلى سائر المؤمنين، والمعنى: إذا نصـرك الله يا محمد على أعدائك، وفتح عليك مكة أم القرى.

قال المفسرون: الإخبارُ بفتح مكة قبل وقوعه، إخبارٌ بالغيب، فهو من أعلام النبوَّة([197]).

قال ابن عباس: إن النصـر صلح الحديبية، وقيل: النصـر إسلام أهل اليمن([198]).

وصف النصـر بالمجيء، يدل على أن النصـر كان كالمشتاق إلى محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وذلك لأن ذلك النصـر كان مستحقاً له بحكم الوعد، والنصـر لا يكون إلا من الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْـرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 126]، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة، فكذا هاهنا. أو نصـر الله لأنه إجابة لدعائهم: متى نصـر الله؟ فيقول هذا الذي سألتموه([199]).

وقد يكون جواب ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ**﴾، قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا **جَاءَهُمْ نَصْـرُنَا** فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ **مَتَى نَصْـرُ اللَّهِ** أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

قوله تعالى: ﴿وَالْفَتْحُ﴾:

يعني بالفتح فتح مكة، والطائف، ومدن الحجاز، وكثير من اليمن، وغيرهما من البلاد التي فتحها رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)([200]).

يقول عبد الكريم الخطيب: "إذا ظرف شـرطيّ، لما يستقبل من الزمان.. وهذا يعنى أن ما بعدها لم يتحقق بعد، وهو إذا كان وعداً من الله سبحانه وتعالى، فإن تحققه أمر لا شك فيه، وهو واقع موقع اليقين من المؤمنين قبل أن يتحقق.

ونصـر الله والفتح، هو نصـر دين الله، بنصـر النبي والمؤمنين على المشركين، ومن اجتمعوا معهم على حرب النبي والمؤمنين، والوقوف في وجه دين الله، الذي يدعو إليه رسول الله..

---

[197] - صفوة التفاسير: (589/3).

[198] - ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل: (520/2).

[199] - مفاتيح الغيب: (336/32).

[200] - التسهيل لعلوم التنزيل: (520/2)؛ البحر المحيط: (563/10).

والفتح، هو فتح مكة، التي كان مشركوها هم القوة المحركة لكل عدوان على النبي والمؤمنين.. فإذا فتحت كان فتحها هو النصر المبين، والفتح العظيم..

وهذا يعنى أن هذه السورة، نزلت قبل فتح مكة، فكانت من أنباء الغيب، ومن البشريات التي بشر بها النبي والمسلمون، في وسط هذا الصراع الدائر بينه وبين المشركين..

وتكاد الأخبار التي يرويها المفسرون، تجمع على أن هذه السورة كانت من أواخر ما نزل من القرآن، وأنها نزلت بعد (سورة الفتح)، وقبيل وفاة النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بأيام، قيل عنها في أكثر الروايات أنها كانت ثمانين يوماً"([201]).

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

قال القرطبي: "أي العرب، وغيرهم. يدخلون في دين الله أفواجاً، أي: جماعات: فوجاً بعد فوج. وذلك أنه لمّا فتحت مكة، قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به طاقة. فكانوا يسلمون أفواجاً: أمة أمة. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرءون القرآن، وبعضهم يهللون، فسر النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لك، وبكى عمر، وابن عباس"([202]).

قال ابن عبد البر في ترجمة أبو خراش الهذلي الشاعر: "لم يبق عربي بعد حنين والطائف إلا أسلم، منهم من قدم على النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ومنهم من لم يقدم عليه، وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)"([203]).

قال ابن عاشور: "وإنما يراد عرب الحجاز، ونجد، واليمن، لأن من عرب الشام، والعراق، من لم يدخلوا في الإسلام، وهم: تغلب، وغسان، في مشارف الشام، والشام. وكذلك لخم، وكلب، من العراق، فهؤلاء كانوا نصارى، ولم يسلم من أسلم منهم إلا بعد فتح الشام، والعراق، بعد رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فلم يرهم رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يدخلون في دين الله رؤية بصرية. ويجوز أن يكون الله أعلمه بذلك، إن جعلنا الرؤية علمية"([204]).

---

[201] - التفسير القرآني للقرآن: (1700/16).

[202] - الجامع لأحكام القرآن: (230/20).

[203] - الاستيعاب: (1638/4؛ رقم الترجمة: 2928).

[204] - التحرير والتنوير: (593/30).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

أي إذا صليت، فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سبح: صل. عن ابن عباس: ﴿**بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾، أي حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح. واستغفره، أي: سل الله الغفران. وقيل: ﴿**فَسَبِّحْ**﴾، المراد به: التنزيه، أي نزهه عما لا يجوز عليه، مع شكرك له. واستغفره، أي: سل الله الغفران، مع مداومة الذكر([205]).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه، حامداً له - جل وعلا - زيادة في عبادته، والثناء عليه - سبحانه - لزيادة إنعامه عليك. فالتسبيح: التنزيه، لا التلفظ بكلمة سبحان الله. والمعنى: الجمع بين تسبيحه تعالى، وهو تنزيهه سبحانه عمّا لا يليق به من النقائص، وتحميده، وهو: إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له، لعظم ما أنعم سبحانه به عليه -عليه الصلاة والسلام-([206]).

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

قال ابن القيم: الاستغفار، إذا ذكر مفرداً يراد به التوبة، مع طلب المغفرة من الله عز وجل، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره. والستر لازم لهذا المعنى، كما في قوله تعالى: فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً.[سورة نوح: 10]، فالاستغفار بهذا المعنى يتضمن التوبة.

أما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، كما في قوله تعالى: وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه.[سورة هود: 4]([207]).

يقول ابن القيم: "الاستغفار نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح -عليه السلام- لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: 10-11]، وكقول صالح (عليه السلام) لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: 46]، وكقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 199]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

---

[205] - الجامع لأحكام القرآن: (231/20).

[206] - روح المعاني: (493/15).

[207] - معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية: (151/1).

والمقرون كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[هود: 3]، وقول هود (عليه السلام) لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود: 52]، وقول صالح (عليه السلام) لقومه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[هود:61]، وقول شعيب (عليه السلام): ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: 90].

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره. وحقيقتها: وقاية شر الذنب.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه، ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه، ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله"([208]).

وقد ورد الاستغفار على ثلاثة أوجه:

الأوّل: بمعنى الرّجوع عن الشرك، والكفر: ﴿فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾[نوح: 10]، ﴿وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ﴾[هود: 3].

الثّاني: بمعنى الصّلاة، كقوله تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: 17]، أي المصلّين.

الثالث: بمعنى طلب غفران الذنوب، كقوله تعالى: ﴿واستغفر لِذَنبِكَ﴾[غافر: 55]، وقوله: ﴿استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[التوبة: 80]، وقوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره**﴾[النصر: 3]([209]).

وَالْأَصْل فِي الغَفْر: التَغْطِية، وَمِنْه سمّي المِغْفَرُ، لِأَنَّهُ يَغفِر الرأسَ، أَي يلْبسهُ ويُغَطّيه. قَالَ: وَالْمَغْفِرَة من الذُّنُوب كَذَلِك أَيْضاً، إنّما هُوَ إلباس الله الناسَ الغُفرانَ، وتغمّدهم بِهِ([210]).

والاستغفار: طلب المغفرة قولاً وفعلاً. وقوله: ﴿استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾[نوح: 10]، لم يؤْمَرُوا أَن يسأَلوه ذلك باللسان فقط، بل به وبالفعل، فبدونه قول الكذَّابين([211]).

---

[208] - مدارج السالكين: (1/314-315)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1416 هـ - 1996م.

[209] - بصائر ذوي التمييز: (2/166).

[210] - غريب الحديث لابن سلام: (3/348).

وقد كثر في القرآن ذكرُ الاستغفار:

- فتارةً يؤمر به، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة: 199]، وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود: 3].
- وتارةً يمدحُ أهلَه، كقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[آل عمران: 17]، وقوله: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات:18]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران: 134].
- وتارةً يذكر أن الله يغفر لمن استغفره، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[النساء:110].

استغفار اللسان:

وأمّا استغفارُ اللسان مع إصرار القلب على الذنب، فهو دُعاء مجرَّد، إنْ شاء الله أجابه، وإنْ شاء ردَّه.

وقول القائل: أستغفر الله، معناه: أطلبُ مغفرته، فهو كقوله: اللهمَّ اغفر لي. فالاستغفارُ التامُّ الموجبُ للمغفرة: هو ما قارن عدمَ الإصرار، كما مدح الله أهله، ووعدهم المغفرة. قال بعض العارفين: من لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره. وكان بعضُهم يقول: استغفارُنا هذا يحتاج إلى استغفارٍ كثير. وفي ذلك يقولُ بعضهم: أستغْفِرُ الله مِنْ أستغفرُ الله.

فأفضل الاستغفار ما اقترن به تركُ الإصرار، وهو حينئذ توبةٌ نصوح([212]). وإن قال بلسانه: أستغفر الله وهو غيرُ مقلع بقلبه، فهو داعٍ لله بالمغفرة، كما يقول: اللهمَّ اغفر لي، وهو حسن، وقد يُرجى له الإجابة. وأما من قال: توبةُ الكذابين، فمرادُه أنَّه ليس بتوبة، فإنَّ التَّوبةَ لا تكون مَعَ الإصرار([213]).

---

[211] - بصائر ذوي التمييز: (136/4).

[212] - مدارج السالكين، منزلة التوبة.

[213] - ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم: (395)، مؤسسة الرسالة –بيروت، 1417هـ - 1997م.

الحث على الاستغفار وفضله:

وأفضل أنواع الاستغفار: أنْ يبدأ العبدُ بالثَّناء على ربِّه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة، كما في حديث شدَّاد بن أوس (رضي الله عنه) عن النَّبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (**سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِك مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا مِنَ النهَارِ مُوقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**)[214].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أنَّ أبا بكرٍ الصديق (رضي الله عنه) قال: يا رسولَ الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: (**قل: اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظُلماً كثيراً، ولا يغفرُ الذُّنوب إلاَّ أنتَ، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنَّك أنت الغفورُ الرحيم**)[215].

وفي السنن الأربعة عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: إنْ كنَّا لنَعُدُّ لرسولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في المجلس الواحد مئة مرَّة يقول: (**ربِّ اغفر لي وتُب عليَّ، إنَّك أنتَ التوَّابُ الغفور**)[216].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النَّبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (**واللهِ إني لأستغفر الله وأتوب إليهِ في اليَوم أكثرَ مِن سَبعين مَرَّة**)[217].

وفي صحيح مسلم عن الأغرِّ المزني (رضي الله عنه) عن النَّبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (**إنَّه لَيُغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليوم مِئَة مَرة**)[218].

وفي " سنن أبي داود وابن ماجه عن ابن عباس، عن النَّبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (**مَن أكثرَ مِن الاستغفارِ جَعل الله لَهُ مِن كلِّ همٍّ فرجاً، ومِن كلِّ ضيقٍ مَخرجاً، وَرَزقه مِن حَيث لا يَحتسِبُ**)[219].

---

[214] - صحيح الجامع الصغير: (رقم: 3674)، وفيه: رواه أحمد والبخاري والنسائي عن شداد بن أوس.

[215] - نفسه: (رقم: 4400).

[216] - نفسه: (رقم: 3486).

[217] - نفسه: (رقم: 7091).

[218] - نفسه: (رقم:2415).

[219] - ضعيف الجامع الصغير: (رقم: 5829).

قالوا في الاستغفار:

- قال أبو هريرة (رضي الله عنه): إنِّي لأستغفرُ الله وأتوب إليه كلَّ يوم ألف مرَّة، وذلك على قدر ديتي.
- وقالت عائشة (رضي الله عنها): طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً.
- قال أبو المِنهال: ما جاور عبدٌ في قبره من جارٍ أحبَّ إليه من استغفار كثير.
- قال قتادة: إنَّ هذا القرآن يدلُّكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذُّنوب، وأما دواؤكم: فالاستغفار.
- قال بعضهم: إنَّما مُعوَّلُ المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته ذنوبه، أكثر لها من الاستغفار.
- ومن زاد اهتمامُه بذنوبه، فربما تعلَّق بأذيالِ من قَلَّت ذنوبُه، فالتمس منه الاستغفار. وكان عمر(رضي الله عنه) يطلب من الصبيان الاستغفار، ويقول: إنَّكم لم تُذنبوا. وكان أبو هريرة (رضي الله عنه) يقول لغلمان الكُتّاب: قولوا اللهمَّ اغفر لأبي هُريرة، فيؤمن على دعائهم([220]).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾: أي: منذ خلق المكلفين، أي مبالغاً في قبول توبتهم، فليكن المستغفر التائب متوقعاً للقبول([221]).

فقه الاستنباط:

1. يقول ابن عاشور: " فـ﴿**إِذَا**﴾ اسم زمان مطلق، فقد يستعمل للزمن المستقبل غالباً. ولذلك يضمن معنى الشـرط غالباً، ويكون الفعل الذي تضاف إليه بصيغة الماضي غالباً لإفادة التحقق.

وإذا هنا مضمنة الشـرط لا محالة لوجود الفاء في قوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾، وقضية الاستقبال وعدمه تقدمت.

والنصر: الإعانة على العدو. ونصـر الله يعقبه التغلب على العدو. والفتح: امتلاك بلد العدو وأرضه"([222]).

---

[220] - جامع العلوم والحكم: (ص473، الحديث الثاني والأربعون).

[221] - روح المعاني: (495/15).

[222] - التحرير والتنوير: (590/30).

2. إضافة نصـر إلى الله، تشعر بتعظيم هذا النصـر، وأنه نصـر عزيز خارق للعادة، اعتنى الله بإيجاد أسبابه، ولم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثالها([223]).
3. إذا كان نزول السورة قبل فتح مكة، فيكون النصـر هو الانتصار على قريش، والفتح، هو فتح مكة وما جاورها من البلاد في زمن الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، أما إذا كان نزولها بعد فتح مكة، فأين النصـر والفتح؟ قد يكون النصـر والفتح مستمر، وما قد سيأتي إلى يوم القيامة، والله أعلم.
عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**)([224]).
4. أن النصـر بيد الله - عز وجل- لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: 160].
وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].
وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].
وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].
التذكير بنعم الله تعالى على العباد، التي لا تعد ولا تحصى، من نعمة النصـر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، لقوله: ﴿**بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾، فقرن الحمد باسم الرب، ووصف الربوبية فيه تذكير بنعمه - عز وجل - كما قال عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[النحل: 18]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: 53].
5. الإشارة إلى أن النصـر يستمر للدين، ويزداد عند شكر الله بالتسبيح بحمده واستغفاره، كما قال عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: 7]. ولم يزل نصـر الله لدينه، في عصـر النبوة، وعصـر الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم، لمّا كانت الأمة شاكرة لله عز وجل، مسبحة لحمده مستغفرة، قائمة بأمره متمسكة بحبله. ولمّا حدث في الأمة ما حدث من المخالفة لأمر الله، أصابها ما أصابها من

[223] - التحرير والتنوير: (590/30).
[224] - مسند الإمام أحمد: (16957)، إسناده صحيح على شـرط مسلم.

الضعف والاختلاف والتفرق. ووعد الله بالنصـر ثابت لا يتخلف. كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْـرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[225].

6. الرؤية في قوله: ﴿ **وَرَأَيْتَ النَّاسَ**﴾، يقول ابن عاشور: "يجوز أن تكون علمية، أي وعلمت علم اليقين أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وذلك بالأخبار الواردة من آفاق بلاد العرب، ومواطن قبائلهم، وبمن يحضـر من وفودهم. ويجوز أن تكون رؤية بصـرية، بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة، يدخلون في الإسلام، وذلك سنة تسع. وقد رأى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ببصـره ما علم منه دخولهم كلهم في الإسلام، بمن حضـر معه الموقف في (حجة الوداع)، فقد كانوا مائة ألف، من مختلف قبائل العرب، فتكون جملة (يدخلون) في موضع الحال من الناس"[226].

7. يقول سيد قطب:"التسبيح والحمد على ما أولاهم من منّة، بأن جعلهم أمناء على دعوته، حراساً لدينه. وعلى ما أولى البشـرية كلها من رحمة بنصـره لدينه، وفتحه على رسوله، ودخول الناس أفواجاً في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى والضلال والخسـران.

8. والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة، دقيقة، لطيفة المدخل: الاستغفار من الزهو، الذي قد يساور القلب، أو يتدسس إليه، من سكرة النصـر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشـري.

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب، أو تدسس إليه، في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر.. من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصـر.

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره. فجهد الإنسان - مهما كان – ضعيف، محدود، وآلاء الله دائمة الفيض. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار..

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار.. ففيه إيحاء للنفس، وإشعار، في لحظة الزهو والفخر، بأنها في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها، وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور"[227]..

---

[225] - تدارك بقية العمر في تدبر سورة النصـر: (ص14). تيسير الكريم الرحمن: (ص939).

[226] - التحرير والتنوير: (592/30).

[227] - في ظلال القرآن: (3696/6).

9. ختم اللَّه هذه السورة بأمر اللَّه نبيه بالإكثار من الصلاة، والتسبيح للَّه، أي تنزيه اللَّه عن كل ما لا يليق به، ولا يجوز عليه، والحمد للَّه على ما آتاه من الظفر والفتح، وسؤال اللَّه الغفران مع مداومة الذكر. واللَّه كثير القبول للتوبة على المسبّحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم.
10. أمر اللَّه تعالى بالتسبيح أولاً، ثم بالحمد، ثم بالاستغفار، لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق، وهو التسبيح والتحميد، على الاشتغال بالنفس. وقدم الأمر بالتسبيح، حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصـر سنين لإهمال مثلاً، فاللَّه ينزّه ويقدّس عن إهمال الحق. وأتى بالاستغفار، حتى لا يفكر النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.
11. الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافياً في أداء ما وجب على النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وأمّته، من شكر نعمة النصـر والفتح([228]).
12. دعوة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى الاستغفار، هي دعوة له، وللمؤمنين معه- من باب أولى- إلى لقاء الله تعالى تائبين مستغفرين، بعد أن يتم الله عليهم نعمة النصـر والفتح، ويبلغ بهم منزل السلامة والأمن.. وإنه ليس في هذا الاستغفار إلا مراجعة لما وقع في النفوس من ظنون بالله عند بعض المؤمنين، أو ضجر من الصبر على البلاء عند بعض آخر، أو شعور بشيء من الأسى والحزن عند فريق ثالث([229]).
13. قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً**﴾ أي كثير التوبة على عباده، واسع المغفرة لذنوبهم.. وفي المبالغة في التوبة دلالة على كثرتها، والدلالة على كثرتها، دلالة على كثرة ذنوب العباد([230]) ❐

[228] - التفسير المنير: (30/451-452).
[229] - التفسير القرآني للقرآن: (16/1702).
[230] - التفسير القرآني للقرآن: (16/1702).

بصراحة

الحجم الحقيقي لموظفي الدولة والانتخابات القادمة

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

✍ أعلنت المالية النيابية، في الفترة الماضية القريبة، أن وزارة المالية لا تعرف حجم الإيرادات والنفقات العامة، ولا تعرف أيضاً الحجم الحقيقي لموظفي الدولة!، ونشرت هذه المعلومة في صحيفة رسمية ممولة من الميزانية العامة!

عندما قرأت هذا الخبر، أصابتني الدهشة، وحاولت أن أقنع نفسي أن ما قرأته ليس خيالاً و لا وهماً، ولكن هيهات..هيهات!

هذه المعلومة، إن دلت على شيء فإنما تدل على حجم الكارثة التي يعاني منها المواطن المنكوب، وتدل أيضاً على كل ما جرى ويجري من الفساد والدّمار والخراب في مفاصل الدولة.

نقترب من عقدين على التغيرات التي حصلت منذ 2003، ومرّرنا بدورات انتخابية عديدة، شاركت فيها قوائم مختلفة وعدت بالتغيير الجذري في حياتنا، التي تفتقر إلى أبسط الخدمات؛ كالكهرباء، والمياه الصالحة للشرب!، والنتيجة: لجأنا إلى الشوارع، وهتفنا ضد الفساد المستشري في مؤسسات الدولة، واستشهد متظاهرون أبرياء، ومن ثمّ وعدت الحكومة بصرف رواتب لذويهم!

والسؤال هنا، هو: ماذا يقول مرشحو القوائم المختلفة في الانتخابات القادمة، من نفس الكيانات والقوائم المشاركة الآن في الحكومة وخارجها؟ وبماذا وعدوا المواطنين؟

أخبروهم بصراحة: إنهم جميعاً فشلوا في إدارة دولة أنعم الله عليها بخيرات كثيرة، وبثروة بشرية ضخمة تستحق كل الاحترام والتقدير، لا أن يلجؤوها إلى الشوارع والميادين!

أخبروهم بصراحة: أن لا يرشحوا أنفسهم مرة أخرى، وأن لا يسمحوا لأنفسهم أن يعتلوا المنصات في الحملات الانتخابية، ليقطعوا وعوداً على عواتقهم، جرّبناها في العقدين الماضيين!

أخبروهم، أن الحياة في هذه البقعة الجغرافية (العراق) تتطلب أشخاصاً نزيهين قادرين على تحمل المسؤولية بأمانة وإخلاص، لا هؤلاء الذين نسوا - بعد جلوسهم على كراسي السلطة - ما وعدوا به، وقالوا لنا دون أي خجل: إنهم لا يعرفون الحجم الحقيقي لموظفي الدولة!❐

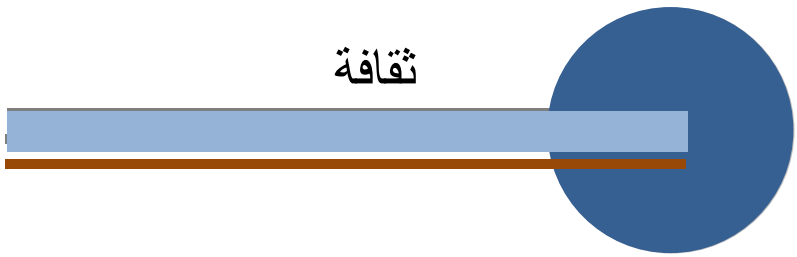

- الأدب وقضايا الفكر والإيديولوجيا	د. مصطفى عطية
- قصة واقعية - مَوْدا المنكودة	عبد الخالق البرزنجي

الأدب وقضايا الفكر والإيديولوجيا

د. مصطفى عطية جمعة

✍السؤال المحوري الذي ننطلق منه في هذا المقال: كيف يكون دور الأدب العربي في مواجهة الغلو والانحراف الفكري؟ والإجابة عن هذا السؤال تقودنا - بداية - إلى مناقشة علاقة الأدب بالمرجعيات الفكرية (الإيديولوجيات).. فالإيديولوجية هي: نظام أو منظومة منهجية للأفكار، التي ترتبط عادة بالسياسة أو المجتمع أو سلوك جماعة معينة، تدعو إلى تفسير العالم، وإلى تغييره، في آن، وتكون موضع اعتناق أو إيمان ضمني أو عام من قبل الفرد، لأنها تتألف من معتقدات وقيم يتبناها الوجدان. وهي - عادة – مترابطة، وتنتقل من وعي إلى وعي، عن طريق الرموز الاجتماعية، بطريقة مبسطة وفعالة. أيضاً هي ترتبط بالسلوكيات والأفعال التي يقوم بها الفرد والجماعة، بل إن هذه الممارسات تعكس - بشكل مباشر - الأفكار التي يؤمن بها الفرد[231]. وهي بذلك تنطبق على الدين، وعلى الفلسفات، والمرجعيات، المختلفة، التي تنبثق منها تصورات ومفاهيم وأبعاد رؤية الإنسان للحياة، والعلوم الإنسانية، وغيرها.

[231]) الفن والإيديولوجيا ، د. رمضان بسطاويسي ، مجلة الفكر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، العدد السادس ، إبريل / يونيو 2017م ، ص165 ، 166 .

أما عن علاقة الفنون / الآداب بالإيديولوجيا، فهي علاقة مباشرة، فلا يوجد إنسان بلا إيديولوجيا، أو مرجعيات فكرية أو دينية أو فلسفية، فكل إنسان له تحيّزاته الخاصة، ورؤاه وقناعاته، التي يتخذها في الحياة والمواقف والممارسات.

ويتميز الأديب بمقدرته على بناء عناصر الواقع المادي بهدف إبراز عناصر فيه، أو نقده، أو الحلم بعالم جديد. وهو ما يميز الأدب - بأشكاله المختلفة - عن الإيديولوجيا، بأفكارها المجردة. فالإيديولوجيا تظهر في اللغة التي يستخدمها الأديب في إبداعاته، بل إن كل وسيط جمالي يشكل لغة قائمة بذاتها، ولها دلالتها الرمزية، وسياقاتها الاجتماعية[232]. وكي نعرف الإيديولوجيا في الأدب، علينا دراسة الأشكال الإبداعية التي عبرت عنها على مستوى البنية واللغة والجماليات، وليست الأفكار المجردة فقط. فالعلاقة بين الأدب والإيديولوجيا تظهر في القضايا والموضوعات الكبرى التي يطرحها العمل الأدبي، وتتجلى في الأسلوب والإيقاع والصورة النوعية والشكل، مما يقتضي منا فهم خصوصية الحقل الجمالي، واختلافه في قدراته التعبيرية المتنوعة[233]، والتي تستلزم تأويلاً وتفسيرًا للرموز والعلامات الخاصة به، كي يعي الدارس كيف انعكست الإيديولوجيا على الأدب، وكيف صاغ الأديب فكره إبداعياً.

في ضوء ذلك، نؤكد على أهمية المرجعية الفكرية للأديب، فأي إنسان له قناعاته المنعكسة في آرائه ومواقفه، وهو ما ينطبق بالضرورة على الأديب. يأتي هذا رداً على من يقول: "إننا في عصر سقوط الإيديولوجيات الكبرى؛ مثل الماركسية والوجودية، وإن على الأديب أن يتحرر من الإيديولوجيات وفرضياتها وقناعاتها، لينطلق فيصوغ وجدانه وإبداعه بكل شفافية وتحرر". وهذا تصور مغلوط، فسقوط الإيديولوجيات الكبرى في العالم ناتج عن فشلها في تحقيق السعادة للبشرية، وفساد أنظمتها السياسية، وجمود أفكارها، وتحجر قناعات معتنقيها، الذين امتلكوا تفسيراً واحداً للعالم وأحداثه وقضاياه، ألزموا به أنفسهم، مثلما فرضوه قسراً على المبدعين في بلادهم. ولنا في الكتلة الشيوعية (الاتحاد السوفيتي، وحلف وارسو) نموذجاً، حيث تم فرض إيديولوجية بعينها على المبدعين، لا يستطيعون فكاكاً منها، وإلا طالهم سيف الرقابة، ولحقتهم عصا الأمن، فعلى الأديب الماركسي- الملتزم أن يتبنى الواقعية الاشتراكية في نظرته للعالم، وأن يعلن عن (حتمية الحل الاشتراكي)، وكأن لا خلاص إلا بالاشتراكية، ولا سبيل غيرها، بينما الأديب نفسه

[232]) السابق ، ص168 .

[233]) السابق ، ص172 .

الذي يعيش في مجتمعه الاشتراكي يرى النفاق والفساد والاستبداد أمام عينيه كل يوم، من قبل قادة الحزب الشيوعي ومتنفذيه، أي أنه يصوغ الكذب صدقاً، ويجعل الإبداع زيفاً.

لقد نسي هؤلاء أن كل أديب لديه تصوراته وقناعاته، التي ينظر بها للعالم، وهي مزيج من معتقداته الموروثة، وقيمه الأخلاقية، وفكره السياسي، وتحيزاته الخاصة. فلا يوجد أديب يكتب في المطلق، وبدون قضايا وأسس وقيم، وإلا كانت كتابته أقرب إلى العبث، فالمجتمعات الإنسانية كانت - وستظل - تمتلك مرجعياتها الفكرية والأخلاقية التي تحكم حياة البشر فيها، وتجعلهم يتفقون على أفعال مشتركة.

وفي منظومة الثقافة العربية الإسلامية، تكون المرجعية الفكرية المترسخة في وعي الأديب وهو يصوغها في إبداعاته، هي الإسلام: الدين، والعقيدة، والفكر، والحضارة، والتنوع، والتسامح، وقبول الآخر، ودعم الحريات والحقوق.. إلخ. وهذا نابع من المفهوم الوسطي للإسلام، الذي يؤكد على التوسط في كل الأمور والرؤى والأفعال، دون إفراط أو تفريط، وأن الدين مبني على السماحة واليسر[234].

وهذا ما يجب التأكيد عليه، فإذا كان للأديب الوعي والعمق المعرفيان بثقافته العربية الإسلامية وقيمها وأخلاقها، ستكون رؤيته أكثر رحابة وهو يبدع، لأنه مدرك أن الفكر المتطرف والسلوك العنيف كليهما خارجان عن النسق الثقافي للإسلام ومجتمعاته، مثلما هما لا يمتان بصلة إلى المنظومة الحضارية الإسلامية. وبهذا، لن يسقط فيما سقط فيه الآخرون، عندما رأوا أن كل ملتزم دينياً هو متطرف بالسليقة، وإرهابي محتمل بالتراتبية، وكأن النموذج المثالي لديهم هو الشخص الغارق في مشكلات ذاته العاطفية والنفسية والمادية والاجتماعية، دون أيّ مساحة لوجود الدين في فكره أو سلوكياته، فإذا تعرض لأزمة عنيفة، فهو إما معاقر للخمر، أو غارق في نزعة صوفية، تنأى به عن الناس والحياة، ليعيش في غربة اختيارية.

إن المشكلة التي سقط فيها كثير من الأدباء الذين تبنوا المذهبيات الفكرية الغربية، أنهم لم يفهموا حقيقة الإسلام، وشموليته الفكرية، ومنظومته المعرفية، التي أنتجت حضارة أبدعت في شتى العلوم والفنون والآداب. لقد تعامل هؤلاء مع الإسلام من المنظور الغربي الكنسي العلماني، الذي يحصر الإسلام في مفهوم كهنوتي لا يتجاوز المسجد في شعائره، ويعدّون التراث أوراقاً صفراء، علينا التخلص منها، أو حفظها دون إحيائها، وفي أحسن الأحوال مناقشتها وحصرها في الكتب.

[234]) انظر في مفاهيم الوسطية وتأصيلها الشرعي : الغلو في الدين ، م س ، ص25 – 45

أيضاً، من الأخطاء الفجة التي يقع فيها الكتّاب العلمانيون، عندما يتعاملون مع قضية التطرف الديني، أنهم يضعون أنفسهم مجتهدين في العلوم الشرعية جنباً إلى جنب مع علماء الشرع، بل إنهم يحتقرون الموروث الشرعي كله، ويجعلون كتاباتهم هي السبيل الوحيد للتقدم؛ مما يزيد من النزعة العدائية ضدهم، لأنهم لا يواجهون التطرف، وإنما يخلطون الأوراق والمفاهيم ليهاجموا الإسلام ذاته، مما يثير حفيظة كل من هو غيور على الإسلام، ويشعل التطرف المضاد.

والأمر الأشد خطراً، أنهم يضعون الفن في مواجهة التطرف الديني، بمعنى أن المتطرف غير متذوق للفنون والآداب والموسيقى والغناء، لأن الإسلام - ببساطة - يحرّم الفنون، ويكبت الحريات. وهذه النظرة ناتجة عن الفهم السقيم والجهل العليل بالفقه الإسلامي، ولو ضغط أحدهم على أزرار حاسوبه الشخصي ليعرف موقف الإسلام من الفنون، لوجد ما يشفي غليله، ولكنه تحيّزهم الأعمى، وقناعاتهم المسبقة، التي تستريح على مفاهيم باطلة، تجمدت عقولهم عليها. ومن أبرز الأمثلة على ذلك سلسلة أفلام (يوسف شاهين)، التي عالجت ظاهرة التطرف من منظور علماني مستفز، كما في فيلمه (المصير) (1997)، حيث أظهر شخصية العالم الجليل (ابن رشد) بأنه عاشق للغناء والموسيقى، ويواجه زمرة المتشددين في عهده بالرقص والطرب، وأن ابنته متيمة بحبيب، وزوجته تراقص الرجال، ومعلوم أن ابن رشد عالم وفقيه ومجدد، بجانب كونه فيلسوفاً عظيماً، فهل هذه سلوكيات فقيه؟

إن مواجهة التطرف والغلو والانحراف الفكري، في المنظور الأدبي والفني، يتأتى من تكوين ثقافة إسلامية عربية أصيلة من قبل المبدع ذاته، وتبنيه لقضايا الأمة النهضوية والحضارية، ووعيه التام بأن للأدب دوراً كبيراً في موكب الحضارة الإسلامية، ومن ثم النظر إلى الواقع المعيش، وأبرز القضايا الملحة، خاصة في المجال الفكري، ومن ثم يقوم الأديب بتقديم تمثيل راق للإسلام: بصورة راقية للإسلام الحضاري والثقافي والفكري، تنتصر لكل ما هو خير وإنساني، وتركّز الضوء على الجوانب المشرقة والمستنيرة من الحضارة الإسلامية، وما أكثرها، وتتوقف عند الشخصيات العظيمة المؤثرة، فتعرض أعمالها ومواقفها❐

قصة واقعية

مَوْدا المنكودة

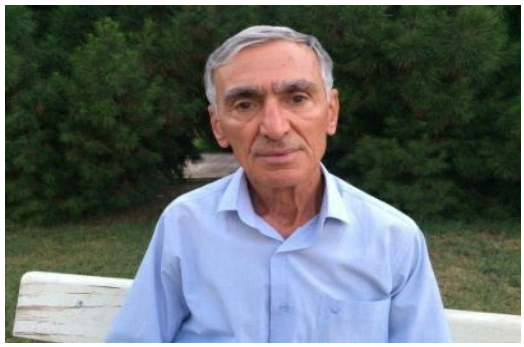

قصة وترجمة: عبد الخالق البرزنجي

✍ ان الوقت يقترب من أصيل فصل صيفٍ لاهب، وهو جالسٌ أمام عربانته منتظراً زبوناً يأتي إليه لشراء بعض الفواكه والخضروات.. بغتة سمع ضوضاءً وجلبة هائلتين، ثم رأى أصحاب العربانات يهربون أمامه مذعورين ويرددون:

- أيها الإخوة، ها هو ذا قادمُ.. ها هو ذا قادمٌ..

حين شاهد من بعيد بعض حاملي التواثي وهم يقتحمون صفوف الباعة، ويُقلِّبون الفواكه والخُضر من على سطح العربانات فوق أديم الأرض رأساً على عقب.. كان (هـيَمن) متحوطاً من ذلك، وحمل بسرعة ميزانه وأوزان الكيلوات الحديدية بين يديه وحضنه، وأوصل نفسه إلى مقدم باب بيته، دون الحصول على أي رأسمال في ذلك اليوم. توقف قليلاً، وحار في أمره، ثم تمتم مع نفسه قائلاً:

- إلهي الكريم، ما قيمة هذه الحياة، وهم لا يدعوننا وشأننا نمارس التكسب اليومي؟! اليوم حصراً لم أتمكن حتى من شراء عُلبة حليب لرضيعي! وغداً أو بعد غد ماذا بصدد ابنتي إن رزقنا الله بها؟

على غفلة فتحت زوجته الباب، وولج هو إلى البيت.

سألته زوجته:

- لماذا أنت مرتبك هكذا يا حبيبي؟

- خشية من حاملي التواثي تركتُ عربانتي، وبالكاد تمكنتُ من إنقاذ هذا الميزان ووسائل البيع من بين أيديهم.

تأثر الاثنان بالموقف الظالم، وأجهشا معاً في البكاء.

عقب خفوت الوضع المتوتر فيما بينهما قالت (جنار) لبعلها:

- لا تحزن كثيراً يا حبيبي، فالله سبحانه وتعالى هو أكبر من السلطان محمود.. أقول: لِمَ لا نرحل إلى خارج البلاد، كما فعل جيراننا؟

بعيون دامعة أجابها هيمن قائلاً:

- كيف لنا أن نغادر تراب أجدادنا، وهنالك نموت غرباء؟

قالت له جنار:

- يقيناً إن بقينا هنا، إما نلجأ للاستجداء، أو نموت جوعاً!

فكَّر هيمن قليلاً، ثم عانق زوجته، وأجهشا معاً في بكاء مُر كرة أخرى.

أخيراً اتفقا، وقرّرا المغادرة.. هكذا، وعلى مضض، شرعا ببيع أثاث البيت بأسعار زهيدة جداً، واقترضا مبلغاً آخر من المال لاستدامة السفر.

أخيراً، وعُقب مرور شهر من مخاطر الطرق، وفي ظل ظروف صعبة، زاد من صعوبتها أن جنار كانت حاملاً.. وطأت أقدامهم أرض(المانيا)، واستقروا في أحد معسكرات اللجوء.

في أعقاب بقائهم عدة أشهر في بلاد الغربة، رزقهما الله ببنت جميلة، وأسمياها (مودا)، وقد عقدا عليها أملاً كبيراً، لا سيما عند بلوغ عمرها السنتين.

ولكن إصابة هذه الأسرة، وغالبية العوائل الكورد الأخريات، باليأس في الحصول على الإقامة، علاوة على الفوضى العارمة لأحوال معسكر طالبي اللجوء، دفعتهم ونظرائهم من عوائل أخرى، للتفكير في مغادرة هذا البلد صوب بلد آخر.

قبل المغادرة انتابهم القلق والتردد، لم يهدأ بالهم، بل ارتبكوا كثيراً، وشُحِبت طلعاتهم إزاء الظروف السيئة التي كانوا يعيشون فيها، لكأن القسمة مكتوبة على جباههم بأن مأساةً ما حقيقية تنتظرهم لا محالة، إن عاجلاً أم آجلاً. لهذا السبب تريثوا لبضعة أيام، وجرى تبادل الآراء والتشاور فيما بينهم.. فعبارات: هل نغادر أم لا؟ هل نغادر هذه البلاد أم لا؟ متى نُغادر؟ كانت تتردد صداها في آذانهم دوماً.

في ليلة ليلاء غادروا تلك البلاد، كان الركاب جالسين متكاتفين داخل السيارة التي أقلتهم صامتين صمت الأخرس، قطعوا طرق الغابات الملتوية والشائكة، لم يك يتناهى إلى الأسماع سوى حفيف الأشجار، وخرير المياه، ونقيق الضفادع، الطقس كان مخيفاً، وأرغمهم على التزام الصمت المطبق. كان الولد نائماً في حضن هيمن، بينما البنت كانت نائمة في حضن والدتها جنار. وعلى خلفية الإنهاك الذي استبد بها مالت برأسها قليلاً فوق كتف هيمن لتأخذ قسطاً من الراحة.

على حين غرة، وقبل اجتيازهم الحدود صوب بلد آخر، انطلقت زخات إطلاقات نارية نحو سيارتهم، وتسببت في إيقاف السيارة، وإثارة الجلبة والضوضاء داخلها. نزل ركاب السيارة واحداً تلو الآخر، دبَّتْ الفوضى بينهم بسبب الفزع الذي أصابهم. حينما نظروا إلى محيطهم، وإذا بهم يرون رجال الشرطة حولهم، وقد نوروا المكان بالبلاجكتورات وأضوية سياراتهم.

في هذه الأثناء أجال هيمن ناظريه وراء زوجته جنار، لمحها وهي واقفة هنالك والدماء تنزف من جسدها، فيما كانت رقبة ابنتهما متدلية في حضن والدتها. من هول المشهد صرخ بأعلى عقيرته، وتوجه صوب جنار قائلاً لها:

- ماذا بكِ يا حبيبتي، وما هذه الدماء التي تنزل على جسدكِ؟

رمقتْ جنار الى ابنتها مندهشة. ثم زعقت بأعلى صوتها قائلة:

- أيها الناس ابنتي.. أيها الناس ابنتي..!

سحب هيمن ابنته من حضن زوجته، وإذا به يرى خرطوشة أصابت رأسها، والدماء تنزف فوق صدغيها، وعلى مرأى رجال الشرطة والناس رفع ابنتهما إلى السماء قائلاً:

- يا إلهي، لِمَ نحن الكورد المظلومين نُصاب بهذه الأهوال حتى في بلاد الغربة؟!

حين رأى رجال الشرطة هذا المشهد المُفجع ل(الرضيعة) أُصيبوا بالصدمة،على إثرها جثوا على ركباتهم، وأنزلوا قبعاتهم من فوق رؤوسهم إجلالاً لها، وقد أجهشوا في بكاءٍ مُرّ، جنباً إلى جنب الناس المتجمهرين هناك.

أخيراً، وعِبر مراسم حكومية لائقة، تم مواراة (مَوْدا) الثرى من قبل والديها، وجمع كبير من المواطنين البلجيكيين، واللاجئين الكورد هناك، في مقبرة المغتربين. ومن هناك زارتها ملائكة الرحمن، ونَقلْنَ روحها الطاهرة إلى جوار ربها❐

نهاية سنة 2018

معجزة النبي محمد كانت (كلمة)!

محمد واني

✍ الفساد له أصحابه، والإصلاح أيضاً له أصحابه، وكلا الفريقين يتصارعان منذ أن وجد الإنسان.. الحروب والغزوات والأهوال التي حلت وتحل بالإنسان، جرت نتيجة الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، أو بين المصلحين والمفسدين.. قابيل قتل هابيل لأنه اعتقد أنه أعز شأناً منه، وأعظم مكانة، لذلك سمح لنفسه أن يأخذ أكثر من حقه المعلوم، من خلال سلب حقوق أخيه، ولم يجد حرجاً في قتله وإزاحته عن طريقه، لأنه ليس من النوع الذي يتنازل عن حقه بسهولة، ولا يخاف التهديد، وقد جرب معه وفشل! لذلك طوعت له نفسه في النهاية قتل أخيه، فقتله، وظن أنه بذلك قد حقق حلمه، ولكن حلمه لم يتحقق أبداً، وخسـر كل شيء، وأصبح من النادمين على هذه الصفقة الخاسرة !

وإذا كان الفساد مدعوماً من علية القوم، وكبار الشخصيات، ورجال سياسة بارزين، مثل: فرعون، وهامان، وقارون، ثلاثي السياسة والمال والقوة المسلحة، فإن الإصلاح يدعمه أنبياء، ومصلحون، وفقراء، وعبيد، وعوام القوم.. كل الأنبياء، واتباعهم، تعرضوا إلى معاناة شديدة، وعذاب أليم، من قبل الفاسدين المهيمنين على مقدرات المجتمع والدولة والقوة: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}.. وماذا بإمكان النبي، وأصحاب ضعفاء قليلون، أن يفعلوا ليواجهوا هذه القوة الطاغية؟ لا وجه للمقارنة بين القوتين؛ قوة تحكم، وتدير، ولديها كل أسباب النصر، وقوة ضعيفة، وقليلة، وفقيرة؟! لا وجه للمقارنة بين القوتين.. من المحال أن يتغلب موسـى، المطلوب للقانون، واللاجيء، والهارب من بطش الدولة، على فرعون (رئيس دولة)، وهامان (رئيس الوزراء، ووزير الدفاع)، وقارون (وزير المالية، والبنك المركزي)! ويتغلب عليهم، إن لم يجر الله على يديه معجزات تفوق قوة الثلاثة مجتمعين !

الرسول الأوحد، الذي لم ينتصر بالمعجزات الخارقة، هو نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم- بل كان القرآن هو المعجزة، والداعم، والمحفز لإظهار روعة الإنسان، وقوته الكامنة في مواجهة الفساد والشـرك والوثنية.. أراد الله أن يهدم بنيان الباطل من خلال قوة الإنسان الذاتية، وقدرته التي لا تفوقها قدرة، وهي ربما أعظم من تدمير مدينة، أو تهديم قرية، وهي أكبر المعجزات وأعظمها❐